نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي

بقلم
محمد بن عبد الغني المصري

دار مجدلاوي
عمان - الأردن

نَظَريّة
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
في
النّقد الأدبي

نظرية

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

في

النقد الأدبي

بقلم

محمد بن عبد الغني المصري

دار
مجدلاوي
للنشر والتوزيع
عمان - الاردن

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

دار
مجدلاوي
للنشر والتوزيع
ص.ب ١٨١٩ تلفون ٦٥٨٨٥٩
عمان - الاردن

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد بن عبد الغني المصري . .

نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي/ بقلم محمد بن عبد الغني المصري. عمان: المؤلف، ١٩٨٦ .

ص

ر.أ

١. أدب عربي - تاريخ ونقد ٢. نقد أدبي ٣. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ١٦٣ - ٢٥٥ هـ. أ. العنوان.

رمز التصنيف ٨١٠,٩٠٦١

DDC م ح م

تمت فهرسة هـذا الكتاب بمعـرفة جمعيـة المكتبـات الأردنيـة وبموافقتها رقم (ج.م.أ) ٧/ ٣/ ١٩٨٦ .

الإهـــدَاء

إلى دولة الباشا الشهم . . .
أبي سطام حابس المجالي. . .
اعترافاً بفضله وعهداً على الوفاء. . .
من محمد عبد الغني المصري. . .
ومجد محمد الباكير البرازي. . .

تقــــــديم

لقد كتب كثيرون قبلي عن الجاحظ، واعترف بفضله القدامى والمحدثون، والدراسات التي تناولت الجوانب المختلفة لمعارف أبي عثمان الموسوعية وافرة، ولكنها جميعاً أهملت جانباً هاماً من جوانب المعرفة التي تزخر بها مكتبة عمرو بن بحر، تلك هي الثقافة النقدية والبلاغية.

والحق أن القوم معذورون؛ لأن أحكام الجاحظ منثورة موزعة بين كتبه ورسائله، ولم يصدر أبو عثمان هذه الأحكام بهدف توضيح نظرية نقدية معينة.

ولكني بعد أن وُفِّقت لمصافحة الجاحظ عبر سطوره، وجدت أنني أستطيع أن أرسم معالم نظرية كاملة لأبي عثمان في النقد الأدبي، وأرجو من العليّ القدير أن يوفِّقني لتوضيح معالم هذه النظرية؛ حتى يتسنى لنا أن نعيد النظر في تاريخ النقد الأدبي عند العرب؛ فإن جمهور نقادنا قدامى ومحدثين يجمعون على الاعتراف بالتلمذة على يدي الجاحظ ويوردون له الكثير من الشواهد والآراء في كتبهم النقدية والبلاغية على مرّ العصور. وعلّنا نجد لدى أبي عثمان بعض الحلول للقضايا التي تناقش هذه الأيام حول اللغة والأدب ودور كلٍّ منهما في حياة الشعوب، ثم إن هذا دَين علينا لعلَم من أعلام الإنسانية، وخدمة للغة الضاد، والقرآن الكريم، والله وليّ التوفيق.

محمد عبد الغني المصري
١٩٨٣/١٠/٣٠

فهرس موجز للبحث

البَابُ الأوَّل

الفصل الأول

مقدمة
في
تعريف الأدب والشعر

ولمحة تاريخة
عن
بداية الشعر العربي

مقدمة: في تعريف كلٍّ من الأدب والشعر ولمحة تاريخية عن بداية الشعر العربي وأهميته في الحياة العربية.

أ ـ تعريف الأدب

يرى أبو عثمان أن الأدب أدبان: أدب خلق، وأدب رواية.

ولا تكمل أمور صاحب الأدب إلا بهما، ولا يجتمع له أسباب التمام إلا من أجلهما، ولا يعدّ من الرؤساء، ولا يثنى به الخنصر في الأدباء حتى يكون عقلُه المتأمرّ عليهما، والسايس له.

فإن تمّت بعد ذلك الملاقاة تمّت المصافاة، والشأن قبل ذلك مما يسبق إلى القلب، ويخفّ على النفس؛ ولذلك احترس الحازم المستعدى عليه من السابق إلى قلب الحاكم عليه. ولذلك التمسوا الرفق، والتوفيق، والإيجاز، وحسن الاختصار، وانخفاض الصوت، وأن يخرج الظالمُ كلامه مخرج لفظ المظلوم حتى يترك اللحن بحجته بعد.

وتخلف الداهية كثيراً من أدبه ويغضّ من محاسن منطقه، التماساً لمواساة خصمه في ضعف الحيلة، والتشبّه به في قلّة الفطنة»[1].

وهكذا رأينا أن الجاحظ يحذرنا من المتلاعبين بعواطفنا؛ لأنهم يستطيعون الوصول إلى قلب الحاكم قبل خصمهم عن طريقتين هما:

(١) انظر رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ من رسالته إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

١ - طريقة نفسية:

وتعتمد على:

آ - الرفق.

ب - وانخفاض الصوت.

جـ - وإخراج الظالم كلامه مخرج المظلوم.

د - والتشبّه بالخصم في ضعف الحيلة وقلّة الفطنة.

٢ - طريقة أسلوبية:

وتعتمد على:

آ - التوفيق بين الكلام ومقتضى الحال.

ب - الإيجاز وحسن الاختصار.

وظاهر أن هذه النصائح تفيد المتناظرين الذين كانت مناظراتهم تملأ الجو الثقافي في عصر الجاحظ، وما زالت مفيدة لنا؛ فهي تشير إلى ضرورة التمسك بصدق وأمانة بشرف الكلمة حتى يستحق صاحبها شرف الأدب، ويعدّ في الرؤساء كما قال أبو عثمان، وهذه لعمري كلمة حق تُغني عن كثير مما كتب حول الالتزام وما دار حوله من لغط وما لا يزال يدور في أيامنا هذه دون أن نرى إلا القليل النادر من أصحاب الكلمة الشرفاء الصادقين المؤمنين بشرف رسالة الأدب والدفاع عن لقب أديب.

ويمكن أن نردّ هذا لاطّلاع الجاحظ أيضاً على كتب المنطق والفلسفة. فقد جاء في الفهرست(١) لدى كلامه على كِتب الكندي المنطقية في كتاب رسالته في الاحتراس من خدع السوفسطائيين وقرّرت هذا؛ لأن صاحب الفهرست يشير في موضع آخر إلى أن الكندي لم يكن يعرف اليونانية، وأنه كان يكلف مَن ينقل له عندما يريد الاطّلاع على موضوعات معينة منها رسالة

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ٣٦٣ - ٣٦٦ - ٣٧٢.

نقلها أسطانس[1] وله خبر في ذلك.

فإذا علمنا أن الكندي كان معاصراً للجاحظ حق لنا أن نرجح اطّلاع الجاحظ على حيل السوفسطائيين من خلال الترجمة ولا شك أن أصحاب الفرق الباطنية وغيرهم من الشعوبية كانوا يحاولون التدجيل على العامّة استناداً على أساليب السوفسطائيين، ولهذا انبرى عمرو بن بحر للكشف عن مغالطاتهم منادياً بضرورة تحصين العامة ضد هذا الوباء الذي ينشره دهاقين الباطنية بين عوام المسلمين كما تنتشر النار في الهشيم:

«نعم ومتى يكتب كتاب سعاية ومحل، وإغراق، فيلحن في إعرابه، ويتسخف في ألفاظه، ويتجنب القصد، ويهرب من اللفظ المعجب ليخفي مكان حذّته.

ويستر موضع رفقه حتى لا يحترس منه الخصم، ولا يتحفظ منه صاحب الحكم، بعد أن لا يضرّ بعين معناه ولا يقصر في الإفصاح عن تفسير مغزاه، وهذا هو الذي يكون العيّ فيه أبين، وذو الغباء أفطن، والرديء أجود، والمضيع أحكم؛ إذا كان غرضه الذي إياه يرمي، وغايته التي إليها يجري الانتفاع بالمعنى المتخير دون المباهاة باللفظ المونق، والمعنى المتخير.

بل ربما لم يرضَ باللفظ السليم حتى يسقمه ليقع العجز موضع القوة ويعرض العيّ في محل البلاغة؛ إذ كان حق ذلك المكان اللفظ الدون والمعنى الغفل.

هذا إذا كان صاحب القصة، ومؤلف لفظ المحل، والسعاية ممن يتصرف قلمه، ويعلّل لسانه، ويلتزق في مذاهبه. ويكون في وسعه وصل لأن يحطّ نفسه في طبقة الذل، وهو عزيز، ومحل العي وهو بليغ. ويتحوّل

(١) يقول ابن النديم في الفهرست ص ٥١٠ عن أسطانس: «من الفلاسفة أهل الصناعة، رومي من أهل الإسكندرية...».

في هيئة المظلوم وهو ظالم، **ويمكنه تصوير الباطل في صورة الحق، وستر العيوب بزخرف القول.** وإذا شاء طفا، وإذا شاء رسا، وإذا شاء أخرجه عقلاً صحيحاً.

وما أكثر مَن لا يحسن إلا الجيد، فإن طلب الرديء جاوزه. كما أنه ما أكثر مَن لا يستطيع إلا الرديء، فإن طلب البعيد قصر عنه، **وليس كل بليغ يكون بتلك الطباع ميسر الأداء. وموسعاً عليه في تصريف اللسان، وممنوناً عليه في تحويل القلم...** وقد نجد مَن هو أبسط لساناً، وأبلغ قلماً لا يستطيع مجاوزة ما يشركه، والخروج مما قصر عنه...»[1].

للّه درّك يا أبا عثمان لقد وفيت بأمانة القلم، وأديت ما عليك نحو اللّه وقومك بصدق وشرف وبلغت الغاية في الأمانة والشجاعة في قول الحق وهتكت الحجب التي يتخفى وراءها دهاقنة الدجل الباطني المتمرس بالشعوذة، فوضعت حيلهم، وخداعهم تحت الضوء لنراها بشعة عارية، ولنلمس بيدنا الموسى الحادّة وراء الابتسامات الصفراء التي تطالعنا ولكي نرى رفاق قارون وهم يتنكرون بثياب البائسين لقد قلتها جريئة صريحة **«ممن يتصرف قلمه، ويعلّل لسانه، ويلتزق في مذاهبه».**

آه يا عمرو بن بحر، لو أننا سمعنا، وفهمنا، ثم وعينا وعملنا بوصيتك لما غلب على أمتنا هؤلاء الذين تتصرف أقلامهم، ويعلل لسانهم، ويدافعون عن خياناتهم بكل قحة بشعارات المواجهة مع العدو وهم واللّه يعلم والشعب يرى أطوع للعدو من بنانه وأقرب إلى مخابراته من حبل الوريد.

وهم فعلاً يلتزقون في مذاهبهم فيتاجرون بالشعارات التي هي أحلام الجماهير والعوّام في كل عصر، ويبتكرون اللافتات والشعارات تماماً كما يبدعون موضات عارضات الأزياء.

---

(١) انظر رسائل الجاحظ ـ بهامش الكامل للمبرد طبعة مصر ١٣٢٣/ هـ من رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة ص ٢١٥ ـ ٢٠٦

فهم يوماً دعاة الحق والعدل، ويـوماً يكشِّـرون عن أنياب الـذئب ومذهبهم تمسكن حتى تتمكن، ويوماً يصدعون رأسنا بشعارات تحررية، ثورية. . . إلى آخر المعزوفة ثم في لحظة واحدة نجد أنهم قد صرحوا جهاراً نهاراً بأنهم رضعوا مع سدَنَة هيكل سليمان من حليب أستير، فهم إخوة لكوهين بالرضاع والمعتقد والعقيدة التي تاجروا بها زمناً طويلاً. وهم فعلاً كما وصفت:

«ويكون في وسعه وصْل لأن يحط نفسه في طبقة الذل. . .».

ب ـ تعريف الشعر:

وتقرأ لدى أبي عثمان ما يلي: «وإنما الشأن في: **إقامة الوزن**، وتخير اللفظ، **وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك.**

فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[1].

ونحن لو حاولنا أن نحلّل هذا التعريف الهام والشامل للشعر لعرفنا بعض حدود نظريته النقدية، وهكذا نجد أن قول الجاحظ: إن الشعر صناعة تعني ـ كما جاء في الفقرة نفسها:

١ ـ **تخير اللفظ** السهل المخرج والذي يؤدي المعنى بوضوح.

٢ ـ **إقامة الوزن**، وهذا واضح أنها تعني اختيار البحر والعروض المناسبين، إضافة للبُعد عن الزحافات والعلل ما أمكن حتى يتوفر عنصر الإيقاع للشعر وهو عنصر هام ولا شك.

٣ ـ **كثرة الماء وصحة الطبع**؛ وهذه تعني أن تكون العبارة مأنوسة بعيدة عن التعقيد والتقديم والتأخير وبها تتحقق جودة السبك.

وأعتقد أننا نستطيع توضيح هاته الأحكام بالعودة إلى اختيارات أبي

---

(١) انظر الحيوان ـ الجزء الثالث ص ١٣١ ـ ١٣٢.

عثمان الشعرية ونقده واستجادته لبعض الأبيات دون غيرها، فنجد مثلاً قوله:

«ومن الأشعار الطيبة قول الشاعر في السمك والخادم:

مقبل مدبرٍ خفيفٍ ذفيف   دسم الثوب قد شوى سمكات
من شبابيط لجةٍ ذات غمرٍ   حدبٍ من شحومها زهمات

ففكر فيهما فإنهما سيمتعانك ساعة»(١).

والواقع أن الجاحظ يتمتع بحس لغوي صافٍ رقيق؛ فلو تدبرنا هذين البيتين لوجدناهما يجمعان الشروط التي وضعها أبو عثمان للشعر الجيد سواء من حيث الشكل أو المضمون فقد وفر لهما إيقاعاً جميلاً، وألفاظاً تكاد ترقص؛ سهلة المخرج تدل على ذوق سليم لدى الشاعر، وعلى أنه طوع اللغة فجاءت لينة يصوغها بالصورة المناسبة ويسبكها بالقالب الجميل فكان حقاً قول عمرو بن بحر إنهما سيمتعانك ساعة.

والدليل على أن نقص واحدٍ من الشروط التي قدمها أبو عثمان يعيب الشعر ويقلّل من جودته قول الجاحظ: «وقال زهير:

والإثمُ من شر ما تصولُ به   والبِرُّ كالغيثِ نبتُه أَمِرُ

أي كثير. ولو شاء أن يقول:

والبر كالماء نبته أَمِرُ

استقام الشعر، ولكن كان لا يكون له معنى.

وإنما أراد أن النبات يكون على الغيث أجود»(٢).

---

(١) انظر الحيوان ـ جـ ٣ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨

يقال خفيف ذفيف وخفاف ذفاف: اتباع والمراد بهما السريع. حدب جمع حدباء الخارجة الظهر الداخلة البطن ويقال الزهمات: السمينة الكثيرة والشحم ـ الشبابيط جمع شبوط ضرب من السمك.

(٢) انظر الحيوان جـ ٣ ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

والبيت من البحر المنسرح: مستفعلن مفعلات مفتعلن. الغيث: المطر الغزير.

وإذن فلا بدَّ من وضوح المعنى مع سلامة الوزن والإيقاع وتوفيرِ كل الشروط المطلوبة في الشعر الجديد، ولا يجوز أن يجور شرط على آخر فنضحّي بالمعنى من أجل الوزن أو العكس فالشاعر الحق مَن يستطيع توفير هذه الشروط جميعاً.

ولعلنا لو ضربنا مثالاً ثالثاً لتوضح لدينا حرص الجاحظ على أداء المعنى واستيفاء الفكرة من جميع جوانبها دون تقصير، «وقال النمر بن تولب[1]:

كأن حَمْدَةَ أوعزتْ لها شبهاً ... في العين يوم تلاقينا بأرمامِ
ميثاء جاد عليها وابلٌ هَطِلٌ ... فأمرعت لاحتيالٍ فرط أعوامِ[2]
إذا يجف ثراها بلها ديم ... من كوكبٍ بَزِلٍ بالماءِ سجامِ
لم يرعها أحدٌ وَأَرْبَتْها زمناً ... فأو من[3] الأرضُ محفوفٌ بأعلامِ
تسمعُ للطير في حافاتها زجلاً ... كأن أصواتها أصواتُ جُرَّامِ[4]
كأن ريح خزاماها وحنوتها ... بالليل ريحُ يلنجوجٍ وأهضامِ[5]

قال: فلم يدع معنى من أجله يخصب الوادي، ويعتم نبته إلا ذكره. وصدق النمر».

ويتضح هنا أن النمر أعجب الجاحظ بجمال صوره والشعر جنس من التصوير كما قال أبو عثمان، كما وفر له جمال الأسلوب وحسن الإيقاع.

---

(١) شاعر مخضرم، أدرك الإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، ووفد على النبي ﷺ، وكتب له كتاباً. من أجواد العرب وفرسانهم.

(٢) لاحتيال: أي بعد احتيال. والاحتيال: مرور الأحوال. وفرط أعوام: بعد أعوام قال لبيد:
هل النفس إلا متعة مستعارة ... تمار فتأتي ربما فرط أشهرِ

(٣) الفأو: بطن تطيف به الرمال يكون مستطيلاً.

(٤) الجرام: الذين يصّرمون التمر، أي يقطعونه.

(٥) الخزامى والحنوة: نبتان طيبا الرائحة. واليلنجوج: العود الهندي الذي يستعمل في البخور. أهضام: جمع هَضِم وهضمة ما يتبخر به.

وهذا هو الشعر الجيد كما نرى بحق مع عمرو بن بحر. وهو ما يسمّيه الجاحظ بـ «والشعر الفاخر حسن، وهو من الأعرابي أحسن، فإن كان من قول المنشد وقريضه، ومن نحته، وتحبيره، فقد بلغ الغاية، وأقام النهاية»(١).

وقد عني عمرو بن بحر في توضيح مغالطة بعض المنافقين الذين ادّعوا أن في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بعض أوزان الشعر المعروفة، فردّ عليهم ردّاً مفحماً بقوله:

«ويُدْخَل على من طعن في قوله تعالى: ﴿ تبّت يدا أبي لهب ﴾(٢) وزعم أنه شعر، لأنه في تقدير: مستفعلن مفاعلن وطعن في قوله في الحديث:

«هل أنتِ إلا أصبعٌ دَميتِ، وفي سبيل اللّه ما لقيتِ»(٣) فيقال له: **اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل: «مستفعلن مفاعلن» و«مستفعلن مستفعلن» كثيراً. وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلاً من الباعة صاح: من يشتري الباذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً.**

وهذا قريب، والجواب فيه سهل بحمد اللّه.

وسمعت غلاماً لصديق لي، وكان قد سقي بطنه(٤) وهو يقول لغلمان مولاه:

اذهبوا إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى. وهذا الكلام يخرج وزنه على:

---

(١) انظر رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد- في مدح النبيذ ص ١١٦ - ١١٧
(٢) الآية: ١ من سور المسد.
(٣) وقد زعم بعضهم أن هذا بيت من الشعر قاله النبي إنشاداً لا إنشاءً.
(٤) سقي بطنه: يعني أصابه مرض الاستسقاء.

فاعلات مفاعلن مرتين.

وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر بباله قطّ أن يقول بيت شعرٍ أبداً، ومثل هذا كثير لو تتبعته في كلام حاشيتك وغمانك لوجدته»[1].

جـ ـ لمحة تاريخية عن بداية الشعر العربي:

يقرر الجاحظ أن ما بقي بين أيدينا من الشعر لا يمثل إلا جزءاً قليلاً من التراث الشعري العربي: «. . . وما ضاع من كلام الناس، وضلّ أكثر مما حفظ وحكي؛ واعتبر ذلك من نفسك، وصديقك، وجليسك»[2].

كما يرى عمرو بن بحر أن بداية الشعر العربي لا تتعدى القرنين قبل البعثة النبوية الشريفة: «وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول مَن نهج سبيله، وسهَّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر، ومُهلهل بن ربيعة. . . ويدل على حداثة الشعر قول امرىء القيس بن حُجْر:

إنَّ بني عوف ابتَنَوا حسناً ضيَّعه الدُّخللون إذ غدروا
لا حميري وفّى ولا عُدَس ولا است عبير يحكها الثفرُ
لكنْ عُوَيرٌ وفّى بذمته لا قِصَرَ عابه ولا عَوَرُ[3]

فانظر كم كان عمر زرارة! وكم كان بين موت زرارة، ومولد النبي عليه الصلاة والسلام! فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء اللّه بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[4].

وفي موضع آخر يعرض علينا أبو عثمان بعض النماذج الشعرية القديمة التي صحّت لديه منها:

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٨ بالتفصيل.
(٢) انظر الرسائل بهامش الكامل للمبرد ـ حجج النبوّة ص ٥٤.
(٣) أبو بكر شارح الديوان: كان عوير قد أجار هنداً بيت حُجر أخت امرىء القيس فوفى لها، حتى أتى نجران، فمدحه بوفاء الذمة، ونزّهه من كل عيب. يشين غيره.
(٤) انظر الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٧٤ ـ ٧٧.

«وقال سعد بن ربيعة بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم:

ألا إنما هذا الملالُ الذي ترى ... وإدبارُ جسمي من ردى العثراتِ
وكم من خليلٍ قد تجلدت بعده ... تقطعُ نفسي بعده حسراتِ

وهذا من قديم الشعر وصحيحه» . . .

ومن قديم الشعر قول الحارث بن يزيد، وهو جد الأحيمر اللص السعدي[1]:

لا لا أعقُّ ولا أحوب ولا أغيرُ على مضرْ[2]
لكنما أغزوا إذا ضجَّ المطيُّ من الدبرْ[3]

وبعدها يحلّل أبو عثمان سبب اهتمام العرب بالشعر فيرى ما يلي: «وكانت العربُ في جاهليتها تحتال في تخليدها؛ بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أن الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح،

وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به. .

د ـ أسباب وجود الشعر العربي:

ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غُمدان. . »[4].

١ ـ وإذن فالسبب نفسي يعود إلى ميل الإنسان إلى تخليد ذكره بعد الموت بالشعر الجيد الذي يبقى ذخراً لولده من بعده. إضافة إلى المنفعة

---

(١) الأحيمر اللص السعدي:

(٢) لا أعق: لا أرمي بسهمي نحو السماء، وكان ذلك عندهم علامة الصلح بين الحيين المتخاصمين، لا أحوب: لا تأخذني رأفة أو رحمة،

(٣) وضج المطي: رغت النوق من الدبر. أي القروح التي تصيبها.

(٤) الحيوان جـ ١ ص ٧٢.

المادية التي يحصل عليها الشاعر والمعنوية وهي إضفاء صفة البيان على الشاعر.

٢ ـ على أن أبا عثمان ينقل لنا رأي عالم آخر في **مكانة الشاعر وضرورة دفاعه عن القبيلة بلسانه كما يدافع** عنها الفارس بحسامه. «وقال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يقدَّم على الخطيب؛ لفرط حاجتهما إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهوِّل على عدوهم، ومن غزاهم، ويهيِّب من فرسانهم، ويخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم.

فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. ولذلك قال الأوّل: الشعر أدنى مروءة السريِّ وأسرى مروءة الدنيّ.

قال: لقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبياني، ولو كان في الدهر الأول ما زاده إلا رفعة»(١).

وهكذا نضع أيدينا على أسباب مادية معاشية دفعت بالعرب إلى تخليد الشعر وتكريم الشاعر حتى تغيرت الصورة عندما كثر الشعر والشعراء ولم يحترموا المكانة التي وضعهم بها الناس فسقطوا من أعين المجتمع ولعمري كم تشبه أيامنا تلك الأيام؛ فقد تحول الشعراء والكتاب إلى أبواق لا ترى أبعد من أنفها، ومما زاد الأمر سوءاً اختراع الإذاعة المسموعة والمرئية التي تساعد على نقل الأكاذيب والدجل إلى آلاف الأميال.

٣ ـ وهكذا خافت العرب الشاعر وبكت من الهجاء؛ لأنه يخلد ويحفظ ما يسيء لأبنائها: «وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد، والفعال مثل نمير، يصير أهله إلى ما صارت إليه نمير، وغير نمير،

---

(١) انظر البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٦٣.

فما ظنك بالظُليم وبمناف، وبالحبطات وقد بلغ مضرة جرير عليهم حيث قال:

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قوماً آخرين:

وسوف يزيدكم ضَعَةً هجائي كما وضع الهجاء بني نمير

وحتى قال أبو الرديني[1]:

أتوعدني لتقتلني نمير متى قتلت نمير مَن هجاها»[2]

والسبب هنا اجتماعي يعود إلى مكانة القبيلة بين القبائل المجاورة، أو القبائل المتحالفة معها.

٤ ـ قدر الشعر وموقعه في النفع والضرّ وقضاء الحاجات، وفي هذا كان المعوّل على الميل العام من جمهور العرب نحو الكلام البليغ وتقدير الكلمة الجميلة المعبرة ولطالما كانت معجزة النبي محمد ﷺ القرآن الكريم؛ فقد نزل في قوم يقدِّرون الكلمة البليغة حق قدرها في جاهليتهم وإسلامِهم وهذا واضح من عنايتهم بعلم الكلام، فقد شغفوا أول ما شغفوا بمنطق أرسطو لأنه يشقق لهم القول ويبصرهم بالحجج وسوقها، والأدلة والبراهين، وجاءت الحاجة ماسّة في مناظرات الفرق الإسلامية فيما بينها من جهة وما بينها وبين الأديان الأخرى التي وجدت في الأمصار المفتوحة من جهة أخرى.

وقد روى الجاحظ: «قال عمر بن الخطاب رحمه الله: من خير صناعات العربِ الأبياتُ يقدمها الرجل بين يدي حاجته؛ يَستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم»[3].

(١) أبو الرديني: هو الدلهم بن شهاب العكلي

(٢) الحيوان جـ ١ ص ٣٧٤.

(٣) البيان جـ ٢ ص: ٣٦.

وقد كان عمر في موقفه هذا منسجماً مع طبيعة العربي المسلم الذي روى لنا أبو عثمان حادثة أخرى جرت مع النبي محمد ﷺ قدوة المسلمين ومثلهم الأعلى في الدنيا والدين: «قال: ومن قدر الشعر وموقعه في النفع والضرّ، أن ليلى بنت النضر بن الحارث بن كلدة، لما عرضت للنبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت، واستوقفته، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها.

قال رسول الله ﷺ: «**لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته!**».

والشعر:

أيا راكباً إن الأثيل مظنةٌ ... من صبح خامسة وأنت موفَّقُ
أبلغْ بها ميتاً بأن قصيدة ... ما إن تزالُ بها الركائبُ تخفقُ
فليسمعن النضر إن ناديته ... إن كان يسمعُ ميِّتٌ لا ينطقُ
ظلت سيوفُ بني أبيه تنوشه ... لِلَّه أرحامٌ هناك تشقّقُ
قسراً يقاد إلى المنيةِ مُتعباً ... رسْفَ المقيَّدُ وهو عانٍ موثق(١)
أمحمدها أنت ضنْء نجيبةٍ ... في قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق(٢)
ما كان ضرّك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ(٣)
فالنضر أقربُ من تركت قرابةً ... وأحقهم إن كان عِتْقٌ يعتق»(٤)

هـ ـ تعليل تفوق العرب بالشعر على غيرهم من الأمم:

يرى الجاحظ السبب على الوجه التالي:

«وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى مَن تكلم بلسان العرب؛ والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه،

---

(١) صبراً يقاد. ورسف المقيد: مشبه في القيد.
(٢) الضنء. النسل.
(٣) المغيظ المحنق، الشديد الغضب.

وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب، لا كالكلام المنثور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحول من موزون الشعر»[1].

١ ـ وهذه ملاحظة قيِّمة من أبي عثمان تعلل وجود خاصية مميزة للغة العربية في أدبها شعراً ونثراً يجعل من المستحيل ترجمة الشعر العربي إلى لغة أخرى مع احتفاظه برونقه وتنطبق على الشعر في لغات العالم أجمع؛ فكل لغة لها أسلوبها ومجازها وإيقاعها ومن الصعب نقل شعرها بجماله إلى لغة أخرى. وتندر الحالات التي يتوفر للشعر المترجم شاعر يترجم شعراً ترجمة تحافظ على معظم خصائص الشعر في لغته الأم.

على أن أبا عثمان يرى أن النفس البشرية تتشابه إلى حدٍّ بعيد، ولا فرق بين الأمم والشعوب فهو يقول في موضع آخر: «ولو حوِّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم»[2].

وهو إذن قد فطن إلى احتمال الوصول إلى نتيجة واحدة بين باحثين في زمانين مختلفين.

٢ ـ ويعود أبو عثمان فيرى السبب هو جغرافية الجزيرة العربية التي عاش العرب بين جنباتها في ظروف مناسبة؛ فقد حمتهم من ذلّ الجزية، أو بلادة الغنى والترف: «واليونان يعرفون الفلك؛ لأن أولئك حكماء، وهؤلاء ـ يعني أهل الصين ـ فعلة. وكذلك العرب، لم يكونوا تجاراً، ولا صنّاعاً، ولا أطباء، ولا حسَّاباً ولا أصحاب فلاحة، فيكونون مهَنَة، ولا أصحاب زرعٍ لخوفهم من صغار الجزية..

(١) الحيوان جـ ١ ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٢) المصدر السابق ص ٧٥.

ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البُلَدة[1]، والثروة التي تورث الغِرة ولم يحتملوا ذلًّا قطّ، فيميت قلوبهم، ويصغر عندهم أنفسهم وكانوا سكان فيافٍ وتربية العراء لا يعرفون الغمق[2] ولا اللثق ولا البحار ولا الغِلَظ، ولا العفن ولا التخم[3].

أذهان حداد، ونفوس منكرة، فحين حملوا جدهم ووجهوا قواهم لقول الشعر، وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة، وتصاريف الكلام... والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس، وإحكام شأن المثالب والمناقب بلغوا الغاية وجاوزوا كل أمنية، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع من جميع الأمم، وأفخر، ولأيامهم أحفظ وأذكر»[4].

٣ ـ ولكن الجاحظ يبدو غير مطمئن لهذه الأسباب التي قد يناقشه بها باحث فقدم السبب الثالث وهو الحظ الذي يجعل قبيلة موهوبة بالشعر والشعراء وأخرى محرومة من هذه النعمة «وبنو حنيفة مع كثرة عددهم، وشدة بأسهم، وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم، وتخومهم وسط أعدائهم، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ـ ومع ذلك لم نرَ قبيلة قطّ أقل شعراً منهم وفي إخوهم عجل قصيد، ورجز، وشعراء ورجّازون، وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكّالو تمر؛ لأن الأوس والخزرج كذلك وهم في الشعر كما قد علمت.

وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة.

وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً، وهم وإن كان شعرهم أقل،

---

(١) البُلَدة: بضم الباء وفتحها، ضد النفاذ والذكاء، والمضاء في الأمور.

(٢) الغمق الندى والرطوبة والوخامة. واللثق: الندى الذي مع سكون الريح.

(٣) التخم: الوخم، وهو الوباء

(٤) انظر رسائل الجاحظ ـ الجزء الأول ـ مناقب الترك ص ٦٩.

فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب، وليس ذلك من قبيل رداءة الغذاء ولا من قلّة الخصب. وإنما ذلك عن قدر ما قسم اللّه لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق مكانها.

وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف يجرون مجاري ملوك اليمن، ومجاري سادات أعراب أهل نجد، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر، وهم في الإسلام شعراء مُفْلِقُون»[1].

و ـ من أساب شهرة الشاعر وشعره:

١ ـ يرى عمرو بن بحر أن الحظ يتحكم إلى حدٍّ كبير في شهرة بعض الشعراء أو الأبيات من الشعر مع أن غيرها لا يعرف رغم جودته وخصائصه، وقد علمنا مدى حرص العرب على تقييد مآثرهم ومدى حفاوتهم بالشعر حتى قال عمر بن الخطاب رحمه اللّه: «من خير صناعات العرب الأبياتُ يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم»[2].

وهكذا «كان عبد العزيز بن مروان أحظى في الشعر من كثير من خلفائهم ولم يكن أحد من أصحابنا من خلفائنا وأئمتنا أحظى في الشعر من الرشيد. وقد كان يزيد بن مزيد، وعمه معن بن زائدة ممّن أحظاه الشعر.

وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية اللّه أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً»[3].

٢ ـ ولهذا السبب تزيد الأعراب وأشباه الأعراب في أشعار الجن فنبّه أبو عثمان إلى خلطهم شأن أصحاب التأويل ويعني بهم أصحاب المذاهب الباطنية التي تعتمد على الخزعبلات والخرافات وتستغل جهل العامة[4].

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣.
(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٣٦٠.
(٣) انظر الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٤) انظر المصدر السابق جـ ٦ ص ١٦٤.

٣ ـ **الميل إلى السهولة** فقد تكون سهولة البيت أو القصيدة سبباً في شهرتها، بينما قصيدة أخرى تفوقها جودة تبقى منسية: «وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها.

والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً، وتدع ما هو أظهر وأكثر. ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار، ولم يسرِ ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر»[١].

وبهذا يكون الذوق العام مفضلًا للسهولة على حساب الجودة والأصالة، ولا بدّ من تنمية ذوق الجمهور والعمل على ترقيته.

٤ ـ **لا بدّ من إنصاف المولدين**: يرى الجاحظ بحق أنه بجب النظر إلى الشعر حسب جودته، وعدم الحكم عليه تحت تأثير المعاصرة أو النظر إليه من ناحية قائلة فلا بدّ من اعتبار الجودة هي المقياس الوحيد للشعر: «والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب، والبدو، والحضر من سائر العرب أشعر من عامة الشعراء الأمصار والقرى من المولدين والنابتة[٢].

وقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون مَنْ رواها. ولم أرَ ذلك قط»[٣].

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٠.

(٢) الناتية مخففة من النائتة ولعله أراد بهم الطارئين. وكذلك النابتة.

(٣) الحيوان للجاحظ جـ ٣ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

الفصل الثاني

شـــروط الراوية

ونظرية النحل والشك في الشعر الجاهلي

أ ـ شروط الراوية كما يراها الجاحظ:

يرى أبو عثمان أن الأديب، أو الراوية لا بدّ لهما من الاتصاف بالمؤهلات اللازمة التي تتيح لصاحبها أن يستحق عن جدارة هذا اللقب، وهذه الشروط يفصلها كما يلي:

«وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بدياً إلى **طبيعة** ثم إلى **معرفة** ثم إلى **إنصاف**.

وأول ما ينبغي أن يبتدىء به صاحب **الإنصاف** أمره **ألّا يعطي نفسه فوق حقها، وألّا يضعها دون مكانها**.

وأن يتحفظ من شيئين؛ فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفّظ منهما: **أحدهما تهمة الإلف، والآخر تهمة السابق إلى القلب**، واللّه الموفِّق»[1].

١ ـ **وإذ فلا بدّ من ميول نفسية للأدب وأهله وطبيعته مواتية** حتى لا يتكلف ما لا يناسب طبيعة شخصيته، فلا ينتج شيئاً ذا بال وتذهب جهوده أدراج الرياح، وقد كان من الممكن أن يستغلها في مجالات أخرى من الحياة.

«... قد زعم ناسٌ **أن** كل إنسان فيه آلة لمرفق من المرافق وأداة

(١) الحيوان جـ ٤ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٧.

لمنفعة من المنافع، ولا بدّ لتلك الطبيعة من حركة، وإن أبطأت ولا بدّ لذلك الكامن من الظهور، فإن أمكنه ذلك بعثه، وإلا سرى إليه كما يسري السم في البدن. . . وقال:

ولا بدّ من شكوى إذا لم يكن صبر[1].

ولذلك صار طلب الحساب أخفّ على بعضهم، وطلب الطب أحب إلى بعضهم. وكذلك النزاع إلى الهندسة، وشغف أهل النجوم بالنجوم. .

ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض يعلم لِمَ اختار ذلك في جملة ولا تفسير؛ إذ كان لم يجر منه على عِرْق، ولا اختاره على إرث.

وليس العجب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور، ويحرّكه في بعض الجهات، ولكن العجب ممّن يموت مغنياً وهو لا طبع له في معرفة الوزن، وليس له جرم حسن، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغني خاصة أن يكون مطرباً ومغني عامة. . »[2]

ولهذه الأسباب ينصح أبو عثمان المتأدبين من الناشئة أن يختبروا ميولهم للأدب بأنفسهم، فإذا كان الكتاب والأدب أحبّ إليه مما سواه من مال الدنيا ومتاعها، فهو من أهل الأدب، ولا بأس أن يستمر في هذا الطريق، وإلا فعليه أن ينسحب من ميدان الأدب وليفتش عن سبيل آخر[3].

وأعتقد أن ما نقلت من كلام أبي عثمان يكفي ليُضيء الطريق أمام المتأدب، وما عليه إلا التفتيش عن مواهبه الطبيعية، وميوله النفسية التي خلقه

(١) وهذا عجز البيت وأما صدره فهو كالتالي:

وما كثرة الشكوى بأمر حزامة

(٢) الحيوان للجاحظ، جـ ١ ص ٢٠١ - ٢٠٣.

(٣) راجع ما كتبه الجاحظ في كتاب الحيوان، عند كلامه على السماع والكتابة حـ ١ ص ٥٥ - «. . . ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً».

اللّه عليها. علّه يجد ميداناً آخر غير ميدان الأدب يبدع فيه، فقد وزع اللّه المواهب على البشر، ولم يحرم الإنسان من موهبة في ناحية من نواحي الحياة، وما علينا إلا أن نستعين بالعلم وبمراقبة ميولنا لنتعرف على حقيقة الميول التي خلقنا عليها، ونعمل ضمن هذا الميل الذي غرسه ربّ العالمين بنا فننتج ونبدع، وهذه حقيقة شرحها الجاحظ شرحاً كافياً.

٢ ـ الشرط الثاني المعرفة الضرورية للمتأدب والراوية وهي تعني **الاطّلاع الواسع والإحاطة التامة بالعرب أهل اللغة وأحوالهم** فكيف وجد عمرو بن بحر معاصريه من الأدباء والرواة؟ «وقد أدركت رواة المسجديين[١] والمربديين، **ومن لم يروِ أشعار المجانين، ولصوص الأعراب، ونسيب الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار، وأشعار اليهود، والأشعار المنصفة.**

فإنهم كانوا لا يعدّونه من الرواة.

ثم استبردوا ذلك كله، ووقفوا على قصار الأحاديث والقصائد والفقر، والنتف من كل شيء. ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف فما هو إلا أن أورد عليهم خَلَف الأحمر نسيب الأعراب، فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب.

ثم رأيتهم منذ سنيات، وما يروي عندهم نسيبَ الأعراب إلا حدثُ السن قد ابتدأ في طلب الشعر، أو فتياني متغزل. **وقد جلست إلى أبي عبيدة، والأصمعي**، ويحيى بن نجيم[٢] وأبي مالك عمرو بن كركرة[٣]، **مع**

---

(١) المسجديون: طائفة من العلماء والرواة، والأخباريين كانوا يلقون أحاديثهم وما عندهم من الأخبار والروايات على الطلاب في مسجد البصرة.

والمربديون: فريق آخر كان يذهب إلى المربد بإحدى ضواحي البصرة لتلقي الأعراب الوافدين من البادية لتبادل السلع فينقلون عنهم أخبار البوادي، وأشعار العرب، وأحاديث العشاق، واللصوص، وعبارات اللغة، ومواقف الفرسان، ويلقون ذلك على الطلاب، أو يتحفون به الملوك والأمراء.

(٢) هو يحيى بن نجيم بن زمعة، من رواة الأشعار وموردي الأخبار من البغداديين

(٣) كان أبو مالك عمرو بن كركرة مولى بني سعد، وكان يعلم بالبادية ويورق بالبصرة، وكان أبو =

مَن جالست من رواة البغداديين فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعرٍ في النسيب فأنشده، وكان خلف يجمع ذلك كله. .

ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج.

ولم أرَ غاية رواة الأختبار إلا كل شعرٍ فيه الشاهد والمثل، ورأيت عامتهم **فقد طالت مشاهدتي لهم** ـ لا يقفون على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتجة. . . ورأيت **البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعمّ وعلى ألسنة حذّاق الشعر أظهر**»(١).

وهكذا حكم الجاحظ على معاصريه من الرواة بالتقلب في الميول والهوى بين نسيب الأعراب وأخبارهم وبين نسيب معاصرهم العباس بن الأحنف، أو الاكتفاء ببعض النوادر والنتف من كل شيء، وأحياناً الاقتصار على ناحية معينة دون غيرها مع أن الأمر يحتاج إلى التعمق والإحاطة باللغة وأهلها ولم يرَ من جمع المعرفة التامة إلا معاصره خلف الأحمر فقد كان الرجل موسوعي المعرفة حسب شهادة أبي عثمان.

٣ ـ كما نبهنا عمرو بن بحر إلى ناحية هامة لدى جمهور الرواة والأدباء في عصره **فقد كانوا يفتقرون إلى الحسّ الجمالي اللغوي** والبصر بجوهر الكلام، ولم يجد هذا إلا لدى طائفة الكتاب وموظفي الدواوين الحكومية وهؤلاء كانوا من الذميين أو الموالي على الغالب، وقد استفادوا من اطّلاعهم على الآداب اليونانية والآداب القديمة من سُريانية وهندية وفارسية، فطعّموا معرفتهم القديمة بالثقافة العربية الطارئة على ديارهم، ولذلك كان لهم فضل

= البيداء الأعرابي زوج أمه، فكان هو راوية أبي البيداء. وكان بصري المذهب في النحو قال الجاحظ عنه: كان أحد الطياب. يرعم أن الأغنياء أكرم عند اللّه من الفقراء، وأن فرعون أكرم عند اللّه من موسى.

(١) البيان جـ٣ ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠.

في تقريب العربية من متناول العامة بحكم احتكاكهم بالناس في دواوين الدولة، وهكذا أوجدوا تياراً يميل إلى السهولة والبساطة في التعبير، وعملوا على استبعاد الكلمات المعجمية قدر الإمكان.

يضاف إلى مجهود هؤلاء مجهودات حذّاق الشعراء وهؤلاء بحكم تعاملهم مع اللغة وصوغهـا في قوالب معبِّرة عن حاجات عصرهم وأنفسهم وجدوا أنفسهم في تيار الكتاب الميّال نحو السهولة واختيار الألفاظ الأكثر عذوبة والأكثر وضوحاً من غيرها حتى يفهم الجمهـور شعرهم وكي يتجنبوا ما حدث لأبي تمام عندما سئل لماذا لا تقول ما يفهم؟ فأجاب ولماذا لا تفهم ما أقول؟!

ولقد شعر أبو عثمان أن القارىء قد يعدّ كلامه مبالغة فساق حادثة وقعت له مع عالم معروف في زمنه هو الشيباني تبين أن تلك الهالة التي وضع بها أبو عمرو الشيباني لا يمكن أن تخفي حقيقة جهله بالنقد الأدبي وأصوله أو قل افتقاره للحسّ اللغوي السليم الذي يستشفّ مواضع الجمال أو مواطن الضعف في التعبير؛ فالذوق هبة من اللّه تعالى لا يمكن أن يخلق بالدراسة، وإنما الدراسة والتدريب ترهف ذوقاً موجوداً لدى صاحبه قبل التدريب لكن فاقد الحسّ الجمالي لا يمكن أن يُعلَّم الذوق والإحساس كما يعلم الحساب والتجارة.

«ولقد رأيت أبا عمر الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفّظ والتذاكر[1] وربما خُيِّل إليَّ أنّ أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون

---

(١) لقد أوضح الجاحظ في كتابه الحيوان جـ٣ ص :١٣٠ ـ ١٣١ ما يلي: رأيت أبا عمرو الشيباني. وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أنه كلف رجلاً حتى أحضره دواة وقرطاساً حتى كتبهما له.

وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، ولولا أن أدخل في بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً. وهما قوله:

لا تحسَبَنَّ الموتَ موت البلى ... فإنما الموتُ سؤالُ الرجالِ
كلاهما موت ولكن ذا ... أفظعُ من ذاكَ لذل السؤالِ

ومع هذا فقد روى الجاحظ هذين البيتين في هذا الكتاب.

أبداً أن يقولوا شعراً جيداً؛ لمكان أعراقهم من أولئك الآباء. ولولا أن أكون عيّاباً ثم للعلماء خاصة، لصوّرت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة؟»(١).

٤ ـ **الإنصاف**: وهو الشرط الثالث من الشروط الواجب توفرها في الراوية. وقد بدأ الجاحظ بنصيحة الأديب الراوية أو الناقد أن ينصف نفسه أولاً فلا يصاب بالغرور، ويعطي نفسه فوق حقها، ويتيه على الناس عجباً، أو يدّعي لنفسه الذكاء، فيقع فريسة هذا الوهم الذي يصاب به الأغبياء عندما يحسبون أنفسهم أذكياء جداً، ويتعاملون مع الناس على هذا الأساس، وهكذا يقعون في ورطات مضحكة مبكية نتيجة غرورهم، واعتدادهم بذكاء يدّعونه.

والمصيبة في الأدب أدهى وأمرّ، فمَن يدّعي لنفسه الذكاء وهو لا يملك من المعرفة والذكاء عشر ما يدّعيه نراه يشرع لنا في الأدب والنقد أحكاماً ما أنزل اللّٰه بها من سلطان. ونظرة واحدة إلى دنيا الأدب والنقد في عالمنا العربي اليوم لنعرف مدى الفوضى، وانعدام الذوق الجمالي نتيجة لاكتساح السوق بخربشات أُناس لم يتعلموا بعد قواعد الإملاء جيداً، ومع هذا راحوا يكتبون ما يصرّون على تسميته شعراً حرّاً متحرراً تحررياً... ونثراً مشعوراً، وشعراً منثوراً، وهي واللّٰه أعلم أشبه ما تكون بلوحات بيكاسو، لقد أُتيح لهم قراءة مجلة دورية كتبت ترجمة غير أمينة لبعض مذاهب الغرب الأدبية من «سريالية» ورمزية و«وجودية»، فحاول الأقزام تقليد هؤلاء الناس الذين يعيشون في مجتمعات تختلف في ظروفها ومشاكلها عمّا نعانيه، فإذا كتب «كامو» عن الغثيان أو اللامنتمي فهو ابن مجتمع توجد فيه هذه الأزمات بحكم مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي. أما نحن فأين منّا هذه المشاكل والأزمات، إذا تكلم الأديب في العالم المصنع عن سيطرة الآلة فهذه حقيقة

---

(١) البيان والتبيين جـ ٤ ص ٢٣ ـ ٢٤. ط ٤. بيروت. طبعة دار الفكر تحقيق عبد السلام هارون. أربعة أجزاء في مجلدين.

واقعة، فما بال أديبنا يقلده، ونحن ما زلنا نشكو الفقر وسوء التغذية والأمية، بل ما زلنا ننتقل على الحمير والخيل والعربات من قرية إلى أخرى، ولا زلنا في بداية الطريق!!

وكذلك لا يجوز أن نبالغ في التواضع فنعطي أنفسنا أقل مما تستحق هذا عن إنصاف الأديب لنفسه فماذا عن إنصاف الآخرين. لقد سقنا قبل قليل نصيحة الجاحظ له **بتهمة الإلف أولاً**.

وتهمة السابق إلى القلب ثانياً.

والحق أن الذوق العام والمألوف العام لدى الجمهور قد يكون مضلِّلاً للأديب والناقد؛ فالعبرة في العلم ليست بالكثرة العددية؛ والأغلبية البرلمانية لا تغني عن العلم والحق شيئاً، فكثيراً ما وقف العلماء والعظماء ضد آراء المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها؛ لأنهم يرون صلاح مجتمعاتهم في تغيير ما ألفت هذه المجتمعات، ألم يشق الأنبياء ـ عليهم جميعاً رضوان الله وسلامه ـ في سبيل تغيير مجتمعاتهم؟ ألم يتحملوا كل صنوف الأذى والتعذيب في سبيل الحق الذي آمنوا به؟ ومن قبل ألم يتجرع أحد الفلاسفة السم دفاعاً عن أفكاره؟ ألم يقف عالم في أوروبا العصور الوسطى في محاكم التفتيش ليعيد إفادته بأن الأرض تدور رغم التعذيب الذي ينتظره؟ إن شرف الكلمة ورتبة العالم تفرض ضريبة على صاحبها لا بدّ من تحملها إقراراً للحق وخدمة للعلم؛ خصوصاً إذا علمنا أن أهواء الناس تتبدل مع أزياء نسائهم في كل فصل، وقد مرّ معنا قبل قليل رصد الجاحظ لتبدّل ميول جمهور متأدبي البصرة[1] وبغداد بين ميل للأعراب ونسيبهم فذبذبة نحو غزل الأحنف بن قيس ثم عودة للأعراب وهكذا دواليك في هذه الدوامة لا بدّ من موقف يحدد لنا النقطة التي نقف عليها، ولا بدّ من مؤشر يرشدنا إلى الاتجاه الذي نسير فيه؟ لا بدّ من عالم نزيه يقول الحق مهما كلفه ويرتقي فوق آراء العامة السائدة ويحدد طريق الحق. ويطالب الآخرين باتباعه.

---

(١) انظر البيان جـ ١ ص ٤٠ وجـ ٣ ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠.

بقيت واحدة أخرى أصعب من الأولى وهي محاربة هوى القلب، وميل النفس، وما يطرأ عليها من تعصب ومحاربة النفس أصعب من محاربة الاعداء الخارجيين ونبيِّنا الكريم ﷺ قال بعد إحدى الغزوات «المجاهَدَ من جاهد نفسه»[1] وأعتقد أن هذا الكلام لا يحتاج إلى شرح وتعليق فقد اعتبر عليه الصلاة والسلام أهوال الغزو والجهاد ضد أعداء الدين جهاداً أصغر بينما محاربة النفس والشهوات جهاداً أكبر، لأن حرب النفس أصعب بكثير. ومعروف أن أول ما يطرأ على النفس البشرية التعصب الأعمى دون حق، وقد يكون عصبية للجنس والعرق أو لزمن أو عصر أدبي دون عصر.. . وهكذا تضيع الحقيقة ويهدر المتعصب حقوق الآخرين، وقلّما سمَحت له شهواته بفرصة يراجع بها نفسه فيعترف بالحقيقة وهذا التعصب يقع فيه الناس جميعاً جاهلهم وعالمهم وكبيرهم وصغيرهم، وقليل من عصم ربك من هذه الآفة. فهذا أبو عمرو بن العلاء، وهو عَلَم من أعلام عصره علماً وعقلاً وديناً لا يبرأ من العصبية التي تمنعه من الاعتراف بفضل معاصريه من الشعراء. يقول عنه عمرو بن بحر: «حدّثني الأصمعي قال: جلست إلى أبي عمرٍو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي.

وقال مرة: لقد كثر هذا المحدّث وحسن، حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته.. . يعني شعر جرير والفرزدق وأشباههما.

وحدثني أبو عبيدة قال: كان أبو عمرو بن العلاء أعلمَ الناس بالغريب والعربية، وبالقرآن والشعر، وبأيام العرب، وأيام الناس.. .

قال: وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية.

وفي أبي عمرو بن العلاء يقول الفرزدق:

---

(١) انظر الترمذي. فضائل الجهاد ٢٠. ومسند أحمد بن حنبل ٦: ٢٠ - ٢٢ التوثيق من المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ونشره د. أي. ونسنك. ليدن جـ ١ من (١ - ح) إبريل ١٩٣٦. ص ٣٨٩.

مـــا زلتُ أفتـحُ أبـــواباً وأغلقُهـــا   حتى أتيتُ أبـــا عمـرو بن عمـــار

قال: فإذا كان الفرزدق، وهـو راوية النـاس وشاعـرهم، وصاحب أخبارهم يقول فيه مثل هذا، فهو الذي لا يُشك في خطابته وبلاغته»[1].

وقد مرّ معنا في الفصل السابق دعوة الجاحظ إلى إنصاف المولدين ووقوفه إلى جانب الشعر الجديد دون النظر إلى عوامل المعاصرة أو غيرها من العوامل[2].

ب ـ نحل الشعر، أسبابه وموقف الرواة منه:

لقد هالَ الجاحظ ما رآه من نحل الشعر الجاهلي والأعرابي، فوقف عندها دارساً، ثم وجد أن الخطر على الشعر لا يأتي من جاهل مولَّد، بل إن الخطر كامن في العلماء الرواة الذين خبِروا حياة العرب وعرفوا دقائق لغتهم وأساليب شعرائهم ولهجات قبائلهم، مثل هؤلاء يعتبرون خبراء فـي التـزييف على الناس، تماماً مثل خبراء الإعلام والدعاية في عصرنا، ألم يصبح الدجل عَلَماً في أيامنا له دهاقنته وسدنته ومدارسه وأعلامه! . .

«فإن قلت: إن المولَّد لا يؤمن عليه الخطأ؛ إذ كان دخيلاً في ذلك الأمر، وليس كالأعرابي الذي إنما يحكي الموجود الظاهر له، الذي عليه نشأ وبمعرفته غذي.

١ ـ فالعلماء الذين اتسعوا في علم العرب حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبرٍ كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم، هم الذين نقلوا إلينا. وسواء علينا أجعلوه كلاماً وحديثاً منثوراً أو جعلوه رجزاً، أو قصيداً موزوناً.

ومتى أخبرني بعض هؤلاء بخبر، لم أستظهر عليه بمسألة الأعراب. **ولكنه إذا تكلم، وتحدث فأنكرت في كلامه بعض الإعراب،** لم أجعل ذلك

(١) البيان جـ ١ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.
(٢) الحيوان جـ ٣ ص ١٣٠ ـ ١٣١

قدوة أوقفه عليه؛ لأنه ممّن لا يؤمن عليه اللحن الخفي قبل التفكر. فهذا وما أشبهه حكمه خلاف الأول»[1].

بعد هذا التوضيح الهام يعرض الجاحظ الأمثلة على هذا النحل المشين منها:

«وقد وصفتها [الحية] امرأة جاهلية بجميع هذه الصفة إلا أنها زادت شعراً. **والشعر صحيح.**

وليس في أيدي أصحابنا من صفة الأفاعي مثلها. **وقد رأيت عند داود بن محمد الهاشمي كتاباً في الحيّات، أكثر من عشرة أجلاد، ما يصح منها مقدار جلدٍ ونصفٍ. ولقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أرجازاً كثيرة. فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء؟** ولقد ولدوا على لسان جحشويه في الحلاق أشعاراً ما قالها جحشويه قطّ.

فلو تقذروا من شيء، تقذروا من هذا الباب»[2].

ولقد صدق الجاحظ عندما دعانا إلى التفكير والقياس في مسألة التوليد كما دعاها أو النحل كما أحبّ بعضهم أن يدعوها في العصر الحديث فأخذ الفكرة من لدن الجاحظ وادّعاها المستشرق مارجليوث لنفسه، ثم جاء الدكتور

---

(١) الحيوان جـ ٤ ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) انظر الحيوان جـ ٤ ص ١٨١ - ١٨٢.

والشعر الذي في الأفعى:

قد كاد يقتلني أصمّ مرقش ... من حُبكم والخطبُ غيرُ كبيرِ
خُلقتْ لهازمه عزين ورأسه ... كالقرصِ فُلطح من دقيق شعيرِ
ويدير عيناً للوقاع كأنها ... سمراءُ طاحت من نفيض سريرِ
وكأنَّ ملقاه بكل تنوفة ... ملقاك كفة مُنْخل مأطورِ
وكأن شدقيه إذا استعرضته ... شدقا عجوزٍ مضمضت لطهورِ

فقد زعمت كما ترى أيضاً أنها [الحية] تدير عيناً... إلا أنها لم تزعم أنها تريد بالإدارة أن مقلتها تزول عن موضعها، ولكنها أرادت أنها جوّالة في إدراك الأشخاص البعيدة والقريبة، والميامنة والمياسرة.

طه حسين ليزيدها من لدنه ويجعلها نظرية تكاد تطيح بما تبقى من شعر عربي جاهلي صحيح، وليلقي بظلال من ضباب الشك على القرآن الكريم ويصدرها في كتابه «في الشعر الجاهلي» أو «في الأدب الجاهلي» كما دعاه من بعد.

والواقع أن علماء العرب تنبهوا لهذا وأنذروا بالخطر سواء ابن سلام الجمحي، أو أبو عثمان الجاحظ ألم تقرأ له دعوتنا للتدبر والتفكير في صنيع خبراء الدجل من العلماء الذين ولدوا على لسان الأحياء من معاصريهم فما بالنا بالأموات!!

وحقاً دعاها بالقذارة؛ لأنها عملية تزوير منظمة كانت نتيجتها ضياع التراث الأصيل من الشعر العربي الجاهلي الصحيح واستبدالها بشعر مزيف، ولم نسمع ولم نَعِ صرخات علمائنا الأشراف من ابن سلام إلى الجاحظ وغيرهما.

فما زلنا حتى اليوم نسمع الدجل ونحرص عليه أكثر من حرصنا على أرواحنا، وإلا فما هذا الذي يسمّونه شعراً منثوراً ونثراً مشعوراً، ولغط يفسد الأذواق ويسمّم الجو الأدبي في دنيا العرب بدعاوى المعاصرة والانفتاح ومحاربة الانغلاق، ومن ثم الانزلاق إلى المواقع التي رسمها لنا الأعداء. تماماً كما فعل أسلافنا قبل أربعة عشر قرناً لقد بدأ خلافهم على مَن يكون خليفة وانتهوا إلى أكثر من سبعين فرقة معظمها فرق باطنية تظهر الإيمان وتبطن الكفر والكره لصاحب الرسالة وأهله وقومه وما زالت اللعبة مستمرة حتى الآن رغم الإنذارات التي أطلقت منذ عصر الجاحظ والحملة التي قام بها المعتزلة لتنوير الفكر العربي الإسلامي للخلاص من أوهام الباطنية ودجل أدعياء العلم والثقافة الذين قاموا بالترويج لمرويات كعب الأحبار لغاية في نفس يعقوب أعتقد أن أهدافها توضحت تماماً في هذه الأيام وقد زكمت رائحتها الأنوف، ولم تعد خافية على أحد؛ فهي من تلحين وإخراج سدنة هيكل أورشليم قال أبو عثمان: «وأنا أظن أن كثيراً مما يحكى عن كعب أنه

قال: مكتوب في التوراة. أنه إنما قال: **نجد في الكتب، وهو إنما يعني كتب الأنبياء. والذي يتوارثونه من كتب سليمان؛ وما في كتبهم من مثل كتب إشعياء وغيره**. والذين يروون عنه في صفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، وأشباه ذلك؛ **فإن كانوا صدقوا** ـ وكان الشيخ لا يضع الأخبار ـ **فما كان وجه كلامه عندنا إلا ما قلت لك**»[١].

٢ ـ تزيد الأعراب، وأشباه الأعراب في أشعار الجن وترويج أصحاب التأويل الباطني للخرافات تدجيلاً على عامة المسلمين.

وقد تكلمت عنهم في الفصل السابق عند الكلام على «أسباب شهرة الشاعر وشعره»[٢].

٣ ـ توليد أهل الكتاب من النصارى شعراً على لسان عدي بن زيد تعصباً له، ولغيره من شعراء الجاهلية النصارى قال عمرو بن بحر: «فإني سأنشدك لعدي بن زيد، وكان نصرانياً وكان ديّاناً[٣].

قال عدي بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته، وكيف أغواه الشيطان، وكيف دخل في **الحيّة**، وأن الحيّة كانت في صورة جمل فمسخها اللّه عقوبة لها؛ حين طاوعت عدوه على وليّه فقال:

قضى لستة أيام خليقته ... وكان آخرها أن صوَّر الرجلا
دعاه آدم صوناً فاستجاب له ... بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا»[٤]

وفي موضع آخر قال أبو عثمان عنه: «وقال عدى بن زيدٍ **وهو أحد من**

(١) الحيوان جـ ٤ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٢) راجع الحيوان جـ ٦ ص ١٦٤ وجـ ٤ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ وجـ ٤ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧. وستجد فيها ما يضحك ويبكي.
(٣) الديان: هنا بمعنى الحاكم. وكان عدي بن زيد أولَ مَن كتب بالعربية في ديوان كسرى، فرغب أهل الحيرة إلى عدي ورهبوه...
(٤) انظر الحيوان جـ ٤ ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

قد حُمِلَ على شعره الحَمْلُ الكثير، ولأهل الحيرة بشعره عناية.

وقال أبو زيد النحوي: «لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد».

كفى زاجــراً للمـرء أيــامُ عمــره ... تَـروحُ لـه بـالـواعــظاتِ وتغتـدي
فنفسك فاحفظها من العي والردى ... متى تغوها تغوِ الذي بـكَ يقتدي
فإن كانت النعمـاءُ عندك لامـرىءٍ ... فمِثـلاً بها فـاجز المـطالب أو زدِ
عن المـرء لا تسل وأبصـر قرينـه ... فــإن القـرين بــالمقـارن يقتــدي
ستدرك من ذي الجهل حقك كله ... بحلمــك في رفقٍ ولـمــا تشــدَّدِ
وظلم ذوي القـربى أشـدّ عــداوة ... على المرء من وقع الحسام المهندِ
وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجرٌ ... إذا خطرت أيدي الرجال بمشهدِ»[1]

كما روّجت النصارى لأشعار أمية بن خلف[2] وبشر بن أبي خازم وغيره. وقد يكون الدافع لهذه العناية بشعر عدي بن زيد في الحيرة هو العصبية للإقليم؛ لأنه حيري المولد والنشأة، وعلى هذا تكون العصبية للإقليم قد امتزجت مع العصبية للدين فكان هذا الحَمْل الكثير على شعره.

٤ ـ ضياع بعض الأشعار عن طريق أصحابها؛ لأنهم غير معروفين فينسبونها لمن يفوقهم شهرة.

يقول الجاحظ في بيان هذا: «فمن شأن الأيام أن تظلم المرء أكثر محاسنه ما كان تابعــاً فإذا عاد متبوعاً عادت عليه محاسن غيره بأضعاف ما منعته من محاسن نفسه حتى تضاف إليه. ومن شوارد الأفعال ومن شواذ المكارم إن كان سيداً. ومن غريب الأمثال إن كان منطقياً. ومن خيار القصائد إن كان شاعراً مما لا أمارات لها ولا سمات عليها، فكم من يد بيضاء، وصنيعة غرّاء ضلّت، فلم يقم بها ناشد، وخفيت، فلم يظهرها شاكر، والذي

(١) الحيوان جـ ٧ ص ١٤٩ ـ ١٥١.
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

ضاع للتابع قبل أن يكون متبوعاً أكثر مما حفظ... والذي كتم أكثر مما بقي»[1].

وهذا شبيه بما يفعله ناشئة المتأدبين والشعراء في عصرنا عندما يقومون بالتوقيع بأسماء مستعارة ريثما تلقى كتاباتهم رواجاً وقبولاً ويعود كلٌّ منهم للكشف عن هويته.

الخاتمة:

ولكن الجاحظ يبقى محافظاً على حسّه اللغوي الصادق الأصيل ويحكم عقله في هذا الركام من الشعر المولد وبحسّه النقدي ومعلوماته الغزيرة وقيامه بمقارنات لغوية والاحتكام إلى معلوماته التاريخية وخبرته بجزيرة العرب ومعرفته بدقائق حياتهم ولغتهم وأخبارهم، ولهذا يجد الشعر الصحيح ويحكم عليه وهو مطمئن النفس لصحته مقدماً البرهان على صحة رأيه:

«وقال أيضاً صيفي بن عامر، وهو أبو قيسٍ الأسلت، وهو رجل يمانٍ من أهل يثرب، وليس بمكي ولا تهامٍ[2] ولا قرشي ولا حليف قرشي، وهو جاهلي:

قوموا فصلوا ربكم وتعوذا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشبِ
فعندكم منه بلاء مصدق ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائبِ
فلما أجازوا بطن نعمان ردّهم ... جنود الإلّه بين سافٍ وحاصبِ
فولوا سراعاً نادمين ولم يؤب ... إلى أهله مِلْحَبْش[3] غيرُ عصائبِ

ويدل على صحة هذا الخبر قول طفيل الغنوي، وهو جاهلي، وهذه الأشعار صحيحة معروفة لا يرتاب بها أحد من الرواة، وإنما قال ذلك طفيل؛

(١) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد - في الأخلاق المحمودة ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) تهامٍ نسبة إلى تِهامة. والصلاة هنا بمعنى الدعاء. والأخاشب: أراد بهما الأخشبين وهما جبلا مكة. أبو قبيس، والأحمر.

(٣) مِلْحبش: من الحبش الذين رافقوا أبرهة.

لأن غنياً كانت تنزل تهامة، فأخرجتها كنانة فيمن أخرجت، فهو قوله:

ترعى مذانب وسمي أطاع له   بالجزع حيث عصى أصحابه الفيلُ[1]

... وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول مما بيننا اليوم وبين أول الإسلام...»[2].

(١) مذانب، جمع مذنب: وهو مسيل ما بين كل تلعتين. الديوان ص ٣٠.
(٢) الحيوان جـ ٧ ص ١٩٧ - ٢٠٠.

الفصل الثالث

بين القديم والجديد أو
الأصالة والمعاصرة
وطبقات الشعراء

آ ـ المقـــدمة

لقد مرّ معنا في الفصل الأول عند كلامنا على أسباب شهرة الشاعر وشعره تصريح الجاحظ الواضح بضرورة إنصاف المولدين من الشعراء الذين عاصروا أبا عثمان والنظر إلى الشعر دون تدخل من عوامل المعاصرة والنظرة إلى شخصية الشاعر أو أصله(1).

وقد تكلمت على دعوته معاصريه من العلماء إلى التحلّي بالإنصاف والبعد عن الهوى وتهمة الإلف، وأن الهوى والعصبية قد ينتج عنهما طمس لعلم العالم وضياع للعدل في أحكامه على الشعر والشعراء، وضربت مثلاً لهم في الفصل الثاني(2).

وهذه الدعوة المخلصة للإنصاف ومحاربة الهوى تشكل قاعدة سليمة يقف عليها الجاحظ في معالجته لقضية أزلية في النقد الأدبي، ما زالت مستمرة حتى اليوم وستبقى كذلك ما دام هناك بشر ينقسمون حسب أهوائهم أو شخصياتهم بين محافظ جامد متمسك بالقديم على عيوبه وعلاته يقدس الأجداد وتراثهم ولا يجرؤ على نقدهم والنظر إليهم نظرته إلى بشر يصيبون وقد يخطئون.

---

(1) انظر الحيوان جـ ١ ص ٤٠.

(2) راجع «شروط الراوية كما يراها الجاحظ ـ في الفصل الثاني وانظر بالتفصيل البيان والتبيين له جـ ١ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

وفريق آخر نراه في الصف المضاد يدعو للانعتاق من قيود الماضي ونسيانه والالتفات للقضايا التي يعيشها الفرد في حياته اليومية؛ فلكل عصر مشكلاته وظروفه، وكما قال حكيم يونان: إننا لا نستحم في ماء النهر نفسه مرتين.

وقليلون من الناس يقفون الموقف المعتدل الصحيح الذي يدعو لإنصاف القديم والأخذ بما يصلح منه لظروف العصر الذي يعيشه الأديب والناقد، والانفتاح على مشكلات العصر وذوقه، وتلك معضلة صعبة لا يستطيع حلّها إلا مفكر نزيه متّزن الشخصية لا يطاوع هواه ولا ينسى قلبه، ثم إنه لا يحتقر عقله وفكره، فلا يتهرب من مواجهته مشاكل عصره بروح منفتحة تقبل الواقع كما هو في البداية لتتعرف عليه جيداً ثم تبدأ من بعد في علاج هذا الواقع بعد معرفته بدقة؛ لأننا لا نستطيع أن نحارب عدواً نجهله، وقديماً قيل: حسن السؤال نصف الجواب.

وعمرو بن بحر من أولئك العلماء القلائل في دنيا العرب الذين وهبوا نعمة الإنصاف والاتزان في الشخصية وخلق نوع من التوازن الفكري بين ماضي العرب وحاضرهم الذي عاشه أبو عثمان، وخَبِره جيداً ودعا إلى معالجته بصراحة بعد الاعتراف بعيوبه ووضع النقاط على الحروف ليفتح أعين الناس ولينبّه الغافلين إلى الشر القادم، ولكن هيهات مَن يقرأ ومَن يسمع لا في زمنه فحسب، بل وحتى يومنا هذا؛ ليتنا وقفنا طويلاً عند دعوته لفضح التفسير الباطني ومراميه، أو راجعنا موقفنا من وضع السم في الدسم خلال مرويات كعب الأحبار(١).

والآن لنتعرف إلى موقف أبي عثمان من قضية الأصالة والمعاصرة وكيف عالجها.

---

(١) انظر الحيوان ـ للجاحظ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ وفي الفصل السابق. و «نظرية الجاحظ في إعجاز القرآن ومنهجه في تفسيره». للباحث. تحت الطبع.

ب ـ بين الأصالة والمعاصرة:

يسوق عمرو بن بحر بيتاً للبيد وهو من أوائل الشعراء الذين وقفوا عند هذه المسألة بقوله:

«قال لبيد:

والشـــاعـــرون النـــاطـقـــون أراهمُ   سلكوا طريقَ مُـرَقشٍ ومهلهلِ»[١]

ثم جاء الجاحظ فيما بعد ليقول بصراحة:

«والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب، والبدو، والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار، والقرى والناتية[٢]، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه. وقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين، ويستسقطون مَن رواها. ولم أرَ قطّ ذلك إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي **ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممّن كان، وفي أيّ زمان كان**»[٣].

فهو يدعو للإنصاف والنظر للشعر الجيد، بغض النظر عن صاحبه، ودون محاسبته على العصر الذي كان يعيش فيه؛ حتى يبعد عوامل الحسد والغيرة التي قد تنشأ بين المتعاصرين في كل زمان ومكان.

وقد فطن أبو عثمان إلى أن موقفه هذا قد يفسره بعض الغلاة من أنصار القديم على غير ما أراده فقال موضحاً في موضع آخر «.. وأخرى: ليس من قال الشعر بقريحته وطبعه، واستغنى بنفسه، كمن احتاج إلى غيره، يطرد[٤]

(١) البيان والتبين، للجاحظ، جـ٢ ص ٢٠٨.
(٢) الناتية: مخففة من الناتئة ولعله أراد بهم الطارئين. قلتُ: ولعله أراد النابتة، وقد تكلم عنهم طويلاً في الحيوان ويقصد بهم الشعراء من أبناء الموالي الوافدين على العراق.
(٣) الحيوان للجاحظ جـ٣ ص ١٣٠ ـ ١٣١.
(٤) الطرد والاطراد: الاصطياد، والمراد التتبع.

شعره[1]، ويحتذي مثاله، ولا يبلغ معشاره. . . لأنّا لم ندفع فضل الأوائل من الشعراء، إنما قلنا: إنهم كانوا أعراباً أجلافاً جفاة، لا يعرفون رقيق العيش، ولا لذّات الدنيا؛ لأن أحدهم إذا اجتهد عند نفسه شبّه المرأة بالبقرة، والظبية، والحية. فإن وصفها بالاعتدال في الخلقة شبّهها بالقضيب، وشبّه ساقها بالبردية؛ لأنهم مع الوحوش، والأحناش نشأوا فلا يعرفون غيرها.

وقد تعلم أن الجارية الفائقة الحسن أحسنُ من البقرة، وأحسن من الظبية، وأحسن من كل شيء شبّهت به.

وكذلك قولهم: كأنها القمر، وكأنها الشمس؛ فالشمس وإن كانت حسنة، فإنما هي شيء واحد، وفي وجه الإنسان الجميل، وفي خلقه ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب ومَن يشك أن عين الإنسان أحسن من عين الظبي، والبقرة، وأن الأمر بينهما متفاوت»[1].

أي إنصاف للعرب والأعراب وتقدير لظروفهم أفضل من هذا الإنصاف، وأيّ دفاع منطقي متمكن هذا الدفاع العقلي الذي يمسك بتلابيب المنافق المزاود، والمتعصب على العرب من غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى؛ لقد أعطى الجاحظ العرب حقهم.

وبعد أن اطمأن إلى توضيح موقفه المنصف للعرب، والمتعقل الذي لا يدع مجالاً بعده للجدل واللجج انتقل للخطوة التالية وهي استجادته للجيد من الشعر القديم، وهو يقدم الأسباب المقنعة التي دفعت به للتمسك بهذا الرأي فلنسمع قوله:

«ونحن ـ أبقاك اللّه ـ إذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور، والأسجاع، ومن المزدوج، وما لا يزدوج، فمعنا

---

(١) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الجزء الثاني ـ مفاخرة الجواري والغلمان ص ١١٦.

العلم أن ذلك شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب والسبك الجيد، والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك إلا في اليسير، والنبذ القليل»(١).

١ ـ أسباب فنية أسلوبية:

وهو إذن قد طبق ما دعا إليه من النظر إلى الشعر الجيد دون النظر إلى الشاعر، أو إلى العصر الذي عاش به؛ وهو إنما أعجب بشعر الأعراب **لأسباب أسلوبية** تتعلق بالديباجة والسبك... بعيداً عن الهوى والعصبية... وقد احتاط عمرو بن بحر سلفاً من شعوبي متطرف أو مزاود منافق فقال لهم: قد نجد بين شعراء اليوم من يرقى إلى مستوى الأعراب، ولكن ذلك في القليل النادر، وفي المنطق يقولون الشاذ يثبت القاعدة ولا ينفيها.

وكما تحسب الجاحظ من شغب الشعوبية على أحكامه النقدية احتاط من مبالغة الأعراب والعرب المتطرفين وضياع الحق بين هؤلاء وأولئك ولذلك ساق رأي أنصار القديم ثم عقب عليهم برأي معتدل يعطي لكي ذي حق حقه.

«... **وقالوا: لم يدع الأوَّل للآخرة معنىً شريفاً، ولا لفظاً بهيّاً إلا أخذه.** إلا بيت عنترة:

فترى الذبابَ بها يغني وحده ... هزِجاً كفعل الشارب المترنمِ
غَرِداً يحك ذراعه بذراعه ... فعلَ المكب عل الزناد الأجذم»(٢)

وفي موضع آخر يورد التعليل للحكم السابق: «**ونقول: إن الفرق بين المولَّد والأعرابي: أن المولَّد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو.**

---

(١) البيان والتبيين جـ٣ ص ٢٧.
(٢) البيان والتبيين جـ٣ ص ٢٩٢.

فإذا أمعن انحلّت قوته، واضطرب كلامه»[1]. والسبب هنا منطقي ومقبول فالمقلد لمن سبقه محكوم ضمن حدود المثال الذي يحتذيه، وهو مهما حاول يبقى في حدود المحاكاة التي تكلم عليها أفلاطون[2] من قبل فإذا كان الأمر على هذه الصورة، فإن المغالاة في التقليد تقود في النهاية إلى الانفصال عن الواقع المُعاش، والبعد عن التجربة العاطفيـة الصحيحة، والنتيجة معروفة شعر ضعيف وكلام مضطرب، بل وإصابة الشاعر والجمهور بنوع من انفصام الشخصية، عندما يتهرب من معالجة مشاكله، والعيش في عالم مر منذ زمن، ولذلك كان التقليد في مرتبة أدنى من المثال المقلَّد.

ويزيد أبو عثمان المسألة وضوحاً لا يترك المزيد لشارح في موضع آخر:

«ألا ترى أن الشعر لما كسد أفحم أهله؟

ولما دخل النقص على كل شيء أخذ الشعر منه بنصيبه؟

ولما تحولت الدولة في العجم، والعجم لا تحوط الأنساب ولا تتحفظ المقامات.

لأن مَن كان في الريف والكفاية، وكان مغموراً بسُكر الغنى كثر نسيانه، وقلّت خواطره، ومن احتاج تحركت همّته، وكثر تنقيره.

وعيب الغنى أنه يورث البُلدة، وفضيلة الفقر أنه يبعث الفكر»[3].

ويضع عمرو بن بحر أيدينا على أسباب أخرى يمكن أن تكون وراء هذا الضعف الذي أصاب الشعر في عصره فيراها.

---

(١) الحيوان جـ٣ ص ١٣٢.

(٢) راجع ملخص لنظرية أفلاطون الجمالية في كتاب، نصوص النقد الأدبي - للدكتور لويس عوض ص ٩ - ١١.

(٣) البخلاء للجاحظ - تحقيق طه الحاجري ص ١٧٧.

٢ ـ أسباب سياسية:

تعود لسيطرة الأعاجم على مقاليد الحكم في الدولة العباسية وهم لا يتذوقون الشعر العربي الجاهلي والديباجة البدوية الصحراوية التي خلقت وترعرعت في أحضان الصحراء العربية فجاءت صورة لخيالاتهم في تلك البيداء الموحشة.. وأين هم منها في خضرة وادي الرافدين ونعومة الحضارة الساسانية القديمة، وهناك سبب خفي أيضاً وهو أن الشعر الجاهلي جلّه مديح **يدور حول العراقة في النسب** بالدرجة الأولى يليها المدح بالشجاعة والكرم، والحكام كانوا فرساً من وراء الستار وهؤلاء لا يفرحهم محافظة العرب على عادة الفخر بالنسب؛ «**لأن العجم لا تحوط الأنساب**»وكما قال أبو عثمان.

أو قل بصراحة: إن هذا الفخر بالنسب يذكّر الفرس بهزيمتهم أمام موجة الفتح العربي الإسلامي، ومصيرهم الذي لم يقبلوا به وهو تصنيفهم مع غيرهم من الموالي؛ وهم لذلك كانوا حاقدين وعملوا مع أتباع الديانات الأخرى الذي تظاهروا بالإسلام وأسروا الكفر بهذا الدين وعملوا على هدمه منذ اليوم الأول، ألم يقم عبد اللّه بن سبأ رئيس الفرقة المتطرفة الغالية الباطنية المدعوّة باسمه «السبئية» بادعاء ألوهية الإمام علي ـ كرّم اللّه وجهه ـ وقال له: أنت أنت! فلما سئل عن معنى هذا؟ أجاب: أنت الإلّه!! تجلى لك «يهوه» فأمر ـ كرم اللّه وجهه وبرأه من هؤلاء المدجلين ـ بقطع رأسه، ليقطر دابر الفتنة فما كان منهم إلا أن قالوا: إنه الإلّه حقاً وإلا لما قطع رأسه!؟!

لقد تلاقت مصالح اليهود والفرس المتعصبين منذ اليوم الأول وقد نسقوا جهودهم منذ مقتل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه على يد المجوسي الفارسي أبي لؤلؤة.

ونحن الآن نشهد الفصول الأخيرة من المسرحية التي حاكتها في الظلام أيدي الغدر والنفاق على يد حفيد المجوس الذي ألغى التأريخ

الهجري من بلاده، وعاد للتاريخ الساساني الفيروزي القيم، الذي يفضح دون مواربة بغضاً تكاد تنهد منه الجبال للإسلام والمسلمين واعتباره الفتح الإسلامي العربي غزواً طارئاً ودعوه للعودة بشعبه للساسانية وأمجاده، وتحالفه الواضح المكشوف الذي زكمت رائحته الأنوف مع أحفاد ابن سبأ أدعياء الثورية العربية في الشام[1]، الذين حملوا عبر خمسة عشر قرناً حقداً دفيناً وبغضاً نتناً على العرب والإسلام فجاءت مؤامراتهم الأخيرة لتهتك ما تستروا به من مزاوة ثورية وعروبة فارسية صهيونية، سلمت أيديكم يا مقاتلي العرب والإسلام في لبنان يا من فضحتم هذا الحلف الشيطاني بين مجموعة الحاقدين على الإسلام أولاً والعرب ثانياً هذا التحالف الذي طفا على السطح عارياً بشعاً بشاعة جرائمهم وهم: الفرس الصرحاء فالفرس ذوي الجنسيات العربية المزورة والباطنية الحاقدة المتكتمة حتى كشّرت أخيراً عن أنيابها فإذا بها حليف علني للصهيونية، ومجموعة من أحفاد الصليبيين في مشرق الوطن العربي مع حاخامات أورشليم. أعتقد أننا لم نعد نرجم بالغيب عندما نقول إن الباطنية من أتباع ابن سبأ حققت رسالتها الخالدة أخيراً في الحرب العلنية ضد العرب والإسلام عندما التقت المدافع والقنابل من الثالوث الصهيوني والصليبي والفارسي[1] المتستر بالثورية العربية المتطرفة وهم والله يشهد أنهم أعدى أعداء العروبة والإسلام، لقد رضعوا حليب الحقد على مرّ الأجيال منذ أبي لؤلؤة مروراً بابن سبأ وحتى تظاهر الدومنة بالإسلام وسيطرتهم على قيادة الجيش العثماني ثم تظاهر هم بالثورية والتحررية. . . إلى نهاية المعزوفة التي تضم آذاننا من أربعين إذاعة أو يزيد تذيع باللسان العربي أربعاً وعشرين ساعة في اليوم حتى هذه اللحظة إنها أكبر عملية تزوير في تاريخ البشر، لولا دماء المسلمين والعرب من المسيحيين الأرثوذكس في لبنان لما كان من الممكن هتك ستارها، ولظلت تدجل على المسلمين والعرب إلى يوم الدين.

تحية لشهداء العروبة والإسلام في تل الزعتر والكورة والله لن يضيع

---

(١) نقل الدكتور إحسان النص في كتابه «العصبية القبلية» خبراً تاريخياً يفيد أن معاوية خاف من طغيان المحمرة من الفرس على البصرة والعراق فنقل عدداً منهم إلى ثغور الشام.

أجرَ مَن أحسن عملاً. لقد أجبرتم مهربي الشعارات على كشف الأقنعة فتبدى حقد القرون على حقيقته.

٣ ـ أسباب اقتصادية:

شرحها أبو عثمان وربطها بدوافع نفسية فقد أوضح، بجلاء أن الغنى الذي نعم به المجتمع الإسلامي العربي بعد الفتوحات والغنائم، والخيرات، أسكر القوم، فناموا بعد صحوتهم الإسلامية الأولى، ولعمري لقد ناموا نوماً عميقاً، ولم توقظهم كل الكوارث التي نزلت بهم وما زالت تنزل حتى يومنا هذا، والحق أن الغنى يسكر ويورث البلدة على حدّ تعبير الجاحظ وإن كان للفقر من فضيلة فهي أنه يحرك الفكر ويدفع بالإنسان للبحث عن موارد للعيش وقد مرّ معنا في الفصل الأول كلامه على تعليل تفوق العرب على غيرهم من الأمم والشعوب أنهم: «**لم يستغنوا الغنى الذي يورث البلدة، والثروة التي تحدث الغرّة... ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة... ولم يحتملوا ذلاً قطّ فيميت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم...** وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع من جميع الأمم...»[1].

٤ ـ أسباب نفسية:

تعود إلى تمتع العرب بالحرية في صحرائهم وبعدهم عن صغار الجزية، وعدم احتمال الذل، ولهذا كانوا يحترمون أنفسهم يعطونها حقها من التقدير، قد يصل بهم أحياناً إلى الغرور والتكبر ولكن لا بأس فهذا خير من الذل والضعة التي تحطم النفس وتقتل دوافع الابتكار؛ فمحال أن يحترم الفرد الآخرين ما دام يحتقر نفسه وأصله وتلك ملاحظة نفسية قيّمة من لدن عمرو بن بحر رحمه الله وأعاننا الله على الانتفاع بعلمه وعقله.

والحق أن مَن يحترم نفسه نأمل منه أن يكون صادقاً مع نفسه أولاً ومع

---

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، جـ ١، مناقب الترك ص ٦٩.

الآخرين ثانياً، ومن ثم يمكن أن تكون لديه تجربة شعرية صادقة؛ لأنه يعرف قيمة نفسه، ويكون حسّاساً لكرامته، مرهف الإحساس بكل ما يتصل بشخصيته، ولذا جاء الشعر العربي غنائياً معبراً عن خلجات الشاعر ونفسه صادقاً مع عواطف الجاهلية الصحراوية الصريحة الصادقة، وهذا ما افتقده العرب تدريجياً منذ حركة الفتوحات، حتى انتهت بهم للضياع وغلبة العجم عليهم منذ انتصارهم على الأمين ووصايتهم على المأمون... وقد رصد الجاحظ هذه التغيرات ودعا للنفير، ولكن...

وبعد فخير ما يوضّح النظرية المثال أو التجربة؛ وهكذا جاء الجاحظ ببعض الأمثلة الشعرية من الشعر العربي الجاهلي في معانٍ محددة، ورصد تطورها على يد شعراء العصر الإسلامي والعصر الأموي والعباسي.

حـ ـ دراسة المعنى عبر العصور من خلال الشعراء:

وهو بهذه الطريقة يكون أستاذاً للآمدي في النقد عندما جعل موازنته بين أبي تمام والبحتري تقوم على رصد شعر كلٍّ منهما في معنى محدد ومحاولة الحكم على الشعر في حدود الفكرة التي يقومان بطرحها، ونكون قد وضعنا اليد على الملهم الأول للآمدي الذي يعدّ قمة في النقد العربي المنهجي والذي عدّه النقاد المعاصرون العلم الأهم في تاريخ النقد العربي.

«وقد أكثر الشعراء في ذكر النسور، وأكثر ذلك في لُبَد قال النابغة:

أصحت خلاء، وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبدِ

فضربه مثلاً في طول السلامة.

وقال لبيد:

لما رأى صُبْحُ(1) سواد خليله ... من بين قائم سيفه والمحملِ

---

(1) صبح: رجل من العماليق أرضه بناحية اليمامة سواد الرجل: شخصه قائم السيف وقائمته: مقبضه. والمحمل كمنبر: علاقة السيف.

صبّحن صبحاً[1] يوم حقّ حذاره ... فأصابَ صبحاً قائماً لَم يُعقل
فالتفَّ منقصفاً وأضحى نجمه ... بين التراب وبين حنو الكلكل[2]
ولقد جرى لُبَد فأدرك جريه ... ريبُ الزمان وكان غيرَ مثقَّلِ
لما رأى لُبَد النسور تطايرتْ ... رفع القوادم[3] كالفقير الأعزلِ
من تحته لقمان يرجو نفعه ... ولقد رأى لقمان أن لم يأتلِ[4]

وإن أحسنت الأوائل في ذلك، فقد أحسن بعض المحدثين وهو الخزرجي[5] في ذكر النسور، وضرب المثل به وبلبد، وصحة بدن الغراب، حيث ذكر طول عمر معاذ بن رجاء مولى القعقاع بن شَوْر[6] وهو قوله:

إن معاذ بن[7] مسلم رجلٌ ... قد ضجّ من طول عمره الأبدُ
قد شاب رأس الزمان واختضب ... الدهر وأثواب عمره جُدد
يا نسر لقمان كم تعيش وكم ... تلبس ثوب الحياة يا لُبَد[8]

---

(١) صبحن صبحاً: أي الخيل أصابت حليل صبح. يعقل البعير: ثنى وظيفه مع ذراعه بالعقال.
(٢) انقصف: انكسر. الحِنو بالكسر والفتح: كل ما فيه اعوجاج من البدن. الكلكل: ما بين محزم الفرس إلى ما مسّ الأرض منه أراد أن نجم هذا الصريع قد هوى فصار بين التراب وكلاكل الخيل.
(٣) القوادم: أربع ريشات في مقدم الجناح، الواحدة: قادمة والفقير: المكسور الفقار: وهي ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجز. والأعزل من الخيل: المائل في أحد الجانبين.
(٤) الأتلى: قصّر وأبطأ. أي أن لقمان ألفى نفسه لم يقصّر في استبقاء النسور، والحرص عليها، ولكن القدر غلبه على أمره.
(٥) **الخزرجي**: هو أبو السري سهل بن أبي غالب الخزرجي، نشأ بسجستان، وادّعى رضاع الجن، وزعم أنه بايعهم للأمين بن هارون الرشيد بالعهد، فقربه الرشيد والأمين وزبيدة، وله أشعار حسان وضعها على الجن والشياطين، والسعالى، قال له الرشيد: إن كنت رأيت ما ذكرت، فقد رأيت عجباً، وإن كنت ما رأيته، فقد وضعت أدباً. .
(٦) شَوْر بفتح الشين المعجمة: تابعي من كبار الأمراء في دولة بني أمية.
(٧) معاذ بن مسلم هذا هو المعروف بالهرّاء، كان نحوياً كوفياً متشيعاً، قرأ عليه الكسائي، وروى عنه. عُمِّر معاذ بن مسلم طويلاً، وتوفي سنة سبع وثمانين ومائة، وهي سنة نكبة البرامكة
(٨) لُبَد كزُفَر: آخر نسور لقمان. قالوا في أساطيرهم: عُمِّر لقمان عمر سبعة أنسر، كلما مات واحد منها، يعيش ثمانين سنة

قـد أصبحت دارُ آدمٍ خربتْ　　وأنت فيها كأنك الوتدُ[1]
تسأل غِربانها إذا حجلت　　كيف يكون الصداعُ والرمدُ»[2]

ونقرأ لأبي عثمان في موضع آخر وهو يتابع رحلة المعنى الواحد بين الشعراء عبر القرون قوله:

«. . . فإن النسور تتبع العساكر، وتتبع الرِّفاق ذوات الإبل، وقد تفعل ذلك العقبان، وتفعله الرخم. . .

وقد أكثر الشعراء في هذا الباب حتى أطنب بعض المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد فقال:

يكسو السيوف نفوس الناكثين به　　ويجعل الهام تيجان القنا الذُبلِ[3]
قد عوَّد الطير عاداتٍ وثقن بها　　فهنّ يتبعنه في كل مرتحل

ولا نعلم أحداً منهم أسرف في هذا القول؛ وقال قولاً لا يرغب عنه إلا النابغة؛ فإنه قال:

جوانحُ قد أيقنَّ أن قبيله　　إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ

وهذا لا نثبته. وليس عند الطير والسباع في اتباع الجموع إلا ما يسقط من ركابهم، ودوابهم، وتوقع القتل؛ إذ كانوا قد رأوا من تلك الجموع مرة أو مراراً.

فإما أن تقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين؛ فهذا ما لم يقله أحد»[4].

وهكذا يكون أبو عثمان قد أنصف كلًّا من الخزرجي ومسلم وهما من

---

(١) الوتد: يبقى في الدار من مخلفات القوم.
(٢) الحيوان للجاحظ، جـ ٦ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٨.
(٣) الناكثين: الناقضين للعهد. الذبل: جمع ذابل، وهو القنا الدقيق اللاصق القشر.
(٤) الحيوان، جـ ٦، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٨ بالتفصيل.

المحدثين إنصافاً كاملاً فوضع النظرية وطبقها على نفسه أولاً، ثم طالب النقاد والمتأدبين بالسير على منواله.

ومسلم بن الوليد هذا هو الذي نقل الجاحظ قوله: «... قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر، الذي يعرف بصريع الغواني[1]:

خيِّل إلى نَوْكى الشعراء أنهم لا يُقْضى لهم بجودة الشعر إلا بهجائي، والطعن في شعري، ولسان يُهجى به عِرْضي لا أنفكّ مُتّهَماً من غير جرمٍ، إلا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التي أوهمتهم أنه لا يسجل لهم بجودة الشعر إلا إذا استعملوا فيَّ ما خيِّل إليهم»[2].

هل بعد هذا الإنصاف لمسلم بن الوليد معاصر الجاحظ إنصاف؛ لقد كان الجاحظ أميناً صادقاً مع نفسه بكل ما تعنيه كلمة الصدق من معنى.

ثم ألم ينصف الجاحظ كتاب الدواوين في عصره، وهو الذي ترك الخدمة معهم بعد ثلاثة أيام لا غير، لأنه لم يحتمل أخلاقهم، ومع هذا لم يمنعه البغض من الإنصاف فقال: «... قال أبو عثمان: أما أنا. **فلم أرَ قطّ أمثل طريقةً في البلاغة من الكتاب؛ فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً**»[3].

لقد أُعجب أبو عثمان ببلاغتهم، فاعترف لهم بالفضل دون أن يدع مجالاً لعواطفه التي يحملها نحوهم أن تبعده عن جادة الحق والصواب. فليرحمك اللّه يا أبا عثمان. وبعد. فلنرَ موقفه من شعوبي متطرف لم يترك فرصة للنيل من الإسلام والعرب إلا واستغلها بالحق أو بالباطل، ألا وهو

(١) توفي مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ هـ كما في النجوم الزاهر جـ٢ ص ١٨٦ وكان قد اتصل بذي الرياستين الفضل بن سهل، فولّاه بريد جرجان، وبهامات. معجم المرزباني ٣٧٢.

(٢) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الجزء الأول كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ص ٣٤٩.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ، جـ١، ص ١٦٥.

خلف الأحمر، فالرجل معروف بشعوبيته التي لا تحتاج إلى برهان، ومع أن الجاحظ ألّف كتاب البيان والتبيين للرد على الشعوبية، فقد اعترف لعدوه اللدود، وعدو الإسلام والعرب، اعترف الجاحظ له بحقه وفضله في معنى، ولم يترك العصبية تتحكم في آرائه وأحكامه، وهو الذي دعى لمحاربة العصبية وطغيان الهوى.

«... والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال:

يخفي التراب بأظلافٍ ثمانية ومسّهنّ إذا أقبلن تحليل(١)

وقال الآخر(٢):

وكأنما جهدت أليّته أنْ لا تمسَّ الأرضَ أرْبُعُه

فأفرط المولدون في صفة السرعة، وليس ذلك بأجود، فقال الشاعر منهم يصف كلبه بسرعة العدو، كأنما ترفع ما لم يوضعِ، وقال الحسن بن هانىء:

.... ما إن يقعنَ الأرض إلا فرطا»(٣)

د ـ إنصاف الجاحظ لأبي نواس والمولدين:

وهل من منصف ينكر شعوبية أبي نواس الحسن بن هانىء، وتهاونه بكل ما يتصل بالعقيدة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وهو متناقض تماماً مع عمرو بن بحر، ومع هذا فلنسمع رأي الجاحظ في شعر أبي نواس وأراجيزه:

---

(١) القائل هو عبدة بن الطيب يذكر ثوراً يحفر كناساً، ويستخرج ترابه فيظهره. والتحليل من تحلّة اليمين أي الاستثناء في الحلف. وهي أن يقول الحالف إثر حلفه: إن شاء اللّه. قال العسكري: يقول: إن مواصلة هذا الثور بين خطواته كمواصلة الحالف بالتحلة يمينه من غير تراخ.

(٢) الشاعر هو خلف الأحمر يصف الثور، جَهَدَ من باب قطع: جد، وبالغ، الألية: اليمين والقَسَم. أربُعُه: قوائمه الأربعة.

(٣) الحيوان، جـ ٢، ص ٣٤ ـ ٣٥.

«وأنا كتبتُ لك رجَزَهُ في هذا الباب؛ لأنه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه.

هذا مع جود الطبع، وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وإن تأملت شعره فضَّلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء. فإن اعترض هذا الباب عليك، فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً.

قال الحسن بن هانىء:

لما غدا الثعلب من وجاره ... يلتمس الكسب على صغاره
عارضه في سنن امتياره[1] ... مضمَّرٌ يموج في صِداره»[2]

١ ـ لقد اعترف له عمرو بن بحر بالعلم والرواية، وأبو عثمان مَن نعلم في الأدب والمعرفة قد اعترف للحسن بن هانىء بالعلم والرواية أي بالمعرفة الواسعة المتنوعة التي جعلته يستحق هذه الإجازة من الجاحظ.

٢ ـ حاول أبو عثمان أن يتعرف إلى أسباب نبوغ الحسن بن هانىء وتقدمه على غيره في وصف الكلاب فوجد أنها الخبرة الطويلة والتجربة بالصيد والقنص فقد عايشها أبو نواس طويلاً حتى فاق الأعراب معرفة بها وهم يربون الكلاب في صحرائهم وحواضرهم ومع كل هذا فقد نفذ أبو نواس إلى نواح في خلق الكلب وطباعه لم يتعرفها العرب جميعاً، فاعترف له بهذا المحامي الأول عن العرب ألا وهو الجاحظ لم ينتقص من الرجل حقه، لأي سبب كان.

٣ ـ لقد دعانا عمرو بن بحر إلى السير على منواله في التخلص من

(١) امتياره: طلبه للميرة، أي الطعام. والسَّنن بالتحريك الطريق الصدار: هنا: جلده الواسع، وسعة الجلد محمودة في الكلاب
(٢) الحيوان جـ ٢ ص ٢٧.

العصبية في أحكامنا كما فعل هو مع أبي نواس ولم يأمرنا إلا بما عمل أولاً، وحذرنا من موقفنا المتعصب إن تمسكنا به سيجعلنا نبتعد عن الحق فنغلب، وهذه نصيحة صادقة مخلصة من رجل واعٍ، لو صادفت سماعاً من العرب وطبقت في جميع أمور حياتهم لأراحوا واستراحوا، ووفروا على أنفسهم وعلى إخوانهم في الدين من الموالي المسلمين كثيراً من العنت والمصائب التي توالت وما زالت تتوالى فوق رؤوسنا جميعاً؛ لأنك لن تجد عصبية متطرفة إلا وقد تحالفت مع الكذب والدجل وسوء النيّة. . .

٤ ـ واعترف للحسن بن هانيء بجودة الشعر لأنه يتميز بما يلي:

أ ـ جودة الطبع.

ب ـ جودة السبك.

جـ ـ الحذق بالصنعة.

بل لقد ذهب به التجرّد والنزاهة إلى تقديم أبي نواس على مهلهل الشاعر العربي الجاهلي الذي قيل: إن الشعر بديء به:

«وأبيات أبي نواس ـ **على أنه مولّد شاطر ـ أو شعر من شعر مهلهل في** إطراق الناس في مجلس كليب وهو يقول:

على خبز إسماعيل[1] واقية البخل … وقد حلّ في دار الأمان من الأكلِ
وما خبـزه إلا كـآوى يُـرى ابنهـا … ولم تُرَ آوى في الحزون ولا السهلِ
ومــا خبــزه إلا كعنقــاء مُغـربٍ … تُصوَّر في بسط الملوك وفي المثْلِ
يُحدّث عنها الناسُ من غير رؤيـة … سوى صورة ما إن تُمِرُّ ولا تجلي
ومــا خبـزه إلا كليبُ بن وائــلٍ … ليـالي يحمي عـزُّه منبتَ البقــلِ
وإذ هـو لا يستبُّ خصمـاه عنـده … ولا القولُ مرفـوعٌ بجدٍ ولا هـزلَ

---

(١) يهجو أبو نواس إسماعيل بن أبي سهل بن نبخت، وكان أبو نواس يرتعي على خِوان إسماعيل كما ترتعي الإبل في الحمض بعد طول الخلّة، ثم كان جزاؤه منه أن قال:

خبـز إسـماعيـل كـالـو … شـي إذا مـا شـق يـرفـا. . .

فإنْ خبز إسماعيل حلّ به الذي أصاب كليباً لم يكن ذا عن بذلِ
ولكن قضاءً ليس يسطاع دفعه بحيلة ذي دهيٍ ولا فكرِ ذي عقل»[1]

كان كل هذا التقديم من الجاحظ لأبي نواس وهو يعلم من سيرته ما يعلم وكأني به أحب أن يعطينها درساً علمياً في النزاهة الكاملة، والبعد التام عن العصبية والهوى عندما قال:

«وأما أبو نواس، فقد كان يتعرض للقتل بجهد».

وقد كانوا يعجبون من قوله:

كيف لا يدنيك من أملٍ مَنْ رسولُ اللّه مِنْ نَفَرِه[2]
فلما قال:

فأحبب قريشاً لحب أحمدها واشكره لها الجزل من مواهبها[3]

جاء بشيء غطى على الأول.

فلما قال:

يا أحمد[4] المرتجى في كل نائبة قم سيدي نعصِ جبار السمواتِ

غطى هذا على الأول. وهذا البيت مع كفره مقيت جداً، وكان يكثر هذا الباب.

وأما ما سوى هذا الفن، فلم يعرفوا له الخطأ إلا قوله:

أمستخبرَ الدارِ هل تنطقُ؟ أنا مكان الدار لا أنطقُ

---

(١) الحيوان، جـ ٣، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) يمدح بها العباس بن عبيد اللّه بن أبي جعفر المنصور. وقد أثار هذا البيت ضجة كبيرة بين الأدباء؛ لأن من حق الرسول ﷺ أن يضاف إليه وألاّ يضاف إلى أحد.

(٣) أحبب: بقطع الهمزة وإسقاط الفاء: أمر مَن أحب يحب. على لغة ضعيفة.

(٤) أحمد هذا هو أحمد بن أبي صالح، كان أبو نواس يتعشقه.

كـأنـهـا إذا خـرسـت جـارم[1] بـيـن ذوي تـفـنـيـدة مـطرقُ

فعابوه بذلك، وقالوا: لا يقول أحدٌ: لقد سكت هذ الحجر. كأنه إنسان ساكت، وإنما يوصف خرس الإنسان بخرس الدار، ويشبه صممه بصمم الصخر.

وعابوه بقوله، حين وصف الأسد بالجحوظ فقال:

كـأن عـيـنَـه إذا الـتـهـبـت بـارزةُ الـجفـن عـينُ مـخـنـوقِ

وهم يصفون عين الأسد بالغؤور.

وقال الراجز:

كأنما ينظر من عين حجر

وقال أبو زبيد[2]:

وعينـان كـالـوقبين مـلء صخـرة تـرى فيهمـا كـالجمـرتين تسمُّـرُ

ومع هذا فإنّا لا نعرف بعد بشارٍ أشعرَ منه»[3].

أرأيت لقد دلّنا الجاحظ على نقاط الضعف ومواضع القوة في شعر الحسن بن هانيء ولم يترك مجالاً لعواطفه أو عصبيته كي تلعبا دوراً في الانتقاص من شعره.

وحتى لا نتوهم أنه متحيز للحسن بن هانيء لأسباب منها مثلاً خوفه من الهجاء، فهذا عمرو بن بحر ينصف شعوبياً آخر لا يقل عنه تطرفاً في كراهيته للعرب قوم الجاحظ ومع ذلك لم تمنع هذا الكراهية أبا عثمان من إنصافه ألا وهو بشار بن برد:

---

(١) الجارم: الجاني. والتفنيذ: المراد به اللوم والعذل، والتكذيب في تخطيء الرأيُ وتضعيفه.

(٢) أبو زبيد الطائي.

(٣) الحيوان، جـ ٤، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٧.

(... ومن خطباء الأمصار وشعرائهم، والمولّدين منهم: بشار الأعمى، وهو بشار بن برد، وكنيته أبو معاذ. وكان من أحد موالي بني عقيل. فإنه كان مولى أُم الظّباء ـ على ما يقول بنو سدوس، وما ذكره حماد عجرد ـ فهو من موالي بني سدوس.

ويقال إن كان من أهل خراسان نازلاً في بني عقيل، وله مديح كثير في فرسان أهل خراسان ورجالاتهم. وهو الذي يقول:

مِنْ خراسان وبيتي في الذرى ولدى المسعاة فَرْعي قد سمقْ

وقال:

وإني لمن قومٍ خراسانُ دارُهم كرامٍ وفرعي فيهم ناضِرٌ بَسَقْ

وكان شاعراً راجزاً، وشجاعاً خطيباً، وصاحب منثور مزدوج وله رسائل معروفة...

والمطبوعون على الشعر من المولدين: بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عيينة. وقد ذكر الناس في هذا الباب: يحيى بن نوفل، وسلماً الخاسر، وخلف بن خليفة، وأبّان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء وبشار أطبعهم كلهم»[1].

ولو دققنا النظر فيمن اعترف لهم الجاحظ بالطبع على الشعر من المولدين لرأينا أولهم بشار وهو شعوبي معروف متطرف. والسيد الحميري وهو من الغالية الكيسانية التي تؤمن بألوهية الإمام علي كرّم اللّه وجهه باطني يدعو ويؤمن بالتفسير الباطني للقرآن ويخرج علينا مع أبناء فرقته بتأويلات تدعو للسخرية والرثاء، ومع هذا فقد اعترف له شيخ المعتزلة في زمانه ورئيس الفرقة الجاحظية أبو عثمان بالطبع على الشعر وهذه لعمري لشهادة قيّمة.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، جـ ١، ص ٧١ ـ ٧٣.

وأما أبو العتاهية فهو دهري معروف بإنكاره للكثير من مبادىء العقيدة الإسلامية، ولا يمكن أن يلتقي مع أبي عثمان في المبدأ أو في الأصل فالرجل من الموالي أيضاً. وابن أبي عيينة، وأبان اللاحقي هؤلاء من معاصري الحسن بن هانىء ومقلديه في فسقه وسلوكه وعقيدته ومع هذا فقد اعترف لهم جميعاً بالطبع على الشعر وقدّمهم على غيرهم من شعراء عصره.

بل لقد ذهب الأمر بأبي عثمان إلى حدّ الوقوف في صف بشار ضد حماد عجرد عندما نشب بينهما خلاف وتطاير الهجاء بينهما:

«. . . وما كان ينبغي لبشار أن يناظر حماداً من جهة الشعر وما يتعلق بالشعر؛ **لأن حماداً في الحضيض وبشاراً مع العيوق**[1] **وليس في الأرض مولد قروي يُعدُّ شعره في المحدث إلا وبشارٌ أشعر منه**»[2].

وقد مدح سهلاً بن هارون أيضاً وهو شعوبي فارسي[3]. ولا عجب إذن أن نراه يضع عربياً شاعراً من معاصريه بعد بشار بن برد الفارسي الشعوبي المتطرف، ويصرّح الجاحظ بأن حفيد عمرو بن كلثوم يقلد لبشاراً بن برد: «ومن الخطباء الشعراء، ممّن كان يجمع الخطابة، والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمر والعتابي وكنيته أبو عمرو.

وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع، يقول جميع مَن يتكلف ذلك من شعراء المولدين كنحو: منصور النمري ومسلم بن الوليد الأنصاري، وأشباههما.

وكان العتابي يحتذي حذو بشارٍ في البديع. ولم يكن في المولدين

---

(١) العيُّوق: بفتح العين وتشدّيد الياء المضمومة: نجم أحمر مضيء من طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها. يضرب به المثل في العلو.

(٢) الحيوان، جـ ٤، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

(٣) انظر البيان والتبيين، ص ٧٤ ـ ٧٥.

أصوبُ بديعاً من بشار، وابن هرمة، والعتابي من ولد عمرو بن كلثوم، ولذلك قال:

إني امرؤ هدمَ الإقتار مأثرتي　　واجتاح ما بنتِ الأيامُ من خطري
أيام عمرو بن كلثوم يسوِّده　　حيا ربيعة والأفناء من مُضر
أرومة عطلتني من مكارمها　　كالقوس عطلها الرامي من الوتر

ودلّ في هذه القصيدة على أنه كان قصيراً قوله:

نهى طرفَ الغواني عن مواصلتي　　ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري»[١]

هـ ـ طبقات الشعراء:

يعرض الجاحظ في بيانه وجهة نظر علماء اللغة العربية في زمانه في مراتب الشعراء وطبقاتهم على الوجه التالي:

«والشعراء عندهم أربع طبقات:

فأولهم الفحل الخنذيذ، والخنذيذ هو التام.

قال الأصمعي: قال رؤبة[٢]: والفحولة هم الرواة.

ودون الفحل الخنذيذ: الشاعر المُفلِّق.

ودون ذلك: الشاعر فقط.

والرابع: الشعرور.

ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء:

يا رابع الشعراء فيما هجوتني　　وزعمت أني مفحم[٣] لا أنطقُ

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، جـ١، ص ٧٤.

(٢) هو رؤوبة بن العجاج. كان من فحول الرجّاز في الإسلام، نشأ هو وأبوه في الدولة الأموية، وأدرك هو الدولة العباسية، ونال الجوائز والصلات من زعماء الدولتين. وهو أحد الرجاز الفصحاء المذكورين المقدمين في معرفة اللغة أخذ عنه وجوه الرواة واللغويين، وصدور أهل الأدب، واحتجوا بقوله، وائتموا بفصاحته.

(٣) المفحم: العيي الذي لا يكاد يبين. وفي هذا المعنى يقول الحطيئة:

فجعله سكّيتاً مخلفاً، ومسبوقاً مؤخراً.

وسمعت بعض العلماء يقول[١]: طبقات الشعراء ثلاث: شاعر وشويعر وشعرور.

قال: والشويعر مثل محمد بن حُمران بن أبي حمران الحارث بن معاوية الجعفي، سماه بذلك امرؤ القيس بن حجر[٢].

ومنهم ثَمَّ من ضبة: المفوف شاعر بني حُميس، وهو الشويعر ولذلك قال العبدي:

ألا تَنْتَهي سراةُ بني حُميس شويعرها فُويْلية[٣] الأفاعي
قُبيلة تردد حيث شاءت كزائدة النعامة في الكراع[٤]

والشويعر أيضاً: صفوان بن عبد ياليل، من بني سعد بن ليث، ويقال إنّ اسمه: ربيعة بن عثمان. وهو الذي يقول:

فسائل جعفراً وبني أبيها بني البرْزَى بطخفة[٥] والملاح
غداة أتتهمُ حمر المنايا يسقن الموت بالأجل المتاح
إذا انتشروا ضممنا حجريتهم ببيض المشرفية والرماح
وأفلتنا أبا ليلى طفيل صحيح الجلد من أثر السلاح»[٦]

= الشعراء فاعلمنْ أربعة فشاعر لا يرتجى لمنفعة
وشاعر ينشد وسط المجمعة وشاعر يجري ولا يجري معه
وشاعر يقال خُمر في دعه

(١) لعله يونس بن حبيب.
والشاعر المغلق على هذا خنذيذ ومن دونه شاعر، ثم شويعر، ثم شعرور، ثم متشاعر.

(٢) في قوله:
أبلغا عني الشويعر أني عمد عين قلدتهنّ حريماً

(٣) فويلية الأفاعي: دويبة سوداء فوق الخنفساء.

(٤) كراع النعامة: ما دون عقبيها. والزائدة: ما حرج في العقب.

(٥) طخفة: جبل أحمر طويل به بئر ومنهل. وفي سفحه حدث يوم من أيام العرب كان لبني يربوع على قابوس بن المنذر. والملاح: موضع.

(٦) البيان والتبيين، جـ٢، ص ٨ - ١١.

ثم يعود الجاحظ في مناسبة أخرى ليلقي المزيد من الأضواء على قضية طبقات الشعراء في الجاهلية والإسلام «... وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم، وتذكيره بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر.

والذين هجو فوضعوا من قدر من هَجَوه، ومدحوا فرفعوا من قدر مَن مدحوه، وهجاهم قوم فردّوا عليهم فأفحموهم، وسكت عنهم بعض من هجاهم مخافة التعرّض لهم، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبة بأنفسهم عن الردّ عليهم. وهم في الإسلام: جرير، والفرزدق، والأخطل. وفي الجاهلية: زهير، وطرفة، والأعشى، والنابغة هذا قول أبي عبيدة.

وزعم أبو عمرو بن العلاء: أن الشعر فتح بامرىء القيس وختم بذي الرُّمة»[1].

والجاحظ هنا ناقل لآراء كلٍّ من أبي عبيدة، وأبي عمرو بن العلاء؛ فهما عالمان باللغة العربية، يعرفان أسرارها، وأحوال العرب، وهو يحترم ويقدّر رأي أهل العلم والمعرفة وإن لم يسلم به تسليماً كاملاً، فقد نظر لقضية الطبقات من زاوية جديدة لم يفطن لها أحد قبله وهي زاوية تعدّد نواحي الفن الأدبي من حيث الشعر والرجز والخطابة فهي فنون أدبية تستحق النظر إليها أيضاً، فنبّه على ضرورة الالتفات إليها: «... ومن الشعراء من يحكم القريض، ولا يحسن من الرجز شيئاً **ففي الجاهلية منهم: زهير والنابغة والأعشى.**

وأما من يجمعهما: فامرؤ القيس؛ وله شيء من الرجز، **وطرفة؛** وله كمثل ذلك، **ولبيد وقد أكثر.**

ومن الإسلاميين مَن لا يقدر على الرجز، وهو في ذلك يجيد القريض

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٤، ص ٨٤.

كالفرزدق وجرير وممّن يجمعهما: أبو النجم العجلي، وحميد الأرقط والعمّاني، وبشار بن برد.

وأقل من هؤلاء يحكم القصيد والأرجاز والخطب، وكان الكميت، والبعيث والطرماح شعراء خطباء، وكان البعيث أخطبهم.

قال يونس بن حبيب: إن كان مغلباً في الشعر لقد كان غُلب في الخطب. وإذا قالوا: غُلِّب، فهو الغالب»[1].

فقد رأى أبو عثمان أن الشعراء يمكن مبدئياً أن يقبل تقسيمهم زمانياً إلى جاهليين وإسلاميين، وقد جارى أبا عبيدة فوضع في الطبقة الأولى من الجاهليين كلاً من زهير بن أبي سلمى؛ والنابغة والأعشى، وترك طرفة ليقدمه في طبقته ولكن من زاوية أخرى سيعرضها بعد قليل ولم يعلّق الجاحظ على رأي أبي عمرو بن العلاء واكتفى بقوله «زعم». وهي كما نعلم أقرب للشك منها لليقين.

وأما التصنيف الجديد للطبقات كما يراه أبو عثمان فهو يعتمد على تعدّد نواحي الإبداع في الفن الأدبي من شعر ورجز وخطابة.

١ ـ وهو قد نظر فلم يجد في الجاهلية من الشعراء مَن يجمع الفنون الثلاثة. بينما وجد في الإسلاميين مَن يجمعها وهؤلاء في رأي أبي عثمان في الطبقة الأولى وقد وضع فيها كلاً من: الكميت، والبعيث، والطرماح، واعترف للبعيث بالتقديم عليهم جميعاً مستشهداً برأي يونس بن حبيب.

علماً بأن الكميت شيعي، والطرماح خارجي وهما يختلفان عن عمرو بن بحر في العقيدة المعتزلية التي آمن بها وناضل في سبيلها أبو عثمان.

٢ ـ وقد وجد بين الشعراء مَن يجمع الشعر والرجز وهؤلاء في الطبقة

(١) المصدر السابق جـ ٤، ص ٨٤.

الثانية ففي الجاهلية جاء امروء القيس، وطرفة ولبيد.

ومن الإسلاميين عدّ الجاحظ أبا النجم العجلي، وحميد الأرقط، والعمّاني، وبشاراً بن برد.

٣ ـ ويأتي في الطبقة الثالثة مَن يتقن الشعر وحده دون الرجز والخطب وقد اعترف بالتقدم لزهير والنابغة والأعشى في الجاهلية.

ومن الإسلاميين رأى تقدير جرير والفرزدق. وهي نظرة جديدة على النقد العربي ابتدعها أبو عثمان، وهي نظرة صحيحة، إلى حدٍّ بعيد، دفعت بالفكر النقدي العربي خطوات إلى الإمام؛ إذ خلّصته من تعميم الأحكام الوقتية والحكم على الشاعر بأنه أشعر الناس لأجل بيت أو أبيات ثم تتبدل الأذواق والمناسبات وتتقلب معها الأحكام حسب الفصول.

لقد جاء الجاحظ بهذه النظرة الموضوعية ليضع المسألة وضعاً علمياً محدداً ضمن نواحي الإبداع الفني وتعدّد المواهب الأدبية.

الباب الثاني

الفصـــل الأوّل

بين اللفظ والمعنى

أو الشكل والمضـــمون

أ ـ المقـــدمة

وهذه قضية أدبية ما زالت مطروحة منذ وجد الأدب وستبقى كذلك ما دام الأدب موجوداً، ولا شك أن هذا يرجع إلى اختلاف شخصيات الأدباء من جهة والنقاد أو جمهور المتأدبين من جهة أخرى.

إذ نرى أن فريقاً من الناس يحب الزخرفة والتزيين والمبالغة في الترتيب والدقة في التنظيم تسري في كل شؤون حياته العامة والخاصة، ونتوقع من هذا النمط من الناس أن يفضل الزخرفة اللفظية ويقدّم اللفظ، ويدعو للعناية به، وتنقيح العبارة؛ لأنه يرى في الأدب صورة لأناقته الشخصية، أو يريد أن يرى من خلاله صورة أنيقة للكاتب، وهو لهذا السبب يؤكد على أهمية السبك الجيد، والمبالغة في انتقاء الكلمات المناسبة للموضوع، ويحرص على زخرفة البحث الأدبي وكأنه يريد أن يرى صورة ملوّنة لفاتنة يحبها.

وهناك فريق آخر من الناس يكره الزخارف المصطنعة بل ويكره رؤية الزينة والأصباغ على وجه زوجة وينفر منها، ويعدّها نوعاً من الغش، ولا يعير اهتماماً يذكر لقضية الأناقة والزخرفة، وحتى في تعامله مع الناس في حياته العامة والخاصة نجده أقرب إلى الجفاف والبساطة في التعامل، مثل هذا الرجل يكره المراسم ويميل للانعزال عن الناس غالباً، ونحن نتوقع أن يكون هذا الفريق في صف الذين يؤثـرون المعنى على اللفظ، ويهتم بالوصول إلى الفكرة والمعنى، ولا يعلّق أهمية كبرى على زخرفة اللفظ، أو سلاسة العبارة أو جمال السبك، وتزيين الأسلوب، لأنه يقرأ الأدب ويطالعه

بعقله، فهو يجري وراء الفكرة يلاحقها، ويعمل على استيعابها.

وقليلون من الناس الذين يستطيعون السيطرة على جموح عواطفهم، وإعطاء التوازن المطلوب بين عقلهم وعاطفتهم وهؤلاء هم المنصفون الصفوة من الأدباء والنقاد الذين يعدّ عمرو بن بحر من بينهم؛ فهو لا يقلّل من أهمية أيٍّ من العنصرين، فكلاهما ضروري لعملية الإبداع الأدبية، ولذلك كان على الأديب أن يوليهما اهتماماً متوازناً، ويعطي كلًّا منهما قدراً متساوياً من البحث والمراجعة والتدقيق عند بناء القطعة الأدبية.

ب ـ فيما يخص اللفظ:

يقدم الجاحظ في البداية **بعض التوضيحات المنطقية التي لا بدّ منها قبل** الدخول في النواحي الفنية، وفي أساليب الاستعمال الأدبي للكلمة، وكيفية الصياغة الجيدة للكلام، فهو يرى:

١ ـ **أن الناس تضع من الألفاظ ما يكفي لحاجيات حياتها**، وعلى هذا، فإننا نطور لغتنا وتتطور معنا بالسرعة التي يتطور بها مجتمعنا، وهذه حقيقة عقلية واقعية لا يستطيع عاقل في الدنيا إنكارها؛ فنحن اليوم نستعمل كلمات مثل: محطة الفضاء، والقمر الصناعي، وعلوم الذرّة، والقمر العابر للقارات، وغيرها من مخترعات العصر الحديث وكلها لم تكن موجودة زمن الجاحظ فلم توجد لعدم الحاجة إليها ما دامت العلوم لم تكن قد توصلت إلى تلك المخترعات زمن الجاحظ. بل وقد كان الشعر والأدب العباسي يفيض بوصف الناقة والجمل... ونحن اليوم مشغولون بوصف الطائرة النفاثة، والعربة المريحة ولهذا قال أبو عثمان:

«... ويؤكد ما قلت فيه ما حدّثني به طاهر الأسير، فإنه قال: ومما يدل على أن الروم أبخل الأمم أنك لا تجد للجود في لغتهم اسماً.

يقول: إنما يسمي الناس ما يحتاجون إلى استعماله ومع الاستغناء، يسقط التكلف.

وقد زعم ناس أن مما يدل على غش الفرس أنه ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الاسم...»[1].

فالجاحظ هنا يرى أننا نستطيع أن نأخذ فكرة عن القوم من خلال معرفة لغتهم، وهذا حق فإن لسان العرب مثلاً يضم نسبة كبيرة من الكلمات التي تدل على ما يهتم به عرب الجاهلية كالسيف، الفرس، والناقة...

٢ ـ يرى أبو عثمان أننا نضطر أحياناً إلى الاستعانة بالإشارة عندما نجد أن اللفظ غير كافٍ للدلالة على ما نريد من معنى «... وزعمت أن من اللفظ ما لا يفهم معناه دون الإشارة، ودون معرفة السبب والهيئة. دون إعارته وركته، وتحديده، واحتيازه..»[2].

وهذا صحيح لأننا قبل البداية في دراسة النصوص اليوم لا بدّ أن نأخذ فكرة عمّا يسمى «بالجو العام للنص» وهو يتضمن لمحة عن حياة الشاعر عامة والتعرّف بصورة خاصة إلى الناحية التي تهمنا في النص المدروس، هذا بالإضافة إلى المناسبة التي قيل بها النص، وقد تكلم السيد قطب[3] رحمه اللّه على هذه الناحية وقدّم بعض النصوص التي تَشكَل على القارىء، هل هي فخر أم وصف، أم هجاء، وإن المرء ليقف متسائلاً حتى يُعرّف بالمناسبة التي قيل بها النص.

٣ ـ الألفاظ محدودة معدودة في اللغة يمكن حصرها، بينما المعاني والأفكار لا حصر لها، ولهذا السبب نجد أنفسنا مضطرين للاستعانة بالمجاز حيناً، أو بالاشتقاق وأحياناً نستعين باللغات الأخرى، أو ننحت من لغتنا ألفاظاً جديدة نحتاج إليها لمسايرة حاجيات حياتنا «ثم اعلم ـ حفظك اللّه ـ أن حكم

---

(١) انظر البخلاء للجاحظ، تحقيق طه الحاجري، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) انظر رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد مطبعة السنة المحمدية ١٣٢٣ هـ، حجج النبوّة، ص ١٣١.

(٣) راجع كتابه «في النقد الأدبي».

المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية.

وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة...»[١].

جـ ـ فيما يخص المعنى:

١ ـ **اللفظ بدن والمعنى روح واللفظ بلا معنى لغو**، وهذه نتيجة منطقية لنظرة الجاحظ التي تكلمت عليها قبل قليل فاللفظ يوجد بعد أن يوجد المعنى، إن حاجتنا للفظ تخلق بعد أن نخترع شيئاً جديداً، أو بعد أن نصل إلى فكرة جديدة لقد اخترعنا اسم القمر الصناعي بعد أن توصل إليها العقل الإنساني، وكذلك السيارة لم يوجد اللفظ إلا بعد اختراع الآلة ومن بعد تصبح الكلمة جسم يحلّ به المعنى وكأنه الروح التي تهب الحياة للجسم، ودون الروح يصبح الجسم جثة هامدة لا نفع فيها:

«وعلّمه جميع الأسماء بجميع معانيها. **ولا يجوز أن يعلّمه الاسم ويدع المعنى، ويعلمه الدلالة، ولا يضع له المدلول عليه. والاسم بلا معنى لغو، كالظرف الخالي، والأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح.**

اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح. ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ، لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له، وشيئاً لا حسّ فيه، وشيئاً لا منفعة فيه...»[٢].

٢ ـ **قد يكون المعنى ولا يكون له اسم**، وهذه حالة يشكو منها الشعراء، والأدباء، والنقاد، وقديماً شكا أرسطو من عدم وجود مصطلحات في اللغة اليونانية[٣].

---

(١) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٩٩.

(٢) انظر رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، جـ ١، ص ٢٦٢.

(٣) راجع في الشعر لأرسطو ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٣ ـ ٧ وعلى الخصوص قوله: «أما الفن =

ولهذا قال الجاحظ:

«ولا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمن بمعنى، **وقد يكون المعنى ولا اسم له، ولا يكون اسم إلا وله معنى**... وليس لما فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسم، إلا أن تدخله في باب العلم، فتقول: شيء ومعنى...

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة، ولعمري، إنها لتحيط بها وتشتمل...»(١).

٣ ـ المعاني موجودة في الذهن، ولكنها تحيا بالاستعمال والإخبار عنها

«قال بعض جهابذة الألفاظ، ونقاد المعاني:

المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، **وموجودة في معنى معدومة**؛ لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه، وخليطه، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره **وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها**.

وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجلّيها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً وهي التي توضح الملتبس، وتحلّ المنعقد...»(٢).

٤ ـ ونتيجة لما تقدم فالمعنى هو المهم عند الجاحظ، ما دام اللفظ في

= الذي يحاكى بواسطة اللغة وحده، نثراً أو شعراً، والشعر إما مركباً من أنواع، أو نوعاً واحد ـ **فليس له اسم حتى يومنا هذا**:

فليس ثمّة اسم مشترك يمكن أن ينطبق بالتواطؤ على تشبيهات سوفرون، واكسيزحوس، وعلى المحاورات السقراطية . »

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، حـ ١ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٢) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٩٨ ـ ٩٩.

خدمة المعنى، والمعنى روح تسكن جسماً هو اللفظ، لذا صرح عمرو بن بحر بما يلي:

«ومدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ والحقائق لا العبارات. . .»[1].

هذا فيما يخص الأدب عامة، أما الشعر فإن له نظرة خاصة لدى أبي عثمان ويراه من زاوية أخرى، فيرى أننا يجب أن نطالب الشاعر أن يضاعف الاهتمام بالصياغة وأن يجيد سبك العبارة الشعرية حتى تبدو أقرب إلى الطبع، وأن يكون الشعر سهل المخرج غضّاً طرياً يدل على ذوق مرهف، وحسّ لطيف؛ لأن الشعر يتجه إلى القلب والعاطفة وطريقتهما الزخرفة، والزينة:

«وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك؛ فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير. . .»[2] وهذه العناية بالصياغة واختيار الكلمة الشعرية المعبّرة الجميلة والتأكيد على سلامة الصياغة ورقتها أهم خصائص الشعر الغنائي، وقد كان أبو عثمان يضع القواعد النقدية للشعر العربي الغنائي.

وأخيراً يبقى ولاء الجاحظ للمعنى أولاً وقبل كل شيء حتى في الشعر، وهذا الولاء للفكر والفكرة قبل كل شيء تجعل من أبي عثمان متسامحاً مع الشعراء متساهلاً معهم ما دام المعنى واضحاً، أو ما دامت الصورة جميلة تستحق التأمل والإعجاب، عندها فقط يتغاضى عمرو بن بحر عن الضرورة التي ألجأت الشاعر إلى استبدال حرف بحرف أو كلمة حلّت محل كلمة أخرى، فهو رحيم بالشعراء رفيق بهم رفقاً يذكرنا بدفاع المعلم الأول أرسطو

---

(١) الحيوان، جـ ٥، ص ٥٤٢.

(٢) الحيوان، جـ ٣، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

عن شعراء اليونان، ولا عجب فكلاهما نابغة قومه وسيد عصره.

«وقال الراجز في البديع المحمود:

قد كنت إذْ حبلُ صباك مُدْمش[1] وإذا أهاضيبُ الشبابِ تبغش[2]

فقد تسامح في المثال السابق بإبدال حرف مكان حرف، وسنراه يتسامح مع الشعراء في استعمال كلمة مكان أخرى ما دامت الصورة جميلة، والفكرة جيدة، والمعنى واضحاً.

«وكل بيضة في الأرض، فإن اسم الذي فيها، والذي يخرج منها فرخ، إلا بيض الدجاج، فإنه يسمى فرُّوجاً، ولا يسمى فرخاً، إلا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخاً على التوسع في الكلام، ويجوِّزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر.

قال الشاعر:

لعمري لأصوات المكاكي بالضحى وسَوْدُ تداعى بالعشي نواعبُه[3]
أحب إلينا من فراخ دجاجةٍ ومن ديك أنباطٍ تنوس غبائبه

وقال الشماخ بن ضرار:

ألا من مبلغ خاقان عني تأمل حين يضربك الشتاء؟
فتجعل في جنابك من صغير ومن شيخ أضرَّ به الغناء
فراخ دجاجة يتبعن ديكاً يَلُذْنَ به إذا حَمِس الوعاء»[4]

وذهب به التسامح مع الشعراء أن غفر لهم الإقواء عندما يعطى المعنى

---

(١) دمج الجبل: أجاد فتله.
وقوله: إذ حبل صباك مدمش: إنما أراد مدمج. فأبدل الشين من الجيم لمكان الروي.
(٢) تبغش: تدفع ما بها من الماء.
وقد كنّى بقوله عن قوة الشباب، ونعمته وريه
(٣) السود: سفح مستوٍ كثير الحجارة السود.
(٤) الحيوان، جـ ١، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

حقه، فهو والحالة هذه يقدم المعنى على الموسيقى الخارجية للشعر أيضاً كما قدمه على اللفظ قبل قليل:

«وقال عبد اللّه بن الحارث، وكتب بعدها إلى عبد الملك بن مروان حين فارق مصعباً.

بـأي بـلاءٍ أم بـأيـة عـلَّةٍ   يـقـدِّمُ قبـلي مُسيلمٌ والمهلبُ
ويدعى ابنُ منجوفٍ أمـامي كأنـه   خصي دنا للماءِ من غيـر مشربِ

فقلت ليونس: أقوى؟ قال: الإقواء أحسن من هذا»[1].

د ـ الدراسة الفنية للقضية:

١ ـ **ما يجب الحذر منه**، يقدم عمرو بن بحر بعض الوصايا القيِّمة للمتأدبين تخص كلًّا من اللفظ والمعنى فيحذرهم من بعض الأخطاء التي تعيب أدبهم، فعليهم البعد عنها والحذر من ارتكابها على الوجه التالي:

٢ ـ ما يجب الحذر منه في اللفظ والمعنى معاً.

٣ ـ يكـره الجاحظ الغـريب من اللفظ والغرائب من المعـاني «. . . والاستعـانة بـالغـريب عجـز، والتشـادق من غيـر أهـل البـادية بُغض. .»[2].

فهو يرى أن لجوء الكاتب للكلمة الغريبة يدل على ضعف حيلته وعجزه عن استعمال الكلمة الأنسب، والأوضح وليس دليلاً على الفصاحة أو غـزارة المعرفة كما يرى بعض المتشبهين بالأعراب من أهل المدن؛ لأن الأعرابي معذور بحكم تربيته ونشأته في البادية، فمـا بال الحضـري؟! «. . . وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب. . . وهو في صناعة

---

(١) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٣٤.
(٢) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٦٤ ـ ٦٥

الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل. . .»[1].

٤ ـ **التكلف**، ويرى أبو عثمان هذه القضية حساسة فيعود للتأكيد من جديد قائلاً: «قال بعض الربانيين من الأدباء، وأهل المعرفة من البلغاء **ممّن يكره التشادق والتعمق، ويبغض الإغراق في القول، والتكلف والاجتلاب. .»[2].**

فالإغراق في القول مكروه؛ لأنه يعد تكلفاً، وقسراً للمعاني، حتى يحس القارىء وكأن المعنى قلقاً والجملة غير مستقرة في مكانها. لذلك يوصي أبو عثمان بالبعد عن هذا العيب. ويعود ليزيد المسألة وضوحاً على الشكل التالي:

«فالقصد من ذلك **تجنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همّك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلّص إلى غرائب المعاني؛ وفي الاقتصار بلاغ وفي التوسط مجانبة للوعورة. .»[3].**

ونظراً لأن الكتاب في عصر عمرو بن بحر كانوا أبعد ما يكونون عن هذا العيب فقد مدحهم واعترف لهم بهذه الصفة الحسنة: «قال أبو عثمان: أما أنا فلم أرَ قطّ أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب؛ **فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً**، ولا ساقطاً سوقياً»[4].

ويذهب الجاحظ إلى وصف مَن يتعلق بالغريب بالسماجة وهل بعد هذا الوصف عُذر للمتأدب إن ارتكب هذه الغلطة الفاحشة بحق الأدب والذوق الأدبي:

«ومتى شاكل ـ أبقاك اللّه ـ ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ٣ ص ٣٦٩.
(٢) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ ـ مكرر.
(٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٦٥

لتلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لفقاً، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قميناً بحسن الموقع...»[1].

فإذا توهم قليلو الذوق أنهم بتكلفهم الغريب من اللفظ أو المعنى يلفتون انتباه القارىء لأدبهم، فهذا ما نفاه الجاحظ وأكد عليه في أكثر من مناسبة.

«... فإن رأيي في هذا الضرب من اللفظ أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها، والعادة فيها أن ألفظ بالشيء العتيد[2] الموجود وأدع التكلف لما عسى ألّا يسلس، ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة...»[3].

وهنا يقتدي أبو عثمان بالنبي محمد ـ ﷺ ـ عندما قال: «إياي والتشادق، وأبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون..»[4] قال ولم أرهم يذمّون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتظرف، والمتكلف للغناء. ولا يكادون يضعون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها قال قيس بن الخطيم[5]:

فما المالُ والأخلاقُ إلا مُعارةٌ   فما استطعت من معروفها فتزود
وإني لأغنى الناس عن متكلف   يرى الناسُ ضلالاً وليس بمهتدِ»[6]

ب ـ ما يجب الحذر منه في اللفظ خاصة:

١ ـ يكره السوقي من الكلام في غير موضعه ومن غير أهله، يقول عمرو بن بحر موضحاً هذه المسألة:

(١) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦ ـ ٧.
(٢) العتيد: الحاضر، المهيأ.
(٣) الحيوان للجاحظ، جـ ٣ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩.
(٤) الترمذي بر ٧١. أحمد بن حنبل ٣: ٢٦٩؛ ٤: ١٩٢، ١٩٤ المعجم المفهرس جـ ١ ص ٣٩٠.
(٥) هو قيس بن الخطيم الأوسي شاعر جاهلي من فحول شعراء المدينة، مات قبيل الهجرة على غير الإسلام.
(٦) البيان، جـ ٣ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٤.

«وكما **لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً** فكذلك ينبغي ألّا يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً؛ فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، **كما يفهم السوقي رطانة السوقي**...»[1].

وقد سمي الكلام السوقي رطانة، وكأنه كلام من لغة أجنبية يتفاهم بها السوقة والعوام، وينبغي للمتأدبين وأهل العلم أن ينأوا بأنفسهم عنها. «**فالقصد من ذلك تجنب السوقي والوحشي**...»[2].

٢ ـ **يكره التعقيد في الألفاظ**، لأنها تتعب القارىء وتحيجه إلى الكد والتعب ومراجعة القواميس، أو إعادة القراءة أكثر من مرة للوصول إلى المعنى المقصود.

«ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه... **وبريئاً من التعقيد حبِّب إلى النفوس**، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول **وهشت إليه الأسماع**، وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره.. **جلبت إليه المعاني، وسلس له نظام اللفظ**، فكان قد أعفى المستمع من كد التكلف، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم»[3].

وهكذا ينصح الجاحظ الكاتب بالسهولة، والبعد عن التعقيد؛ لأن ذلك يجلب له المحبة، ويقربه من الشهرة بين الناس، ويخلد ذكراه، والخلود هو ما يسعى إليه كل أديب حق.

«والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه»[4].

ويضرب مثلاً للبغيض من غريب الكلام:

«ورأيتهم يديرون في كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن

---

(١) البيان والتبيين، جـ ١ ص ١٧٠.
(٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.
(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦ ـ ٧ مكرر.
(٤) المصدر السابق، جـ ١ ص ٦٤ ـ ٦٥ مكرر.

يعمر، فانتهرها مراراً، فقال له يحيى: **أإن سألتك ثمن شكْرِها وشبرك، أنشأت تطُلُّها، وتضهلها**[1]؟!

قال: فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة، فقد باعده اللَّه من صفة البلاغة والفصاحة وإن كانوا إنما دوّنوه في الكتب، وتذاكروه في المجالس لأنه غريب، فأبيات من شعر العجاج، وشعر الطرماح وأشعار هذيل تأتي لهم ـ مع حسن التصرف ـ على أكثر من ذلك.

ولو خاطب بقوله: أإن سألتك ثمن شكّرها، وشبرك أنشأت تطلها، وتضهلها الأصمعي، لظننت أنه سيجهل بعض ذلك. **وهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من آدابهم**»[2].

٣ ـ **يكره الفضول والإسهاب**: والسبب أن هذا الفضول غالباً ما ينشأ عن التكرار، والتأكيد على المعنى أكثر من مرة، وهذا بمثابة اتهام لعقل القارىء، أو السامع، ولا يجيز الذوق السليم مثل هذا التصرف.

«والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب»[3].

وفي موضع آخر يقول الجاحظ: «ومتى كان اللفظ كريماً في نفسه، متخيراً في جنسه، **وكان سليماً من الفضول**، وبريئاً من التعقيد، حبب إلى النفوس»[4].

د ـ يكره تكلف الألفاظ العويصة المستنكرة:

والسبب يوضحه أبو عثمان على الوجه التالي:

«حتى يكون الكتاب عربياً أعرابياً، سنياً جماعياً، وحتى يجتنب فيه:

---

(١) وقال: قال: الشكْر: الفرج والشبر: البضع. وتطلها: تذهب بحقها يقال: دم مطلول. وتضهلها: الضهل: التقليل. قال: يعني أنه حاول إبطال حقها، أو إضعافه وتقليله.
(٢) البيان والتبيين، جـ ١ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٦٤ ـ ٦٥.
(٤) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٦ ـ ٧.

العويص، والطرق المتوعرة. والألفاظ المستنكرة وتلزيق المتكلفين، وتلفيق أصحاب الأهواء من المتكلمين»[1]. وفي موضع آخر يقول: «ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سمج، وحيثما وقع فهو مذموم. وهو في الظرف أسمج، وفي البلاغة أقبح»[2].

والسبب هنا واضح؛ فمن ارتكب جريمة التقعر، والتشادق عن جهل، أو طبيعة بدوية قاسية، فهذا معذور لدى أبي عثمان، ولكن اللوم كله يقع على من يضع نفسه في غير موضعها ويتكلف البلاغة وليس من أهلها، ويلوم أيضاً البليغ الذي يتكلف أساليب البداوة، وهو حضري؛ لأنه عالم بكراهية هذا الأسلوب لدى متذوقي الأدب الصافي السلس، فهو في هذه الحال يرتكب جريمة عن سابق عمد وإصرار ـ كما في القانون ـ ولذا كان تقريعه واجباً عند عمرو بن بحر.

«ثم اعلم ـ أبقاك الله ـ أن صاحب التشديق[3] والتقعير[4]، والتعقيب[5] من الخطباء، والبلغاء مع سماجة التكلف، وشنعة التزيد، أعذر من عيي يتكلف الخطابة، ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدرجة، ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف وبياناً يمازجه التزيد.

إلا أن تعاطي الحقير المنقوص مقام الدرب التام أقبح من تعاطي البليغ الخطيب، ومن تشادق الأعرابي القح، وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ. . .

وإن كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد قال: «إياي والتشادق»[6] وقال: «أبغضكم

(١) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ في النساء، ص ١٥٣ ـ ١٥٦.
(٢) المصدر السابق في المعلمين، ص ٢٨ ـ ٣١.
(٣) التشديق: تكلف البلاغة.
(٤) التقعير: تكلف الكلام بأقصى قعر حلقه، على مذهب الأعراب.
(٥) التعقيب: أن يخرج الكلام من فمه كالعقب.
٦) مر قبل صفحتين. المعجم المفهرس جـ ١ ص ٣٩٠.

إلى الثرثارون المتفيهقـون» وقال: «من بـدا[١] جفا» وعـاب الفدادين[٢] والمتزيدين في جهارة الصوت، وانتحال سعة الأشداق، ورحب الغلاصم، وهول الشفاه، وأعلمنا أن ذلك في أهل الوبر أكثر، وفي أهل المدر أقل - فإذا عاب المدري بأكثر مما عاب الوبري، فما ظنك بالمولد القروي، والمتكلف البلدي؟ فالحصرُ المتكلفُ، والعيُ المتزيدُ، ألـومُ من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده، وهو أعذر؛ لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى.

فمن أسوأ حالاً - أبقاك الله - ممّن يكون ألوم من المتشدقين، ومن الثرثارين المتفيهقين، وممّن ذكره النبي - ﷺ - نصاً وجعل النهي عن مذهبه مفسراً، وذكر مقته له وبغضه إياه؟!»[٣].

وبما أن الرسول - ﷺ - قدوة للمسلمين في أمور دينهم ودنياهم، وسنته منار لهم في حياتهم، كان لا بدّ للمسلم أن يذمّ التكلف والتصنع والتزيد كما ذمه رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

«فمن الخصـال التي زمّهم بهـا: تكلف الصنعـة، والخـروج إلى المباهاة، والتشاغل عن كثير من الطاعة، ومناسبة أصحاب التشديق، ومن كان كذلك كان أشد افتقاراً إلى السامع من السامع إليه؛ لشغفه أن يذكر في البلغاء، وصبابته باللحاق بالشعراء، ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة، والمغالبة، وولّد ذلك في قلبه شدة الحمية وحب المجاذبة. ومن سخف هذا السخف، وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة، كانت حاله داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصرف الرغبة إلى الناس، والإفراط في مديح مَن أعطاه، وذمّ مَن منعه فنزه الله رسوله، ولم يعلمه الكتاب والحساب، ولم يرغبه في صنعة الكلام، والتعبد لطلب الألفاظ، والتكلف لاستخراج المعاني...»[٤].

---

(١) «من بدا جفا ومن تبع الصيد غفل» مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٧١، ٤٤٠، ٤: ٢٩٧ المعجم المفهرس جـ ١ ص ١٥٥.

(٢) الفدادون: أصحاب الأصوات العالية المزعجة.

(٣) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٣٠ - ٣١.

(٤) المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٢ - ٣٥٦.

جـ ـ ما يجب الحذر منه في المعنى خاصة:

١ ـ يرى أبو عثمان أن الكلمة الأدبية أمانة في عنق الأديب، فعليه المحافظة على شرف الكلمة، والنصح للمسلمين، والبعد عن الغش والتدليس «فمن غشنا فليس منا»[١] صدق رسول اللّٰه ﷺ، وما دام الأمر كذلك فليكن الأدب في خدمة الأخلاق العامة، ولمصلحة المجتمع، وإلا فإن مَن يخن رسالة القلم يعدّه الجاحظ وغداً ساقطاً.

«وأنا أعوذ باللّٰه من تذكر يناسب الاقتضاء... **ومن حرص يعود إلى الحرمان، ومن رسالة ظاهرها زهد، وباطنها رغبة. فإن أسقط الكلام، وأوغده، وأبعده عن السعادة، وأنكده ما أظهر النزاهة، وأضمر الحرص،** وتجلى للعيون بعين القناعة، واستشنع ذلّة الافتقار...»[١].

للّٰه درّك يا أبا عثمان أي كلام أبلغ في هذا الموضوع من كلامك على شرف الكلمة، وإنذارك لمن لا يحفظ الأمانة بفقدان السعادة؛ إذ ماذا تستفيد لو ربحت الدنيا وخسرت نفسك؟!

إن المال وحبّ الدنيا هو اللذان يدفعان بالرجال إلى خيانة ضميرهم، وبيع أقلامهم وقديماً قيل: أذل الحرص أعناق الرجال، لهؤلاء قديماً قيل: أذل الحرص أعناق الرجال، لهؤلاء يقول عمرو بن بحر: سوف تخسرون السعادة، وراحة الضمير مقابل ما تحصّلون من مالٍ ثم لا تنسوا وصمكم بالسقوط من قبل الناس، وهذا كلام يغني عن كل هذر نقرأه عن الأدب الملتزم أو الأدب الهادف، لقد اتسخت كلمة ملتزم في أيامنا هذه فارتبطت بالمقاولين من السياسيين والمهندسين وتجار الشعارات والبضائع المستعملة التي تردِنا على شكل رزم صفراء وسوداء على متن البواخر والطائرات،

---

(١) «من غشنا فليس منا، ليس منا من غشّ». المعجم المفهرس جـ ٤ ص ٥١٥.

(٢) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد، من رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودّة والخلطة، ص ٢٠١.

يتحسن علينا بها السادة في نصف الكرة الشمالي والغربي فنطير بها فرحاً وننسى مَن نحن، وأين من فرط النشوة.

٢ ـ **الغرور والغباء من الكاتب وادّعاء ما ليس له**، وقد يبتلى المجتمع ببعض البلهاء المغرورين الذين تفرضهم الظروف وتضعهم الأيام في دفّة القيادة الفكرية والأدبية وهم أبعد الناس عنها فيكتبون كلاماً يظنون أنه خفي بدافع الفلسفة، أو ادّعاء الحكمة مثلاً، أو يكلفون مَن يترجم لهم «بروتوكولات حكماء صهيون» ثم يكتبون بوحي منها كتابات يرون أنها بعيدة الغور، وهي قريبة من فهم البسطاء من الناس، هؤلاء الناس يرميهم الجاحظ بالفحش والشناعة والقباحة: «**وأشنع من ذلك، وأقبح منه، وأفحش أن يظن صاحبه أن معناه خفي، وهو ظاهر. وتأويله بعيد الغور، وهو قريب القعر**»[(١)].

رحماك يا أبا عثمان ما عساك تقول لو ابتليت ببعض ما ابتلينا به هذه الأيام من شناعة متفرنجين يريدون إيهامنا بسعة اطّلاعهم على اللغات الأجنبية فيحشرون الكلمات الأجنبية قسراً في كلماتهم وأساليبهم، ثم يقرأون بعض أساطير اليونان، والعجم ويتقيأون بعضاً منها في «خربيشاتهم»، والأنكى من ذلك والأمرّ أنهم يتصدرون قيادة الذوق الأدبي ويتبادلون المديح على صفحات صحفهم السوداء.

بل لقد وصلت الجرأة ببعضهم أن يدوِّن ما يهذي به في أحلامه أو عندما يصاب بالحمى أو عندما يأخذ قدراً غير معقول من المكيفات ويطلع علينا بالقصائد العصماء التي لا يمكن أن تكون مفهومة حتى لا ترمى بالتقليدية والرجعية الأدبية وكأن موضة الثياب القصيرة انتقلت إلى الأدب فصار قلّة أدب.

٣ ـ **يجب الحرص على الوضوح والتنويع**: «وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يُحمل أصحابها على الجدّ الصرف، وعلى العقل

---

(١) المصدر السابق مكرر.

المحض وعلى الحق المر، **وعلى المعاني الصعبة التي تكد النفوس وتستفرغ المجهود، وللصبر غاية، وللاحتمال نهاية.**

ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل، على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف، كما أنه إذا كثر جدّه ثقل، ولا بدّ للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارىء وينفي النعاس عن المستمع»[1].

وحرص الجاحظ على وضوح المعنى نابع من حرصه الشديد على إيصال المعنى للقارىء والسامع من أقرب الطرق:

«ثم خذ بتعريف حجج الكتّاب، **وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض...**

وحذّره التكلف، واستكراه العبارة؛ **فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع، ولا يحوج إلى التأويل والتعقيب،... فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المنعقد مفرقاً في الإكثار والتكلف. فما أكثر مَن لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع. بعد أن يتبين له القول وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة. فالمعنى بعد مقيم على استخفائه، وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً»**[2]. هل بعد هذا التوضيح لأهمية إيصال المعنى من أوضح الطرق وأسهلها من مزيد، إن الكلام عندما يفقد صفة الوضوح يغدو بحق لغواً، وظرفاً خالياً كما أنذر الجاحظ.

٤ ـ يحذر من تحضير اللفظ قبل التفكير بالمعنى: كما يفعل بعض صغار المتأدبين؛ لأن مثل هذا العمل يقلب التجربة الأدبية ويعطي نتائج عكسية، تدل على رداءة الطبع:

«وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيىء المعنى عشقاً لذل

---

(١) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ في النساء، ص ١٥٣ ـ ١٥٦.

(٢) رسائل الحاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ في المعلمين، ص ٣٨ ـ ٣١.

اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجرّ إليه المعنى جرّاً ويلزّقه به إلزاقاً حتى كأن اللّه ـ تعالى ـ لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره، ومنعه من الإفصاح عنه إلا به.

والآفة الكبرى أن يكون رديء الطبع، بطيء اللفظ، كليل الحد شديد العجب، ويكون مع ذلك حريصاً على أن يعدّ في البلغاء شديد الكلف بانتحال اسم الأدب؛ **فإذا كان كذلك خفي عليه فرّق ما بين إجابة الألفاظ، واستكراهه لها. . . والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بأعيانها، من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل، ثم يريد أن يعدّ لتلك الألفاظ قسمها من المعاني.**

فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً، وخائفاً سروقاً، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه، متكلفاً لمعانيه، مضطرب التأليف، منقطع النظام.

فإذا مرّ كلامه بنقاد الألفاظ، وجهابذة المعاني استخفوا عقله، وبهرجوا علمه»(١).

هل بعد نعت المتكلف للمعاني المستكره للألفاظ من صفات البخل والسرقة، وقلّة العقل؟!

٥ ـ يحذرنا الجاحظ من تقليد أساليب العلماء في غير وقتها المناسب: لأن التقليد في هذه الحالة ينتج أثراً مضحكاً، فلا بدّ من الانتظار حتى تختمر الفكرة في عقلنا وتطعُّمه كما يُطعَّم النبات، وهي عملية تحتاج إلى الوقت الكافي لنمو االبرعم الجديد في مكانه الجديد على النبات الذي طُعِّم به:

«ومن قرأ كتب البلغاء، وتصفح دواوين الحكماء؛ ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب.

ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ، فهو على سبيل الخطأ.

والخسران هاهنا في وزن الربح هناك؛ لأن مَن كانت غايته انتزاع

(١) المصدر السابق مكرر.

الألفاظ، حمله الحرص عليها، والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، ويضعها في غير مكانها... وإنما هي رياضة، وسياسة، والرفيق مصلح، والآخر مفسد ولا بدّ من هذين: **طبيعة مناسبة، وسماع الألفاظ** ضار ونافع:

فالوجه النافع: أن يدور في مسامعه، ويغيب في قلبه، ويخيم في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت، ثم تلاقحت وكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أطيب ثمرة؛ لأنها حينئذٍ تخرج غير مستقرة، ولا مختلسة، ولا مغتصبة، ولا دالّة على فقر، إذا لم يكن القصد إلى شيء بعينه، والاعتماد عليه دون غيره. وبين الشيء إذا عشش في الصدر، ثم باض، ثم فرخ، ثم نهض، وبين أن يكون الخاطر مختاراً، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً فرق. ومتى اتّكل صاحب البلاغة على الهويني والوكال، وعلى السرقة والاحتيال، لم يَنَلْ طائلاً، وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان، واستهلكه سوء العادة.

والوجه الضار: أن يحفظ ألفاظاً يعينها من كتاب بعينه...»[1].

وهكذا نرى الجاحظ ينصح لنا أن نطّلع على كتب الأدباء والعلماء ولكن ونحن نضع نصب أعيننا الانتفاع بأفكارهم أولاً وقبل التفكير باصطياد ألفاظهم؛ لأن ذلك يؤدي بنا إلى التهلكة في متاهات السرقة، والتقليد، والضعف والاستكراه.

ونصيحته لنا في هذا الباب أن نتأكد أولاً من وجود طبيعة لدينا تجعلنا نميل للأدب وأهله وتيسر لنا سبيل الانتفاع بما نقرأه من كتب النوابغ. ولكن هذا الانتفاع يتطلب شروطاً مواتية أهمها الطبيعة المناسبة والصبر على المتابعة، وانتظار الوقت الذي لا بدّ حتى يستحصد الزرع. هكذا نستفيد من حفظ ألفاظ العلماء.

أما الوجه الضار فقد علمنا أنه سرقة وقلّة عقل وادّعاء...

---

(١) المصدر السابق مكرر، وقد مرّت بقية العبارة في الصفحة السابقة.

د ـ ما يجب الحرص عليه في اللفظ والمعنى معاً:

وهي مجمل وصايا لو اتبعناها كما أمرنا الجاحظ بحق لارتقينا بذوقنا الأدبي، وبالتالي لكان من الممكن رعاية ذوي المواهب منّا، وفتح الطريق أمامهم للإبداع الفني والآن ما هي هذه الوصايا:

١ ـ يوصي بحسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام؛ لأنها تجعل المعنى يسبق إلى القلب: «أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام؛ فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ومنحه المتكلم دلاً متعشقاً، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملك..»[١].

وفي موضع آخر يزيد أبو عثمان المسألة وضوحاً فيقول: «... ورأيت عامتهم ـ فقد طالت مشاهدتي لهم[٢] ـ لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، **والمعاني المتنخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة... وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمّرتها، وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلّت الأقدام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حِسان المعاني ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام من رواة الكتاب أعمّ وعلى ألسنة حذّاق الشعر أظهر»**[٣].

وهذا الموقف من الكتاب وحذّاق الشعراء متوقع فهم يتعايشون مع اللفظ والمعنى من خلال تجاربهم في الكتابة والنظم لذا سبقوا رواة الأخبار.

٢ ـ يوصي باستعمال الألفاظ العذبة؛ لأنها نجعل المعنى حلواً بقدر ما نقدم له من زخرفة في لفظه، «والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وأُلبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر مازُيِّنت، وحسب ما زخرفت **فقد صارت الألفاظ في معاني**

(١) البيان والتبيين، جـ١، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.
(٢) الضمير يعود على رواة الأخبار
(٣) البيان والتبيين، جـ٣ ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠.

المعارض[1]، وصارت المعاني في معنى الجواري.

والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي.

فاذكر هذا الباب، ولا تنسه، وتأمله، ولا تفرط فيه، فإن عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ لم يقل للأحنف ـ بعد أن احتبسه حولاً مُجَرَّماً[2]. ـ يستكثر منه وليبالغ في تصفّح حاله، والتنقير عن شأنه ـ إن رسول اللّه ـ ﷺ ـ قد كان خوّفنا كل منافق عليم، وقد خفت أن تكون منهم ـ إلا لما راعه من حسن منطقه. ومال إليه؛ لما رأى من رفقه، وقلّة تكلفه!؟

ولذلك قال رسول اللّه ﷺ: «إن من البيان لسحراً»[3] أي تصوير أبلغ من هذه الصورة لقضية اللفظ والمعنى فإذا كانت الثياب الجميلة تزيد من جمال الحسناء وتبرز من محاسنها بأضعاف أضعاف جمالها الحقيقي، فإن الألفاظ العذبة تزيد من السيطرة على قلب القارىء والسامع وتجعل لبّه وقلبه ملك كاتب ساحرٍ، ولذلك كان الحق مع عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ عندما تخوّف من بلاغة الأحنف وأوقفه لديه. وصدق رسول اللّه ـ ﷺ ـ عندما شبّه حسن البيان بالسحر، بل هو السحر الحلال، كما قال عمر بن عبد العزيز لرجل طلب منه حاجة في منطق حسن[3].

٣ ـ لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ؛ فالمهم إصابة عين المعنى. ولهذا يوصي عمرو بن بحر المتأدبين الحرص على أن يشاكل الكلام معناه الذي وضع له؛ ولكل نوع من المعاني ضرب من الأسماء، فاللفظ السخيف للمعنى السخيف واللفظ الجزل للمعنى الجزل:

«ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني ضرب من الأسماء...»[4].

(١) المعارض: الملابس الحسنة تعرض فيها الجواري الحسان.

(٢) احتبسه: ألزمه عدم مفارقة مجلسه حولاً مُجرَّماً: عاماً كاملاً.

(٣) البيان والتبيين، جـ ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ مكرر «إن من البيان سحراً» المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف جـ ١ ص ٢٥٩.

(٤) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٣٩.

وفي موضع آخر نقرأ لأبي عثمان قوله: «ألا إني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني، كما أن النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارّة جداً.

وإنما الكرب الذي يخيم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس: النادرة الفاترة، التي لا هي حارة ولا هي باردة.

وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط. وإنما الشأن في الحار جداً، والبارد جداً»(١).

«وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع هزلاً أو جدّاً، وحزم، أو إضاعة، ضرب من اللفظ هو حقه، وحظه، ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه»(٢).

٤ ـ يوصي بإظهار ما في الضمائر بأسهل القول، والتعبير عن المعنى باللفظ القريب السهل المأنوس؛ لأن مدار الأمر على فهم المعاني.

يقول عمرو بن بحر: «والنقد في الكتابة، والإشراف على الصناعة والكتاب.

وهي القطب الذي عليه مدار علم ما في العالم وآداب الملوك تلخيص الألفاظ، والغوص على المعاني السديدة، **والتخلص إلى إظهار ما في الضمائر بأسهل القول...**»(٣).

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، جـ ١، ص ١٧٠ ـ ١٧٢.

(٢) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ في المعلمين، ص ٢٨ ـ ٣١.

(٣) رسائل الجاحظ ـ على هامش الكامل للمبرد ـ رسالة أبي الفرج الكاتب في المودّة والخلطة، ص ٢٠١.

٥ ـ ليكن الكلام بين المقصر والغالي؛ لأن الاعتدال مطلوب على كل حال، وهنا يستعين أبو عثمان بالشعراء فهم أهل الصنعة وهم ـ والحذاق منهم خاصة ـ أدرى بسر صناعتهم:

«وقد قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

وقال آخر:

لا تذهبنْ في الأمور فَرَطا لا تسألَنْ إن سألت شططا
وكن من الناس جميعاً وسطاً

وليكن كلامك بين المقصر والغالي؛ فإنك تسلم من الهجنة عند العلماء ومن فتنة الشيطان... وقال عبد اللّٰه بن مسعود[1] في خطبته:

وخير الأمور أواسطها، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها...»[2].

وقد يكون خوفه من مبالغة الأدباء في العناية بالزخارف اللفظية بعدما ساقه قبل قليل دفع به إلى التنبيه على الأمر يجب أن يبقى في حدود الاعتدال على كل حال.

٦ ـ يوصي الجاحظ بقلة الألفاظ وتلخيص المعاني وعمقها، «وقد علمنا أن مَن **يقرض الشعر**، ويتكلف الأسجاع، ويؤلف المزدوج، **ويتقدم في**

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد اللّٰه بن مسعود الهذلي الصحابي، شهد مع رسول اللّٰه بدراً، وبيعة الرضوان، وجميع المشاهد، وكان على قضاء الكوفة، وبيت مالها لعمر بن الخطاب، وصدراً من خلافة عثمان، ثم صار إلى المدينة، وأقام بها، وكان نحيفاً قصيراً، يكاد الجلوس يوازنه من قصره، وكان مع هذا شديد الأدمة مات بالمدينة، ودفن بالبقيع سنة ٣١ هـ ٦٥٢ م عن بضع وستين سنة.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، جـ ١، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

تحبير المنثور وقد تعمق المعاني، وتكلف إقامة الوزن، والذي تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس سهواً رهواً، مع قلة لفظ وعدد هجائه أحمد أمراً وأحسن موقعاً من القلوب، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج»[1].

٧ ـ يجب مخاطبة الناس على حسب عقولهم؛ لأن الناس طبقات وكذلك كلامهم، ولكل صناعة ألفاظ أليق بها «وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمتُ خائضاً في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام؛ فإن ذلك أفهم لهم عني وأخف لمؤونتهم عليّ، ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها؛ فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكَلاً بينها وبين تلك الصناعة. . .

وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل»[2].

وقد عاد لشرح هذه الفكرة وتوضيحها لأهميتها:

«وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك مُلْهٍ، وداخل في باب المزاح والطيب[3]، فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن وجهته، وإن كان لفظه سخيفاً، وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسرَّ النفوس يكربها، ويأخذ بأكظامها. . »[4].

وقد ربط الجاحظ فكرة الطبقية في المجتمع بالطبقية في الأدب، والحق أنها فكرة صحيحة ودقيقة، فكل طبقة من الناس تستعمل عدداً من المفردات أكثر مما يستعمل لدى طبقة أخرى، بل إن الذخيرة اللغوية للإنسان

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، جـ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.
(٢) الحيوان للجاحظ، جـ٣ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩.
الطيب: بمعنى الهزل والفكاهة.
(٤) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٣٩.

تتسع عادة وتزداد كلما ارتقت معارفه: «وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام: الجزل، والسخيف، والمليح والحسن والقبيح والسمج، والخفيف، والثقيل، وكله عربي، وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا»(١).

٨ ـ يجب تخيّر اللفظ المناسب في جنسه والحرص على أن تكون الديباجة كريمة، جيدة السبك، ونظام اللفظ سلساً حتى تتناسب المعاني الشريفة لتعمر الصدور بحسنها.

«وهم يمدحون الحذق والرفق، والتخلّص إلى حبات القلوب وإلى إصابة عيون المعاني، ويقولون: أصاب الهدف إذا أصاب الحق في الجملة. ويقولون قرطس فلان، وأصاب القرطاس إذا كان أجود إصابة من الأول.

فإن قالوا: رمى فأصاب الغُرة، وأصاب عين القرطاس **فهو الذي ليس فوقه أحد**..»(٢).

والواقع أن مَن يراعي وصايا أبي عثمان بحذق ورفق يستطيع الوصول إلى حبات القلوب، ويتملك عيون المعاني.

وأخيراً ألم يصف الجاحظ حذّاق الشعراء بأنهم بصيرون بجوهر الشعر شأن الكتاب عندما يراعون: «لا يقفون إلا على **الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة** وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، **والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق**...».

وهذا خير تلخيص لسر صناعة الأدب على لسان الجاحظ.

---

(١) البيان والتبيين، جـ ١ ص ١٧٠ ـ ١٧٢.

(٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٧٤.

الفصل الثاني

خاص بالشعر

أ - القران أو الموسيقى الداخلية
ب - الشعر والغناء أو العروض والموسيقى الخارجية
جـ - البديع أو الصورة الشعرية - الخيال

أ ـ القــران :

وهذا البحث وثيق الصلة بالموسيقى الداخلية في القصيدة الشعرية، وهو ما يميز مدى حساسية الشاعر ورهافة حسّه عندما يستشعر الفروق الخفيّة بين الحروف ضمن الكلمة الواحدة، أو مدى التناغم بين الكلمات ضمن الجملة أو العبارة الشعرية.

وهذا الباب يمكن وصفه بأنه صعب التحديد تماماً لأن تعريفه يتعلق بطبيعة كلٍّ منّا ومدى سلامة ذوقه الموسيقي وحساسية أُذنه عند التقاط النغمات والتفريق بين نظام توزيع حروف العلّة والحركات أو عند خلق المعادلة المطلوبة بين حروف الشدة «قطب جيد» مع حروف الذلاقة والفصاحة «يرملون» مع غيرها من الحروف، وهذه تعني سر الصنعة عند الشاعر والأديب، ولكن الناقد الحسّاس يلاحظها ويلتقطها ويتأثر بها، ويحاول التعرّف إلى عناصر المعادلة الصعبة وكيف تتفاعل هذه العناصر مع بعضها ضمن العبارة لتنتج مركبات جديدة كلياً تختلف تماماً عن العناصر الداخلة في التفاعل تماماً مثل معادلات الكيمياء عندما تتفاعل المعادن مع الأحماض فنحصل على الأملاح وينطلق غاز الهيدروجين، المسألة هنا في الموسيقى الداخلية ضمن الكلمة بين الحروف أو بين الكلمات ضمن بيت الشعر تشبه معادلة الكيمياء إلى حد كبير، وأما هذه النسب المطلوبة فلا يعرفها إلا مَن مارس التجربة الشعرية وعانى مسألة البحث عن اللفظ المعبّر والمتناغم مع

جاره، وهي لعمري تشبه صنعة العطار الماهر الذي يمزج بعض الروائح مع بعضها ليحصل على رائحة جديدة مركبة تعجب المرء وتسحر اللب.

لقد حاول أبو عثمان هنا قدر استطاعته أن يضع أيدينا على المفتاح الذي يسهل لنا مهمة البحث بأنفسنا للتعرّف على سر صنعة الموسيقى الداخلية ضمن العبارة الأدبية فقدم لنا بعض الأمثلة لنقيس عليها، ولنحاول التعرّف على بقية العناصر الداخلة في تركيب النغم الخفي ضمن القصيدة الشعرية؛ لأن ما يسمى بالموسيقى الخارجية للقصيدة أمرها سهل متيسر فالبحور معروفة مدروسة، وعروضها وضربها يسهل التعرّف عليها، ومن السهل أن نطالع بحثاً في القافية أو علم العروض لنأخذ ما نحتاج إلى معرفته في هذا الباب[1].

ولكن أمر الموسيقى الداخلية مختلف إنه يشبه إلى حدٍّ بعيد الإلهام والوحي ولا يتأتى للمرء إلا إذا وهبه اللّه أُذناً حسّاسة وذوقاً رهيفاً وهيهات أن تنفع القراءة، أو التدريب إذا فقد الذوق الموسيقي الأصيل لدى المتأدب والآن ما هو هذا القران؟

«قال الشاعر:

مهاربةٌ[2] مناجبةٌ[3] قِرانٌ[4]   منادبة[5] كأنهم أسود»[6]

وعلى هذا يكون أصل التسمية لهذا الفن قد جاء من المعنى اللغوي للكلمة فكلمة القران تعني السادة المتماثلين بين الناس.

يكون القران في الشعر يعني الشعر الجيد المتماثل الأجزاء فتتماثل

(١) سيرد بعد قليل تفصيل الكلام حولها عند الكلام على علاقة الشعر بالغناء.
(٢) مهاربة: مسرعون.
(٣) مناجبة: أبناؤهم نجباء.
(٤) قرآن: سادة متماثلون.
(٥) منادبة: مجيبون لدعوة المستجير لهم.
(٦) انظر بالتفصيل البيان، جـ ١، ص ٨٩ ـ ٩١.

الحروف ضمن الكلمة، فالكلمة ضمن الجملة، ثم الجملة ضمن العبارة، «وأنشد خلف الأحمر في هذا المعنى:

وبعضُ قريضِ القومِ أولادُ علةٍ[1] يكــدُ لســانَ النــاطقِ الـمتـحفظِ

وأنشد في ذلك أبو البيداء الرياحي:

وبشعْــرٍ كبعــرِ الكبش فــرَّق بينـه لســانُ دعيٍ في القريضِ دخيـلُ

أما قول خلف «وبعض قريض القوم أولاد علة» فإنه يقول: إذا كان الشعر مستكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلّات وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مُرْضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاده مؤونة...

وأما قوله: «كبعر الكبش» فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف، ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر. تراها متفقة ملساء، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده.

والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية»[2].

وبهذا يمكن تقسيم الشعر إلى قسمين يراهما عمرو بن بحر على الوجه التالي:

أ ـ الشعر المستكره:

ويمكن أن نتعرف عليه بالصفات الآتية:

١ ـ ألفاظ البيت من الشعر لا تتماثل فيما بينها ضمن العبارة الشعرية.

٢ ـ تتنافر كلمات البيت من الشعر؛ لأنها ليست في موقعها إلى جنب أختها، ولا تتفق معها ولا تتراضى.

---

(١) أولاد العلات: هم الذين من أمهات شتى، وأب واحدٍ.

(٢) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٨٧ ـ ٨٩.

٣ ـ تتعب المنشد والقارىء وتكدّ لسانه، وبهذا تبعده عن حفظ الشعر، والاهتمام به.

٤ ـ ولذا ينعدم الائتلاف بين الألفاظ المتجاورة ضمن البيت فتبدوا متباينة متنافرة مستكرهة.

ب ـ الشعر المتناغم الذي له قران:

ويمكن أن نتعرف عليه بالمزايا التالية:

١ ـ نرى حروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر متفقة ملساء.

٢ ـ نراها لينة المعاطف سهلة، ورطبة مواتية. أي أننا نحس بالانسجام الموسيقي يسري إلى قلوبنا عندما نقرأ شعراً متناغماً، وينقلنا الشاعر عبر قصيدته في موسيقى تصويرية رائعة تحملنا على بساط شفاف لنستكشف رؤياه الشعرية ونتلمس نعومة صوره، وشفافية أخيلته، وهكذا تلعب الموسيقى الداخلية دورها في إيصال التجربة الشعرية وتكون أداة اتصال روحي بين الشاعر والقارىء وستقرأ لأبي عثمان بعد قليل المزيد من التفاصيل حول شروط القران الشعري في الحرف فالكلمة ثم العبارة.

ويبدو أن هذا المصطلح كان معروفاً في البيئة الأدبية لدى علماء اللغة قبل الجاحظ، وإنما فضل الجاحظ هنا أنه اعترف لهم بفضلهم وأذاع التسمية ودافع عن هذا المصطلح وحاول إشاعته بين المتأدبين؛ لأهميته في بناء القصيدة الشعرية العربية، ولكن لأمر ما لم يشَعْ استعمال هذا المصطلح بين النقاد والبلغاء واتجه النقد نحو المسائل الشكلية المتصلة بالمنطق أو الزخرفة التي تقوم مقام الطلاء الخارجي، دون محاولة التعرّف إلى سر الصنعة، والكشف عن جوهر مسألة الانسجام والتماثل ضمن العبارة الأدبية وما ذلك إلا لأن معظم الذين كتبوا في النقد والبلاغة كان ينقصهم الذوق الأصيل، والموهبة الفطرية التي تيسر للمرء تذوق النغم والتعرّف على جوهره.

وهكذا انصبّت الجهود إلى علم البديع بتعريفاته وتشعيباته التي لا تُغني

شيئاً، ولا تسمن من جوع، وصارت المباراة بين النقاد والبلاغيين حول زيادة الفروع والإكثار من التعريفات التي تسبّب الصداع وتجعل المتأدب يكره البلاغة وأصحابها، ويراها كابوساً مرعباً، وغدت غولاً يخيف الشعراء فانصرفوا عنها. والدليل أن هذا المصطلح منذ زمن ابن الأعرابي حيث نقل عنه عمرو بن بحر:

«وأنشد ابن الأعرابي:

وبات يدرس شعراً لا قران له   قد كان ثقفه حولاً فما زادا»[1]

والآن كيف عرف الجاحظ القران، وكيف حاول شرح سر الصنعة في الموسيقى الداخلية للقصيدة الغنائية في شعرنا العربي:

«قال: وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أُفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً. فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان... وكذلك حروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساء، ولينة المعاطف، سهلة لينة ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد»[2] وهكذا نجد أن مصطلح القران يعني توفر الصفات الآتية:

أ ـ يجب أن تكون **حروف الكلمة منسجمة** متناغمة، حتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد.

ب ـ ١ ـ الكلمات ضمن الجملة يجب أن تكون متلاحمة الأجزاء سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة؛ لأنها متفقة ملساء.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

٢ ـ يجب أن تكون الكلمات سهلة المخارج، لينة المعاطف ورطبة مواتية.

ج ـ فيما يخصّ العبارة يجب أن تكون مسبوكة سبكاً واحداً، وتجري على اللسان كما يجري الدهان، فتعلم بذلك أنها أفرغت إفراغاً واحداً. وقد رأى أبو عثمان أن المثال يمكن أن يساعد على توضيح الشروط التي وضعها لكلٍّ من الحرف، والكلمة، والجملة فالعبارة ضمن القصيدة أو القطعة الأدبية فتابع بالأمثلة التالية:

«فقيل لهم: فأنشدونا بعض ما لا تتنافر أجزاؤه، ولا تتباين ألفاظه؟ فقالوا:

قال الثقفي(١):

مَن كـان ذا عضدٍ يُـدْرك ظُلامتَـه ... إن الذليل الذي ليست له عضدُ(٢)

تنبــو يـداه إذا مـا قـلَّ نـاصـرُه ... ويأنف الضيم إن أثرى له عدد(٣)

وأنشدوا لأبي حيّة النميري:

رمتني وستـر اللّه بيـني وبيـنهـا ... عـشيـة آرام الـكنـاس رمـيـمُ(٤)

رميم التي قـالت لجـارات بيتهـا ... ضمنت لكم أن لا يـزال يهيم(٥)

ألا ربّ يــومٍ لـو رمتني رميتهـا ... ولكن عهـدي بـالنضـال قـديمُ(٦)

وأنشــدوا:

---

(١) هذان البيتان تكررا في الجزء الثالث من البيان، وفي كتاب الشعراء على أنهما للأجرد الثقفي.

(٢) عضد: قوة.

(٣) يأنف الضيم: لا يقبل الذل والظلم. أثرى: كثر.

(٤) الآرام: الظباء. الكُناس: مأوى الآرام في الشجر. رميم: اسم امرأة. ورمته: أي لحظته بطرفها.

(٥) يهيم. يتولّه، ويتدلّه بحبها.

(٦) يقول: لو كنت لا أزال في شبابي لرميتها كما رمتني، ولكني صرت شيخاً لا أقوى على معادلتها الترامي بسهام الغرام.

ولستَ بـدُمَّيـجـةٍ فـي الـفـرا ش وجَّـابـةٍ يحتمي أن يُجيبـا[1]
ولا ذي قـلاذم عنـد الحيـاض إذا ما الشَّريبُ أراب الشريبا[2]

وقال أبو نوفل بن سالم، لرؤبة بن العجاج: يا أبا الجحاف مت متى شئت؟! قال: وكيف ذلك؟ قال: رأيت عقبة بن رؤبة ينشد رجزاً أعجبني.

قال: **إنه يقول لو كان لقوله قران**»[3].

وبعد هذه الأمثلة أحب الجاحظ أن يأخذ بأيدينا ويدلنا على الطريق، ويحدد لنا بعض المعالم فقال:

«فهذا في اقتران الألفاظ. فأما في اقتران الحروف، **فإن الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف، ولا الطاء، ولا العين** بتقديم ولا بتأخير.

والزاي لا تقارن الظاء، ولا الضاد، ولا الذال بتقديم ولا بتأخير وهذا باب كبير، وقد يكتفى بذكر القليل، حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري»[1].

وهكذا وضع الجاحظ بين أنظارنا المثال وهو حرف الجيم من حروف الشدة التي تتنافر تماماً مع معظم الحروف الحلقية وكذلك تتنافر مع الظاء، ومع حرف الطاء. في كل الحالات لأنها تتعب القارىء وتحطم نغم العبارة الشعرية. وكذلك الحال مع حرف الزاي، فلا بدّ من الحذر والانتباه حتى لا يجتمع مع حروف الظاء، ولا الضاد، ولا الذال. وبهذا يكون حرف الظاء أبعد ما يكون عن اللغة الشعرية وعن موسيقاها الداخلية، والحق أن بعض الشعراء كالمتنبي حاول تحدّي هذه القاعدة فجاء شعره ـ عندما حاول أن ينظم بعض القصائد على روي صعب ـ بريئاً من الموسيقى الداخلية، وكان برهاناً على صدق نصيحة الجاحظ، ودليلاً على سلامة ذوقه.

(١) الدميجة: الثقيل الحركة. وجابة: ضعيف القلب جبان.
(٢) القلاذم: كثرة الصياح.
(٣) البيان، جـ ١، ص ٨٩ ـ ٩١ مكرر.

ولكي تبدو المسألة أكثر وضوحاً حاول أبو عثمان أن يقربها للأذهان فيضرب الأمثلة من اللغات الأجنبية: «قال: **ولكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم: للسين، والجرامقة للعين.**

قال الأصمعي: ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسريان ذال.

قال: ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وإن كانت مجموعة في بيت شعر، **لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه.**

فمن ذلك قول الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفر وليس قربَ قبرِ حربٍ قَبرُ

ولما رأى من لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحدٍ، فلا يتتعتع، ولا يتلجلج وقيل لهم: إنما اعتراه ذلك إذ كان من أشعار الجن صدقوا ذلك.

ومن ذلك قول ابن يسير[1] في أحمد بن يوسف:

لم يضرّها والحمد لله شيء وانثنتْ نحو عزفِ نفسٍ ذهولِ

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض»[2].

وهكذا نستطيع التعرّف على سبب الاستكراه والوعورة في النصف الأخير من بيت ابن يسير فقد جمع بين حرف الزاي وبين حرفي السين،

---

(١) هو محمد بن يسير الرياشي كان شاعراً ظريفاً، وماجناً هجّاءً خبيثاً، لم يفارق البصرة، ولا وفد على خليفة أو أمير، وكان مخلّاً، وكان بينه وبين أبي جعفر أحمد بن يوسف كاتب المأمون مغاضبة، فتعرّض له أحمد وزحمه بحماره عبثاً به، فأخذ محمد بأُذن الحمار وقال له: قل لهذا الحمار الراكب فوقك لا يؤذي الناس.

فضحك أحمد، ونزل فعانقه، وصالحه. توفي سنة ٢١٣ هـ.

(٢) البيان والتبيين، حـ ١، ص ٨٧ ـ ٨٩.

والذال، وهما لا يمكن أن يتقارنا مع حرف الزاي بتقديم، ولا بتأخير، كما نصح لنا الجاحظ قبل قليل.

ولهذا السبب كان الحق إلى جانب أبي عثمان عندما لاحظ أن ألفاظه يتبرأ بعضها من بعض.

والآن لقد حان الوقت للعودة بنا إلى المنبع الصافي الأصيل، لنعد إلى تدريس البلاغة عن طريق كتب الجاحظ وغيره من قمم البلاغة والنقد عند العرب في عصرهم الذهبي، لنعوِّد طلابنا والمتأدبين على مصافحة أبي عثمان من خلال كتاباته فهي خير زاد له على فهم لغتنا والتعرّف إلى أسرارها، والبحث في خصائصها، ولنقلِّل من الاعتماد على استيراد ما يطبخ لنا جاهزاً في مخابر مخابرات الأعداء من شعوبية فكرية وثقافية تحاول أن تصوّر اللغة العربية «بعبعاً» مخيفاً لطلابنا، لينفروا منها، وهي لغة القرآن العزيز الكريم.

ب ـ علاقة الشعر بالغناء والفنون الأخرى:

وقد حان الوقت لنتعرف إلى دور الموسيقى الخارجية للقصيدة، بعد أن تعرّفنا إلى موسيقاها الداخلية قبل قليل. ويعترف الجاحظ منذ البداية بفضل الخليل بن أحمد البصري على الشعر العربي عندما ضبط أوزانه، ووضع له علم العروض فقادة هذا البحث القيّم للبحث في النغم واللحون، لأن الإيقاع يجمع بين موسيقى الشعر والحسّ الموسيقي أيضاً لا يستغني عن الإيقاع أو ما يسمى بالميزان الموسيقي من ثنائي أو ثلاثي، أو رباعي، وقد أعجب أبو عثمان أيضاً بأبحاث الخليل في اللحون، والأنغام واعتراف له بفضل الريادة في هذا الباب:

«ولم يزل أهل كل علم فيما خلا من الأزمنة يركبون منهاجه، ويسلكون طريقه، ويعرِّفون غامضه، ويسهّلون سبيل **المعرفة بدلائله خلا الغناء، فإنهم لم يكونوا عرفوا علله وأسبابه، ووزنه، وتصاريفه، وكان علمهم به على**

الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسية، والهندية، إلى أن نظر الخليل البصري في الشعر ووزنه ومخارج ألفاظه وميَّز ما قالت العرب، وألفه، ووضع فيه الكتاب الذي سمّاه العروض وذلك أنه عرض جميع ما روي من الشعر، وما كان عالماً به على الأصول التي رسمها، والعلل التي بينها، فلم يجد أحداً من العرب خرج منها ولا قصَّر دونها، فلما أحكم وبلغ أخذ في تفسير النغم واللحون فاستدرك منه شيئاً، ورسم له رسماً احتذى عليه مَن خلفه، واستمدّ مَن عنى به»[1].

ومن هذا المنطلق يرى الجاحظ فضل الغناء العربي والشعر العربي الذي هو كلمات الأغنية يفوق غناء الشعوب الأخرى؛ لأن كلمات الأغنية العربية موزونة بالبحر العروضي، فيزداد جمال إيقاعها عندما يتناغم مع إيقاع اللحن الذي يوضع لها، فإذا وهبت ملحناً ذوّاقة فوضع نغماً يتجاوب مع معاني القصيدة وعواطفها فقد بلغت الغاية في التأثير على عقول المستمعين والوصول إلى أوتار قلوبهم فتحركها مع إيقاعات مزدوجة منسجمة تركبت من إيقاع الشعر بعروضه، وإيقاع اللحن بوزنه وهكذا يخلق الانسجام الذي لا بدّ منه لنجاح الأغنية: «وما الفرق بين أشعارهم، وبين الكلام الذي تسميه الفرس والروم شعراً؟

وكيف صار النسيب في أشعارهم، وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم، وفي ألحانهم، إنما يقال على ألسنة نسائهم؟ وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الاشعار الموزونة، فتضع موزوناً على موزون، والعجم تمطط الألفاظ، فتقبض، وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن. فتضع موزوناً على غير موزون..»[2].

(١) رسائل الجاحظ ـ بهامش الكامل للمبرد ـ في طبقات المغنين، ص ١٢١ ـ ١٢٢.
(٢) البيان والتبيين، جـ١، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

وهذا المعجز في الشعر العربي الذي يمتاز بـه عـلى غيره هو السبب في صعوبة ترجمة الشعر العربي، لأنه حالما يترجم يفقد الوزن فتبطل أهم خاصة من خصائصه وهي خاصة الوزن التي ينفرد بها عن غيره.

«وقـد نقلت كتب الهند، وتـرجمت حكم اليونـان، وحولت آداب الفرس؛ فبعضها ازداد حسناً، وبعضها ما انتقص منه شيئاً **ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حوّلوها، لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره كتب العجم في كتبهم**، التي وضعت لمعاشهم، وفطنهم وحكمهم»[1].

وهنا نرى أبا عثمان وقـد تعرّف إلى وحـدة النفس الإنسانيـة في خصائصها العامة، وهذا قاده إلى وحدة التجربة الإنسانية التي ينتج عنها منطقياً فرضية وصول باحثين أو عالمين من أمتين متباعدتين في الزمـان والمكان إلى نتيجة واحدة، أو حكمة متشابهة، ما دامت النفس البشرية أقرب ما تكون إلى التشابه في عناصرها الأساسية.

وهكذا يوضّح عمرو بن بحر أن الشعر الجميل إذا زين اللحن المناسب كان غناءً مرغوباً فيه، ونبّه إلى أن الإيقاع والنغم يمكن أن نتعرف إليه بالإحصاء والوزن، كما يمكن أن نرى بعض الناس ممّن وهبوا أُذناً حسّاسة مرهفة فهم يتعرفون على الوزن ويتفاعلون معه دون إحصاء اعتماداً على حساسية أُذنهم وشفافية أرواحهم وأذواقهم، وهؤلاء بالطبع هم الذين يبدعون في الفن الشعري الغنائي ويبتكرون اللحون كما أبدع الخليل البصري مواطن الجاحظ وابن مدينته، فللّه درّ البصرة من مدينة قدّمت للعرب الخير الكثير يكفيها فخراً أنها أنجبت لهذه الأمة الخليل البصري وعمراً بن بحر الجاحظ.

«ولا نرى بالغناء بأساً، إذا كان أصله شعراً مكسوّاً نغماً، فما كان منه صدقاً فحسن، وما كان منه كذباً فقبيح. وقد قال النبي عليه السلام: «إن من

---

(١) الحيوان، جـ ١، ص ٧٥.

الشعر لحكمة»[1] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الشعر كلامٌ، فحسنُه حسنٌ وقبيحه قبيح».

ولا نرى وزن الشعر أزال الكلام عن جهته، فقد يوجد ولا يضره ذلك، ولا يزيل منزلته من الحكمة.

وإن وزن الشعر من جنس وزن الغناء، وكتاب العروض من كتاب الموسيقى، وهو من كتاب حدّ النفوس تحدُّه الألسن تعدٌّ مقنع وقد يعرف بالهاجس، كما يعرف بالإحصاء والوزن»[2].

جـ - البديـــع:

لقد سبق للجاحظ أن عرّف الشعر بأنه: «صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[3].

وإذا كان القران سر صناعة الشعر ونسجه كما أوضحت قبل قليل، فقد حان الوقت ليعرفنا عمرو بن بحر عن بعض أسرار صناعة التصوير الشعري عند الشعراء الكبار فكيف عرضها أبو عثمان:

«وأنشدنا أصحابنا عن بعض الأعراب، وشعرائهم أنه قال في أُمه:

فما أُمُ الردين - وإن أدلتْ[4] - بعالمةٍ بأخلاقِ الكرام
إذا الشيطان قصّع في قفاها تنقفناه بالحبلِ التؤام[5]

يقول: إذا دخل الشيطان في قاصعاء قفاها، تنقفناه[6] أي: أخرجناه من النافقاء بالحبل المثنى.

---

(١) «إن من الشعر حكمه». معجم ألفاظ الحديث النبوي الشريف جـ ١ ص ٤٩١.
(٢) الرسائل - الجزء الثاني - كتاب القيان، ص ١٦٠ - ١٦١ تحقيق هارون.
(٣) الحيوان، جـ٣، ص ١٣١ - ١٣٢.
(٤) أدلت: انبسطت، أو وثقت بمحبته، فأفرطت عليه.
(٥) الحبل المثنى: المجدول من الاثنين، قصّع· أصله من قصع الضب: دخل في قاصعائه.
(٦) تنقفناه: استخرجناه، كما يستخرج اليربوع من نافقائه.

وقد مثّل، وقد أحسن في نعت الشعر، وإن لم يكن قد أحسن في العقوق»[1].

وهكذا سمى هذا الشعر الحسن «مثلاً» أي شعر جيد يشتهر بين الناس، ويسير ذكر صاحبه حتى يضرب به المثل، هذا من ناحية.

وأما من الناحية الأخرى، فإن هذا الشعر يقوم جمال التصوير فيه على التمثيل؛ لأن الشاعر يختار الصورة المركبة الغنية ليستعين بها على رسم فكرة مجردة يصعب شرحها دون تصوير، فإذا كانت الصورة مرسومة بيد فنان مبدع أدهشتنا، واستولت على قلوبنا، حتى ننسى أنها تتعارض مع الأخلاق كما حدث للجاحظ عندما أُعجب بهذه الصورة الجميلة فتناسى عقوق الابن لأمه، واغتفر له ذنبه ما دام قد جاء بصورة جميلة أمتعت ذوقه.

إن هذه الصورة الغنية بنواحي جمالها هي ما نسمّيه اليوم «بالاستعارة التمثيلية» ويعود إعجاب عمرو بن بحر بها إلى أنها تترك للقارىء الفرصة لكي يطلق العنان لخياله، ويقارن بن صورتين متعددتي الجوانب، وكل قارىء يتذوق من جهته ناحية معينة يهتم بها أكثر من غيرها تبعاً لميوله النفسية ولكي يزيد الأمر جلاء أوضح أبو عثمان في مكان آخر أنه يريد من البديع معنى «التمثيل» والتصوير فقال: «**وقال في التمثيل حسان** أو ابنه عبد الرحمن بن حسان: إن شرخَ الشباب[2]، والشعرَ الأسْود ما لم يعاصَ كان جنوناً
وقال الآخر [العتبي]:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون برؤُه الكبرُ»[2]

ولنا أن نتساءل من أين أتى أبو عثمان بهذا المصطلح؟ أغلب الظن أنه

---

(١) الحيوان، جـ ٦، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.
(٢) شرخ الشباب: هو اسوداد الشعر، ولولا أنهما لاصطحابهما صارا بمنزلة المفرد كان حق الكلام أن يقال: يعاصيا.

اعتمد على معرفته الدقيقة بأسرار اللغة العربية، ومجالسته لشيوخ العربية، والمتأدبين من معاصريه الذين صرّح أكثر من مرة بكثرة مخالطته لهم ونحن نجد أصل هذه التسمية عند معاصره ثعلب[1] ومعلوم أن الجاحظ يتقلف الفكرة أنّى عرضت له وفي أيّ أُفق لاحت.

وهذا لا يمنع أن يكون قد جاء بالتسمية من خلال اطّلاعه على التراث اليوناني، وخصوصاً كتاب فن الشعر[2] لأرسطو عند كلامه على المجاز.

ولكن أبا عثمان لم يمهلنا، حتى نفكر من أين أتى بالتسمية فنراه يسارع للقول: إنه مصطلح عربي الأرومة، وهذا النوع من الفن الجميل الخلّاب مقصور على العرب ولهذا فاقت لغتهم كل لغات الدنيا؛ كل هذا بسبب عصبيته التي تأبى إلا أن تظهر علينا، رغم كل احتياطات أبي عثمان، وحرصه على أن ينأى بنفسه عن شرورها.

«وقال الأشهب بن رُميلة:

وإن الألى حانت بفلجٍ دماؤهم ... هم القومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ خالدِ
هُم ساعدُ الدهر الذي يتقي به ... وما خير كفٍ لا تنوءُ بساعدِ
أسود شرىً لاقت أسود خفيَّة ... تساقوا على حَرْدٍ دماء الأساودِ

قوله: هم ساعد الدهر: إنما هو مثل، وهو الذي تسميه الرواة البديع:

---

(١) هو أحمد بن يحيى: أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيباني المعروف بثعلب، الإمام النحوي، ولد بالكوفة عام ٢٠٠ هـ، وتوفي عام ٢٩١ هـ.
ونجد في شرحه لديوان زهير ص ١٢٤ طبعة القاهرة ١٩٦٤ م مصدر هذه التسمية عندما شرح قول زهير:
«صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطله ... وعُرِّي أفراسُ الصِّبا ورواحلُه
قوله «عُرِّي أفراس الصبا» مثل يقول:
نترك الصبا، وترك الركوب فيه.
وقال الأصمعي: عُرِّي أفراس قد كنت أركبها في الصِّبا».
ومعلوم أن حياة الجاحظ بين سنتي ١٥٩ ـ ٢٥٥ هـ.
(٢) فن الشعر لأرسطو بترجمة د. عبد الرحمن بدوي ص ٥٨ ـ ٥٩.

وقد قال الراعي:

هم كاهلُ الدهر الذي يُتقى به ... ومنكبه إن كان للدهر منكب

وقد جاء في الحديث: «موسى اللَّهِ أحدُّ، وساعدُ اللَّهِ أشدُّ»[١]. **والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان»**[٢].

ولقد كان أبو عثمان سباقاً لكثير من جهابذة النقد الأدبي في العصر الحديث عندما درس الفن المسمى بالبديع على أنه مدرسة أدبية قائمة بذاتها في شعرنا العربي، فقام يتتبع خطوات أعلامها منذ البدايات الأولى، ويعرف بأعلامها، ويبين لنا من السابق ومنْ تتلمذ منهم على يد الآخر وهذه لو انتفعنا بها منذ أيام الجاحظ لكان لنقدنا العربي شأن آخر نباهي به آداب الأمم الأخرى وتراثها النقدي.

فقد لاحق البدايات الأولى للبديع منذ الجاهلية في أيام عمرو بن كلثوم:

«ومن هذا البديع المستحسن منه قول حجر بن[٣] خالد بن مرثد:

سمعتُ بفعلِ الفاعلين فلم أجدْ ... كفعلِ أبي قابوس حَزْماً ونائلا

يساق الغمامُ الغُرّ من كل بلدةٍ ... إليك فأضحى حول بيتك نازلا[٤]

فأصبح منه كلُّ وادٍ حللتَه ... وإن كان قد خوّى[٥] المرابيع[٦] سائلا

(١) المعجم المفهرس جـ١ ص ٤٣٣.

(٢) البيان، جـ٣، ص ٣٧٣ - ٣٧٥.

(٣) هو حجر بن خالد بن محمود بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. شاعر جاهلي، كان معاصراً لعمرو بن كلثوم وكان أنشد شعراً بين يدي النعمان بن المنذر، فاحفظ عمراً بن كلثوم، فلطمه عمرو في مجلس الملك، ثم اقتصَّ منه حجر، وأجار الملك حجراً فقال الأبيات الآتية يمدحه.

وأبو قابوس كنية النعمان.

(٤) دعاء له.

(٥) خوّى النجم: سقط ولم يمطر في نوئه، وكان العرب يستدلّون على المطر بالنجوم.

(٦) المرابيع: التي يكون بها المطر، أول الأنواء. يقول: يسير الخير في ركابك، حتى لو نزلتَ في مكان محروم من نعمة الغيث، أفضتَ عليه من الخير ما يفعمه.

فــلا ملكٌ مــا يبلغنَّــك سـعيــه ولا سـوقـة مـا يمـدحنَّـك بـاطـلا

كما تابع مدرسة البديع في المخضرمين كحسان بن ثابت وفي العصر الإسلامي أيضاً لدى ابنه عبد الرحمن وقد مرّ قبل قليل الشعر الذي لم يستطع الجاحظ أن يتحقق من قائله هل هو لحسان؟ أم لابنه عبد الرحمن؟

وفي العصر الأموي رأى عمرو بن بحر بديعاً في شعر زفر بن الحارث الكلابي، والراعي، وقد مرّ شاهده قبل قليل. . . «وقال زفر بن الحارث:

لئنْ عُدْتَ ـ واللّهِ الذي فوق عرشه ـ منحتُـك مسنونَ الغِـرارين أزرقـا
فإن دواءَ الجهلِ أَنْ تضربَ الطُّلى وأن يُغمسَ العِـرِّيضُ حتى يغرَّقـا

وقال مبذول العذري:

ومولى كضرسِ السوءِ يؤذيك مسُّه ولا بـدّ إنْ آذاك أنـك فـاقـرُهْ
دويّ الجوفِ إنْ ينزعْ يسؤك مكانه وإن يبقَ يصبـحْ كلَّ يـومٍ تحاذرُهْ
يسـرُّ لك البغضـاء وهـو مجـاملٌ وما كل من يجني عليـك تساورُهْ
ومـا كلُّ مَنْ مـدَّدْتَ ثوبـك دونـه لتستـرَه ممـا أتى أنت سـاتـرُهْ

وقد لمح عمرو بن بحر بديعاً في الحديث النبوي الشريف فأعطانا مثالاً؛ علّنا نفتش عن أمثلة أخرى. .

ولكن مدرسة البديع التي أثارت اهتمام الجاحظ لجمال التصوير لدى شعرائها بدأت تتوضح ملامحها منذ الراعي الذي أكثر من البديع في شعره فهو بحق المؤسس الأول لمدرسة البديع. في الشعر العربي يليه بشار بن برد، فتلميذه العتابي. وهو الذي أتمّ معالم المدرسة ويذهب شعره في البديع ومن تلاميذه منصور النمري، ومسلم بن الوليد.

ويرجع إعجاب الجاحظ به إلى جمال التصوير لدى العتابي وإلى إبداعه في اختيار الصور الغنية بجوانب الجمال من ناحية، وإلى غنى جوانب الإبداع الفني الأدبي لديه فهو ـ كما يقول أبو عثمان ـ خطيب شاعر، مترسل

مع بيان حسن «والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب شعره في البديع...»[1].

وفي مكان آخر يقول أبو عثمان:

«ومن الخطباء الشعراء، ممّن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد، والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته أبو عمرو.

وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين، كنحو منصور النمري، ومسلم بن الوليد الأنصاري، وأشباههم.

وكان العتاي يحتذي حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصعب بديعاً من بشار، وابن هرمة، والعتابي من ولد عمر بن كلثوم»[2].

---

(١) البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٧٣ - ٣٧٥.

(٢) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٧٤.

وقد سبق كلامنا على ملاحقة أبي عثمان للمعنى الواحد لدى الشعراء من الجاهلية حتى زمانه، وهو الآن يتخير مدرسة يلاحق أعلامها ويتابعهم.

وهذه آخر تقليعات النقد الأدبي المعاصر، وآخر ما نستورده من الغرب.

راجع الفصل الثالث من الباب الأول بين الأصالة والمعاصرة.

الفصل الثالث

الطبع والصنعة

أ ـ المقـــدمة :

يوجه الجاحظ منذ البداية نصيحة لمن يريد الانضمام إلى صفوف الأدباء، ألّا يغترَّ بإنتاجه، ولكن عليه أن يتأكد من سلامة إنتاجه، وذلك بعرضه على مَن يثق بعقله من الأدباء المتقدمين المعاصرين.

«فإذا أردت أن تتكلف هذه الصناعة، وتنسب إلى هذا الأدب فعَرضت قصيدة، أو حبَّرت خطبة، أو ألّفت رسالة، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك، أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله وتدّعيه؛ **ولكن اعرضه على العلماء في عَرض رسائل أو أشعار، أو خطب، فإن رأيت الأسماع تصغي له، والعيون تحدِج إليه، ورأيت مَن يطلبه، ويستحسنه فانتحله.**

فإن كان ذلك في ابتداء أمرك، وفي أول تكلفك، فلم ترَ له طلباً، ولا مستحسناً، فلعلّه، أن يكون ـ ما دام ريِّضاً قضيباً[1] ـ أن يحلّ عندهم محل المتروك، فإن عاودت أمثال ذلك مراراً، فوجدت الأسماع عنه منصرفة، والقلوب لاهية، فخذ في غير هذه الصناعة، **واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه، أو زهدهم فيه**... وقال الشاعر:

إن الحـديث تغـرُّ القـومَ خلوتُـه ... حـتى يـلج بـهـم عـي وإكـثـار

(١) قضيباً: مقتضباً لم يأخذ حقه من العناية.

وفي المثل المضروب: «كل مهر في الخلاء مُسِرٌّ»[١]. ولم يقولوا مسرور. وكل صواب.

فلا تثق في كلامك برأي نفسك؛ فإني ربما رأيت الرجل متماسكاً، وفوق المتماسك، حتى إذا صار إلى رأيه في شعره وفي كلامه، وفي ابنه، رأيته متهافت وفوق المتهافت. . .»[٢].

مثل هذا الرجل الذي لا يستطيع إثبات وجوده، في ميدان الأدب، لضعف ملكة الإبداع الفني لديه ينصح له عمرو بن بحر أن يتوجه إلى ميدان آخر، أو يفتش عن فن آخر، حتى يجد الميدان الذي ينسجم وطبيعة ميوله النفسية؛ والسبب أن ميولنا النفسية متنوعة، وأهدافنا متباينة تبعاً لذلك وهذا بدوره يقود إلى تنوع الاختصاصات بين البشر، ونجاح كلٍّ منّا في ميدان يراه الآخر صعباً ولا يحتمل مشقة الجري به.

«وقيل لعُقيل بن عُلَّفة: لِمَ لا تُطيلُ الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقيل لأبي المهوش: لِمَ لا تطيل الهجاء؟ قال: لم أجد المثلَ النادر إلا بيتاً واحداً، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً.

وقال مسلمة[٣] بن عبد الملك لنصيب: يا أبا محجن، أما تحسن

---

(١) هذا مَثَل يُضرب لمن يبعث خيله في الصحراء على غير مشهد من الناس، ويحسبها إذا أرسلت في ميادين السباق، سبقت وفازت، فيسرّه هذا الوهم، فتكون العاقبة لا تسرّه.

(٢) البيان والتبيين، جـ١، ص٢٢٦ - ٢٢٨، ويعود في الحيوان جـ١، ص ٥٥ ليقول: «فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بدّ من أن تكون كتبه أكثر من سماعه، ولا يعلم ولا يجمع العلم، ولا يُختلف إليه حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوه.

ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشاق القيان والمتقين بالنبيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيّاً، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه».

(٣) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان، أبو سعيد، كان من شجعان بني أمية وأبطالهم، وممّن =

الهجاء؟ قال: أما تراني أحسن مكان عافاك اللَّه: لا عافاك اللَّه. . .؟!

ولاموا الكميت بن زيد على الإطالة فقال: أنا على القصار أقدر. وقيل للعجاج. ما لكَ لا تحسن الهجاء؟ قال: هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر؟

وقال رؤبة: الهدم أسرع من البناء.

وهذه الحجج التي ذكروها عن نصيب، والكميت، والعجاج ورؤبة إنما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم.

وهذا منهم جهل - إن كانت هذه الأخبار صادقة - **وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب، وليس له طبيعة بالكلام ويكون له طبيعة في التجارة، وليست له طبيعة في الفلاحة. ويكون له طبيعة في الحداء، أو في التغبير[1]، أو في القراءة بالألحان، وليست له طبيعة في الغناء. وإن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحون.**

وتكون له طبيعة في الناي[2]، وليس له طبيعة في السرناي[3]، وتكون

= تعتز بهم الدول، وتفخر الأمم.

قاد الجيوش منذ شبّ عن طوقه، وفتح الفتوحات العظيمة في بلاد الروم، حتى لقد أوشك أن يستولي على القسطنطينية، لولا أن مات في خلال حصارها سليمان بن عبد الملك بالشام، فأمره عمره بن عبد العزيز بتركها والعودة إليه بجيوشه وكان على جانب عظيم من السياسة والدهاء، وقوة الحزم والتدبير، وكان مع هذا جواداً سمحاً سخياً، وكانت تعلو وجهه صفرة، فكان خصومه يلقبونه بالجرادة الصفراء. ولي العراق أشهراً، ثم عزل بعمر بن هبيرة، مات في عهد هشام. ويروى أن مسلمة قال لنصيب:

أنت لا تحسن الهجاء، فقال: بلى واللَّه، أتراني لا أُحسن أن أجعل مكان عافاك اللَّه: أخزاك اللَّه!

قال: فإن فلاناً مدحته، فحرمك، فاهجه؟

قال: واللَّه ما ينبغي أن أهجوه، وإنما ينبغي أن أهجو نفسي حين مدحته، فقال مسلمة: هذا واللَّه أشدّ من الهجاء.

(١) التغبير: ترديد الصوت بالقراءة، وبعض الأناشيد. سمّوا بالمغبرة؛ لأنهم بقراءتهم، وتهليلهم، وأناشيدهم يرغبون الناس في الغابرة وهي الباقية، وهذا مقامها اللائق بها.

(٢) الناي: المزمار.

(٣) السرناي: آلة من آلات الزمر أكبر من الناي.

له طبيعة في قصبة الراعي، ولا تكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين، ويكون له طبع في صناعة اللحون، ولا يكون له طبع في غيرها.

ويكون له طبعٌ في تأليف الرسائل، والخطب، والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر، ومثل هذا كثير جداً. وكان عبد الحميد الأكبر(١)، وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما، وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله.

وقيل لابن المقفع في ذلك، فقال: الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه.

وهذا الفرزدق، وكان مستهتراً(٢)، وكان زير غوان(٣)، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب المذكور. ومع حسده لجرير وجرير ـ عفيف لم يعشق امرأة قطّ ـ وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً.

وفي الشعراء مَن لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، ومنهم مَن يجمعهما: كجرير، وعمر بن لجأ، وأبي النجم، وحميد بن الأرقط، والعماني. وليس الفرزدق في طواله بأشعر منه في قصاره»(٤).

وزيادة في إيضاح مسألة تنوع المواهب وما يلحقها من فروق في التخصصات ضمن الفن الواحد كما ضرب الجاحظ الأمثلة السابقة، فقد نجد من يبرع في آلة موسيقية كالناي مثلاً ولا يبرع في آلة موسيقية مشابهة لها إلى

(١) هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب البليغ الأشهر. وهو كاتب بني مروان وزينة ملكهم. كان من أكتب الناس وأبلغهم، وكان صنواً لابن المقفع وخديناً. كان آخر مَن كتب له منهم: مروان بن محمد آخر بني أمية. وكان أبو جعفر المنصور يحسد الأمويين عليه. ويقول: غلبنا بنو أمية بثلاثة رجال: بالعجاج، وعبد الحميد، والمؤذن البعلبكي، قتل سنة ١٣٢ هـ ـ ٧٥٠ م.

(٢) المستهتر بالشيء: هو المولع به لا يبالي في لزومه ما يكون.

(٣) زير غوان: ملازم للنساء، محب لمجالستهنّ ومحادثتهنّ.

(٤) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣.

حدٍّ بعيد انتقل إلى البراعة ضمن فنون الأدب، وغلبة بعض الشعراء على ميدان دون غيره. ونادراً ما نجد بينهم مَن يبدع في فنون الأدب المختلفة: من قصيد ومن رجز أو خطابة أو رسائل.

ينتقل بنا إلى مسألة أخرى لا تقل أهمية عمّا سبق وهي أن الفنان المبدع قد يمر بفترات من الخصب أو الجدب في إنتاجه الفني، وأستشهد لفكرته بما روي عن الأدباء والشعراء:

«وفي الشعراء مَن يخطب، وفيهم مَن لا يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قرض الشعر. **والشاعر نفسه قد تختلف حالاته.**

وقال الفرزدق: أنا عند الناس أشعر الناس، وربما مرّت عليّ ساعة، ونزع ضرسٍ أهون عليَّ من أن أقول بيتاً واحداً.

وقال العجاج: لقد قلت أُرجوزتي التي أولها:

بكيت والمُحْتَزِنُ البكيُّ وإنما يأتي الصِّبا الصبيُّ
أطرباً وأنت قنسريُّ[1] والدهر بالإنسان دواريُّ

وأنا بالرمل في ليلة واحدة، فانثالت[2] عليَّ قوافيها انثيالاً، وإني اليوم دونها في الأيام الكثيرة فما أقدر عليه.

وقال أبو يعقوب الخريمي: خرجت من منزلي أُريد الشماسية فابتدأت القول في مرثية لأبي التختاخ، فرجعت ـ والله ـ وما أمكنني بيت واحد.

وقال الشاعر:

وقد يقرض الشعرَ البكيُّ لسانُه وتعيي القوافي المرءَ وهو خطيب»[3]

---

(١) قنسري: كبير السن
(٢) انثالت: تتابع ورودها.
(٣) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣

ب ـ العرب أقرَب إلى الطبع منهم للصنعة:

بعد هذه المقدمة الرائعة عن تنوّع الملكات الفطرية بين الأفراد ومرور الفنان المبدع نفسه في فترات متباينة من الخصب أو القلّة في الإنتاج. يصل بنا أبو عثمان إلى مرحلة جديدة، وهي أن العربي عامة يميل إلى الطبع والارتجال أكثر من محبته للصنعة والزخرفة والعنت؛ وهذ راجع لطبيعة حياتهم في الجزيرة العربية، تلك الحياة السهلة الواضحة، وكأن وضوح الصحراء انعكس صفاء على نفسياتهم وأدبهم والأسلوب هو الرجل كما يقولون.

ويندر بينهم مَن يشذ عن هذه القاعدة، ويميل إلى التكلّف، وسيعرض لهم عمرو بن بحر بعد قليل، ويحدد لنا معالم مدرسة الصنعة التي تضم عدداً محدوداً معدوداً من شعراء العربية وأدبائها، كما سيعرض لنا المدرسة التي تقابلها وهي مدرسة الغالبية المنسجمة مع طبيعة النفس العربية وهي مدرسة الطبع والارتجال وسنرى أيضاً العديد من أعلامها وفرسانها.

«وفي الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكر، ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخرهم.

وكل شيء للعرب، فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة، ولا مكابدة، ولا إجالة فكر، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام أو حين يمتح[1] على رأس بئر. أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة، أو المناقلة، أو عند صراعٍ أو حرب.

فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً[2]، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده

(١) يمتح: يستقي.
(٢) أرسالاً: يتلو بعضُها بعضاً.

على نفسه، ولا يدرُسُه أحد من ولده، وكانوا أُميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر. وكل واحدٍ في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطابهم أوجز، **والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ.**

أو يحتاجوا إلى تدارس؛ وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام مَن كان قبله، **فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب.**

وإن شيئاً هذا الذي في أيدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه إلا مَن أحاط بقطر السحاب، وعدّ التراب، وهو الذي يحيط بما كان، والعالم بما سيكون»[(١)].

وفي موضع آخر يلحّ أبو عثمان على المعنى نفسه: «وقد كان الرجل من العرب **يقف الموقف وينشيء عدّة أمثال كل واحد منهما ركن يبنى عليه، وأصل يتفرع منه...**»[(٢)].

جـ - مدرسة الطبع عند العرب:

وهي المدرسة الغالبة على الإنتاج الفني العربي؛ لأنها أصيلة لديهم بسبب نفسيتهم، وطبيعة حياتهم في صحراء واضحة بسيطة لا تغرف الضباب، والألغاز؛ ولكونهم أُميين لا يكتبون في جاهليتهم.

فما هي ميزات هذه المدرسة؟

«ونحن - أبقاك الله - إذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور، والأسجاع، ومن المزدوج، وما لا يزدوج، فمعنا

(١) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٢٦ - ٢٨.
(٢) رسائل الجاحظ - بهامش الكامل للمبرد - حجج النبوة ص ٩٨ - ٩٩.

العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب والسبك، والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك إلا في اليسير والنبذ القليل»(١).

وعليه تكون ميزات مدرسة الطبع عند العرب على الوجه التالي:

١ ـ الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، وهذه نتيجة لمهارة الشاعر في السيطرة على اللغة وتطويعها بين بنانه ومعرفته بأساليب العربية الدقيقة، في توزيع المدود من جهة، والموازنة بين حروف الشدة والحروف الأخرى وهي ما مرّ بحثه في القران عند حديثنا عليه في الفصل السابق(٢).

٢ ـ وتظهر صحة الطبع في جودة السبك والنحت، «وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك. فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»(٣). وهكذا تعني جودة السبك والنحت ما يلي:

أ ـ سهولة مخرج الكلام.

ب ـ كثرة الماء وتعني حلاوة النغم وليونته من خلال المهارة في رصف الكلمات ضمن العبارة الأدبية.

ولهذا يعود في موضع آخر ليمنح المصطلح مزيداً من التوضيح:

«ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلا كل شعرٍ في الشاهد، والمثل، ورأيت عامتهم ـ فقد طالت مشاهدتي لهم ـ لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى **الألفاظ العذبة**، والمخارج السهلة، والديباجة

---

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص ٢٦ ـ ٢٨

(٢) وراجع كلامنا على اللفظ والمعنى أيضاً لزيادة الإيضاح في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٣) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق. . »[1].

٣ ـ **وتعني جودة السبك أيضاً الألفاظ العذبة المتخيرة**، وهذه تحتاج إلى ذوق مرهف يتحسس العذوبة ويتذوقها ولهذا السبب أصرّ الجاحظ أن هذه المسألة دقيقة تحتاج إلى عربي أصيل النسب والذوق حتى يتعرفها، ويتلمس حدودها ولا نجدها لدى المستعربين أو المولدين إلا في النذر اليسير **«وأخرى ليس مَن قال الشعر بقريحته وطبعه، واستغنى بنفسه، كمن احتاج إلى غيره يطرد شعره**[2]**، ويحتذي مثاله، ولا يبلغ معشاره»**[3].

وعلى هذا يكون المستعرب مقلداً والتقليد يبقى في حدود النموذج المقلّد، وأدنى رتبة مهما بالغ في الإجادة عند النقل والاحتذاء؛ لأنه يفتقر إلى الأصالة الفردية التي تميز العبقرية الفنية عن الذين يتسلقون أغصانها تماماً كما يفعل نبات اللبلاب.

٤ ـ وعليه كان من الطبيعي أن يصرّح الجاحظ بعدها بما يلي: **«ولم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح**[4] **ألفاظاً مسخوفة.**

ولا معاني مدخولة، ولا طبعاً رديئاً، ولا قولاً مستكرهاً. وأكثر ما تجد ذلك في خطب المولدين، والبلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين.

وسواءٌ أكان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أم كان من نتاج التحبير والتفكير. . . »[5].

---

(١) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠.

(٢) الطرد والاطّراد: الاصطياد، والمراد المتتبع.

(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، جـ ٢، مفاخرة الجواري والغلمان، ص ١١٦.

(٤) الأقحاح: جمع قح: وهو الخالص العروبة.

(٥) البيان والتبيين، جـ٢، ص ٧ ـ ١٤

ومن هنا نرى أن الشعر المطبوع لا بدّ أن يتّصف بـالصفة **الثالثة وهي المعاني المترابطة والمتسلسلة بشكل منطقي ما دامت الألفاظ قد جاءت كل كلمة في مكانها دون استكراه يدل على طبع رديء.**

وهذا يستدعي بالطبع البُعد عن الألفاظ المسخوفة كما صرّح أبو عثمان قبل قليل. وهذا الطبع الرديء أكثر ما وجده الجاحظ لدى المتكلفين من المولدين.

٥ ـ وصحة الطبع تعني تنزه الشعر عن الاختلال، والاستكراه والتكلف: ويمكن أن نرى الاختلال من فساد بنية العبارة الأدبية بالتقديم والتأخير، وكثرة الضمائر التي تعود على اسم معين كثرة تستدعي منّا إعادة القراءة أكثر من مرة لفهم العبارة.

كما يتأتى الاختلال من الإكثار في استعمال الجمل الاعتراضية التي تشوِّش بناء الجملة، وتضع حاجزاً مصطنعاً أمام الفكر وهو يلاحق المعنى من جملة إلى جملة، وكل هذا ناتج عن التكلف وقسر الكلمات على المواقع التي لا تناسبها في بناء الجملة، وهكذا يحسّ القارىء بالتعب نتيجة للتكلف المرهق:

«وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهره لفظه، وكأن اللّه عزّ وجلّ قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب صاحبه، وتقوّي قائله، فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، **وكان صحيح الطبع؛ بعيداً من الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلّف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة...**»[1].

٦ ـ الشعر المطبوع تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس رهواً مع قلة لفظ: «وقد علمنا أن مَن يقرض الشعر، ويتكلف الأسجاع، ويؤلف المزدوج

(١) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

ويتقدم في تحبير المنثور، وقد تعمق في المعاني، وتكلف إقامة الوزن، **والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس رهواً مع قلة لفظ وعدد هجائه أحمدُ أمراً، وأحسن موقعاً من القلوب وأنفع للمستمعين** من كثير خرج بالكد والعلاج، ولأن التقدم فيه وجمع النفس له، وحصر الفكر عليه لا يكون إلا ممّن يحب السمعة، ويهوى الفلج والاستطالة. . .»[(1)].

ولهذا السبب عاد الجاحظ للتأكيد من جديد على بغضه للصنعة والتكلف ما دام الطبع يغني عن هذا التعب الذي لا يجدي «فإن رأيي في هذا الضرب من اللفظ **أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها**، والعادة فيها **أن ألفظ بالشيء العتيد بالموجود، وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة**»[(2)].

د ـ بلاغة النبي محمد ـ ﷺ ـ خير مثال لمدرسة الطبع في اللغة العربية:

وهنا يقف الجاحظ موقف المنطقي المنسجم مع ذاته عندما يرى أن قبيلة قريش أفصح العرب، وأن ابنها البار عليه أفضل الصلاة، وأزكى التسليم خير مَن يمثلها، لذا كان علينا أن نقتدي ببلاغته، ونأخذ من حديثه النبوي الشريف خير مثال لمدرسة الطبع في اللغة العربية ما دام اللّٰه تعالى قد نزّه نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن التكلف، وهكذا يكون حديثه الشريف أفضل مدرسة تعلمنا بلاغة اللغة العربية في أجود صورها، «وأنا أذكر بعد هذا فناً آخر من كلامه ـ ﷺ ـ **وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثرت معانيه وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف**، وكان كما قال اللّٰه تبارك وتعالى قل يا محمد: «وما أنا من المتكلفين»[(3)] **فقد عاب التشديد**، وجانب أصحاب

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

(٢) الحيوان، جـ٣، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩

(٣) سورة ص. الآية: ٣٨.

التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويسّر بالتوفيق!

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له المهابة والحلاوة.

وبيّن حسن الإفهام وقلّة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلّة حاجة السامع إلى معاودته... ثم لم يسمع الناس بكلامٍ قطُّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنىً، ولا أبين فحوى، من كلامه ﷺ»(١).

والآن لنحاول التعرف إلى أسرار البلاغة النبوية الشريفة كما عرضها أبو عثمان، وسنراها على الوجه التالي:

١ ـ البراعة في مراعاة مقتضى الحال، فلكل مقام مقال، كما يقول علماء البلاغة، وقد عبر الجاحظ عن هذا المعنى بالعبارات التالية:

«ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً.... ولا أحسن موقعاً.

وعليه فقد استعمل عليه الصلاة والسلام الإيجاز في مكانه المناسب:

«واستعمل المقصور في موضع القصر».

«وقلة عدد حروفه».

«وقلة عدد الكلام ومع استغنائهه عن إعادته».

ب ـ كما استعمل الإطناب في مكانه الملائم أيضاً.

«واستعمل المبسوط في موضع البسط».

---

(١) البيان والتبيين، جـ٢، ص ١٧ ـ ١٩.

جـ ـ ومال النبي **إلى المساواة غالباً**، «ثم لم يسمع الناس بكلام **قطّ** أعمّ نفعاً، **ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً**». . . ولا أحسن موقعاً.

٢ ـ **البعد عن الصنعة والتكلف**: وقد عبّر عنها الجاحظ بالعبارات التالية:

«وجلّ عن الصنعة» و«نزّه عن التكلف، وكان كما قال اللّه تبارك وتعالى قل يا محمد: ««وما أنا من المتكلفين»[1] «فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير» «وهجر الغريب الوحشي» و«رغب عن الهجين السوقي» وعليه **تعني الصنعة والتكلف** برأي الجاحظ:

أ ـ التشديق في الكلام.

ب ـ تقليد أصحاب التقعير.

جـ ـ استعمال الغريب الوحشي.

د ـ اللجوء للفظ الهجين السوقي.

٣ ـ **كثرة معانيه وعمقها**: وقد فهمتها من العبارات التالية:

«فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حدّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسّر بالتوفيق، وهو الذي ألقى عليه المحبة، وغشاه بالقبول»، «وجمع له بين حسن الإفهام وقلّة عدد الكلام»، «ثم لم يسمع قطّ بكلام أعمّ نفعاً. . ولا أكرم مطلباً. . ».

٤ ـ **الوضوح وحسن الإفهام**: ونستدل عليها من العبارات: «جمع بين حسن الإفهام» «ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى» «وقلة حاجة السامع إلى معاودته».

وهكذا نرى أن صفة الوضوح في الأسلوب تأتي من الصفات التالية:

أ ـ فصاحة المعنى وبيان فحوى الكلام دونما حاجة للإعادة.

ب ـ حسن الإفهام.

---

(١) سورة ص. الآية: ٣٨.

٥ ـ جمال السبك: فقد جمع عليه السلام لكلامه جمال قوة الأسلوب وحلاوته، وقد فهمت هذا من العبارات التالية:

«ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أسهل مخرجاً».

وعليه تكون صفة السبك الجيد تعني ما يلي:

أ ـ أن يكون وزن الكلمة مناسباً أي أن تكون منسجمة مع جاراتها ضمن الجملة، بل يجب أن تكون حروفها متناغمة، وهو ما سميناه بالموسيقى الداخلية عند كلامنا على القران(١).

ب ـ أن يختار الكلمات العذبة الجميلة. ويضعها في مكانها المناسب من الجملة.

جـ ـ سهولة مخارج الكلام.

هـ ـ بشار بن برد رأس مدرسة الطبع بين المولدين:

لمحة تاريخية:

ولكن بدايات هذه المدرسة في العصر الإسلامي والأموي تبدأ بالنابغة الجعدي، وكان شعره يعجب علماء اللغة العربية وشيوخها من أمثال الأصمعي، والسبب واضح فهو قرب هذه المدرسة من نفس العربي الصميم، وهي لهذا السبب تضمن الشهرة للشاعر، وترفع من قيمة شعره لأن القصيدة المطبوعة تكون متفاوتة في جودة أبياتها بينما لا تجري القصيدة التي تكون ملأى بالأمثال، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء، لم يكن لذلك النظام عنده موضع:

«وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدي فقال:

---

(١) راجع الكلام على القران بالتفصيل في الفصل الثاني من الباب الثاني.

«مُطْرَفٌ آلاف، وخمارٌ بواف[1]».

وكان الأصمعي يقول: الحطيئة عبد لشعره؟

عاب شعره حين وجده كله متخيراً منتخباً مستوياً؛ لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه..

وقالوا: لو أن شعر صالح بن عبد القدوس، وسابق البربري، كان مغرقاً في أشعار كثيرة، لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق، ولكن القصيدة. إذا كانت كلها أمثالاً لم تسرِ، ولم تجرِ مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء، لم يكن لذلك النظام عنده موقع.

وقال بعض الشعراء لرجل: أنا أقول في كل ساعة قصيدة، وأنت تقرضها في كل شهر. فلِمَ ذلك؟

قال: لأني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبله من شيطانك، قالوا: وأنشد عقبة بن رؤبة أباه العجاج بن رؤبة شعراً، وقال له: كيف تراه؟

قال: يا بني إن أباك ليعرض له مثل هذا يميناً وشمالاً فما يلتفت إليه»[2].

بشار بن برد:

«ومن خطباء الأمصار، وشعرائهم، والمولدين منهم: بشار الأعمى، وهو بشار بن برد وكنيته أبو معاذ.

أصـــله:

وكان من أحد موالي بني عُقيل، فإنه كان مولى أُم الظباء ـ على ما

---

(1) المطرف: رداء من خزّ مربع ذو أعلام. والخمار: النصيف وهو الذي تعطي به المرأة رأسها ووجهها. والوافي: الدرهم ومقداره أربعة دوانق.

(2) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٣.

يقول بنو سدوس، وما ذكره حماد عجرد - فهو من موالي بني سدوس.

ويقال إنه كان من أهل خراسان نازلاً في بني عُقيل، وله مديح كثير في فرسان أهل خراسان، ورجالاتهم وهو الذي يقول:

من خراسان وبيتي في الذرى ولدى المسعاة فَرْعي قد سَمَق

وقال:

وإني لمن قوم خراسانُ دارُهم كرامٍ وفرعي فيهم ناضرٌ بَسَقْ

صفاته:

وكان شاعراً راجزاً، وسجّاعاً خطيباً، وصاحب منثور مزدوج، وله رسائل معروفة.

والمطبوعون على الشعر من المولدين: بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عيينة، وقد ذكر الناس في هذا الباب:

يحيى بن نوفل، وسلماً الخاسر، وخلف بن خليفة، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء، وبشار أطبعهم كلاهم»[1].

أبو نواس عَلَم من أعلام
مدرسة الشعر المطبوع بين المولدين

«وأنا كتبت لك رَجَزَهُ في هذا الباب **لأنه كان عالماً** راوية وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لاتعرف الأعراب وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه.

هذا مع جودة الطبع، وجودة السبك، والحذق بالصنعة. وإن تأملت شعره فضّلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو

(١) المصدر السابق، جـ ١، ص ٧١ - ٧٣.

أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء.

فإن اعترض هذا الباب عليك، فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً.

قال الحسن بن هانيء:

لما غدا الثعلب من وجاره يلتمس الكسب على صغاره
عارضه في سنن امتياره[1] مضمر يموج في صداره»[2]

ز ـ مدرسة الصنعة في الشعر العربي:

زهير بن أبي سلمى مؤسسها:

«وكان زهير بن أبي سلمى ـ وهو أحد الثلاثة المتقدمين ـ يسمي كبار قصائده (الحوليات).

وقال الحطيئة: خير الشعر الحولي المنقح.

وقال البعيث الشاعر: ـ وكان أخطب الناس ـ: إني والله ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك.

وكنت أظن أن قولهم محكك، كلمة مولدة حتى سمعت قول الصعب ابن علي الكناني:

أبلغ فزارة أن الذئب آكلُها وجائعٌ سغِبٌ شر من الذيبِ
أزلُّ[3] أطلسُ[4] ذو نفسٍ محككةٍ[5] قد كان طار زماناً في اليعاسيبِ[6]

---

(١) امتياره: طلبه للميرة، أي الطعام. والسَّنَن بالتحريك. الطريق والصدار هنا، جلده الواسع، وسعة الجلد محمودة في الكلاب.

(٢) الحيوان، جـ ٢، ص ٢٧.

(٣) الأزل: الأرسح: الذئب يتولد بين الضبع والذئب.

(٤) الأطلس: الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى السواد.

(٥) محككة: قد هذبتها الأمور، وشذبتها الأحداث.

(٦) اليعاسيب: جمع يعسوب أمير النحل، وقد يطلق مجازاً على كل رئيس ناهض بأسباب الرئاسة.

وتكلم يزيد بن أبان الرّقاشي، ثم تكلم الحسن البصري، وأعرابيان حاضران فقال أحدهما لصاحبه: كيف رأيت الرجلين؟. فقال: أما الأول فقاص مجيد، وأما الثاني فعربي محكك. وقيل لابن التوأم الرّقاشي تكلم، فقال: ما أشتهي الخبز إلا بائتاً...»[1].

تفسير أصل تسمية الحوليات:

«ومن شعراء العرب مَن كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً[2]، وزمناً طويلاً، يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله ذماماً لرأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوّله اللّه من نعمته. وكانوا يسمّون تلك القصائد: الحوليات، والمُقلدات، والمنقحات، والمُحكمات، ليصير قائلُها فحلاً خنذيذاً، وشاعراً مفلقاً، وفي بيوت الشعر الأمثال، والأوابد، ومنها الشواهد ومنها النوادر... وكان زهير بن أبي سلمى يسمي كبار قصائده الحوليات وقد فسر سويد[3] بن كُراع العكلي ما قلنا في قوله:

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما ... أصادي[4] بهاسِرْباً[5] من الوحش نزَّعا[6]
أكالئها[7] حتى أعرش[8] بعدما ... يكون سُحَيْراً أو بعيداً فأهجعا[9]
عواصي[10] إلا ما جعلت أمامها ... عصا مربدٍ تغشى نحوراً وأذرعا

---

(1) البيان والتبين، جـ، ص ٢٢٧ - ٢٣٣.
(2) حولاً كريتاً: حولاً كاملاً.
(3) هو سويد بن كراع العكلي، شاعر إسلامي مقدم من شعراء الدولة الأموية، وكان سيد قومه، وكان صاحب رأي فيهم، والتقدم عليهم، وعكل، وضبة، وعدي، وتيم يقال لهم الرباب..
(4) أصادي. أتعرض لها لأصيدها.
(5) السرب. القطيع من الوحش.
(6) النزع. المسرعات في العدو
(7) أكالئها: أراقيها.
(8) أعرس: أنزل بعيد السحر.
(9) الهجوع: النوم
(10) العواصي: يريدها القوافي في الأوابد المستعصية على الطلب.

أهبتُ(1) بغُرِّ الآبدات(2) وراجعت ... طريقاً أملّته القصائد مَهيعا(3)
بعيدةِ شأوٍ(4) لا يكاد يردُّها ... لها طالبٌ حتى يكلّ ويظلعا(5)
إذا خفت أن تروى(6) عليّ رددتها ... وراء التراقي خشيةً أن تطلّعا
وجشمني(7) خوف ابن عفان ردّها ... فثقفتها(8) حولاً جريداً(9) ومربعا(10)
وقد كان في نفسي عليها زيادة ... فلم أرَ إلا أن أطيعَ وأسمعا

ولا حاجة بنا مع هذه الفترة إلى الزيادة في الدليل على ما قلنا. ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحولي المحكك(11).

وكان الأصمعي يقول: زهير بن أبي سلمى، والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر.

وكذلك كلّ مَن يجود في جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر؛ حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة.

وكان يقال: لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم، حتى أدخلهم في باب التكلف، وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام، واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً(12)

---

(1) أهبت: دعوت.
(2) غُر الآبدات: القوافي البيض.
(3) الطريق المهيع: الواسع البعيد.
(4) بعيدة الشأو: شاسعة الغاية.
(5) يظلع: يعرج.
(6) تروى عليّ: تؤثر عنّي، وتُداع.
(7) جشمني: كلفني. وابن عفان يريد به سعيد بن عثمان بن عفان.
(8) ثقفتها: هذبتها ونقحتها.
(9) حولاً جريداً: حولاً كاملاً.
(10) مربعاً: وربيعاً، يعني وفصلاً من فصول الحول الثاني.
(11) الحولي المحكك: الذي مضى عليه الحول تهديباً وتنقيحاً
(12) سهواً رهواً: سهلاً متدفقاً

رهواً وتنثال[1] عليهم الألفاظ انثيالاً . . »[2].

وعليه يمكننا أن نحدد ميزات مدرسة **الصنعة** في الشعر العربي، أو مدرسة عبيد الشعر، وأصحاب الحوليات، المقلدات، والمنقحات المحكمات على الوجه التالي:

١ - **يجود في جميع شعره**، ويقف عند كل بيت قاله ليعيد فيه النظر حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة.

٢ - **شعرهم أدخل في باب التكلف**؛ لأنهم يلتمسون قهر الكلام، واغتصاب الألفاظ، وكأن شعرهم قد استعبدهم. فهم لذلك يسمّون بعبيد الشعر.

٣ - **شعر مدرسة الصنعة مصفّى منقح**: «وكان أبو عبيدة يقول: - ويحكى ذلك عن يونس[3]: ومن تكسب بشعره، والتمس به صلات الأشراف، والقادة، وجوائز الملوك، والسادة، في قصائد السماطين، وبالطوال التي تنشد يوم الحفل، لم يجد بدّاً من صنيع زهير والحطيئة، وأشباههما، فإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام، وتركوا المجهود، ولم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب، بل

---

(١) تنثال انثيالاً: تأتي عفواً بلا تكلف. . .

(٢) البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٧ - ١٤.

(٣) هو يونس بن حبيب البصري. كان مولى بني ضبة. ويكنى أبا عبد الرحمن كان عالماً بالنحو واللغة والغريب، واسع الرواية فصيحاً بليغاً. وله في النحو أقيسة، ومذاهب تفرد بها. صحب أبا عمرو بن العلاء، وسمع من الأعراب الفصحاء، وروى عن سيبويه فأكثر، وسمع منه الكسائي، والفراء، وغيرهما من الكوفيين. وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب اللغة والأدب والغريب، ونوادر الأشعار، ويغشاها فصحاء الأعراب من البوادي قال له رؤبة يوماً: حتام تسألني عن هذه البراطيل، وأزخرفها لك، أما ترى الشيب قد تلع في لحيتك؟! عاش طوال أيامه عزباً لم يتزوج، ولم يتسرّ، ولد سنة ٩٠ هـ، وتوفي عام ١٨٢ هـ.

كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتداراً عليه وثقة بحسن عادة اللّه عندهم فيه.

وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير، ومهمات الأمور ميثوه في صدورهم وقيدوه على أنفسهم، فإذا قومه الثقات، وأدخل الكير، وقام على الخلاص أبرزه محككاً منقحاً ومصفى من الأدناس مهذباً»[1].

(١) البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٧ - ١٤.

البَابُ الثَّالِثُ

الفصل الأوّل

الأدب والأخلاق

أ ـ الكذب في الأدب:

يبدأ الجاحظ بدراسة أسباب الكذب في الأدب كمقدمة لا بدّ منها حتى يقرر رأيه في هذا الموضوع فيرى الأسباب على الوجه التالي:

«فمن الخصال التي ذمّهم بها: **تكلف الصنعة، والخروج إلى المباهاة،** والتشاغل عن كثير من الطاعة، **ومناسبة أصحاب التشديق، ومن كان كذلك كان أشد افتقاراً إلى السامع من السامع إليه لشغفه أن يذكر في البلغاء، وصبابته باللحاق بالشعراء،** ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة، وولد ذلك في قلبه شدة الحمية، وحب المجاذبة.

ومن سخف هذا السخف، وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة، كانت حاله داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصرف الرغبة إلى الناس، والإفراط في مديح مَن أعطاه، وذمّ مَن منعه...»[1] وهكذا يقدم القضية بشكل منطقي متسلسل فالكذب ناتج عن الأسباب الجوهرية الآتية:

١ ـ تكلف الصنعة، ومناسبة أصحاب التشديق.

٢ ـ **الخروج إلى المباهاة بشعره،** وأدبه ومثل هذا الرجل يكون أحوج

---

(١) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

إلى السامع من السامع إليه كما أخبر بصدق عمرو بن بحر؛ لمرضه بجنون العظمة وحنينه للشهرة.

٣ ـ مثل هذا السخيف يغلبه الشيطان؛ فيرغب بمال الناس ويركب للمال كل مركب، فيفرط في مديح مَن أعطاه وذمّ من منعه.

٤ ـ قد يدفع الحب للصديق، أو الكراهية للعدو بالأديب إلى الكذب.

قال: وسأل رسول اللّه ـ ﷺ ـ عمرو بن الأهتم عن الزبرقان به بدر فقال:

إنه لمانع لحوزته، مطاعٌ في أُذينه[١].

قال الزبرقان: يا رسول اللّه، إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي، فقصّر بي!

فقال عمرو: **هو واللّه زمِرُ المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال.**

فنظر النبي ـ ﷺ ـ في عينيه!؟ فقال: يا رسول اللّه، رضيت **فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة.**

فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: إن من البيان لسحراً»[٢]. ولقد صدق رسول اللّه ﷺ عندما وصف البيان بالسحر، وأحسن أبو عثمان في انتفاء هذا المثل للدلالة على دور العواطف الإنسانية في دفع الأديب نحو الكذب.

٥ ـ الرياء خوفاً أو طمعاً: «ومرّ غيلانُ بن خَرَشة الضبي مع عبد اللّه بن عامر، على نهر أُم عبد اللّه الذي يشق البصرة، **فقال عبد اللّه: ما أصلح هذا النهر لأهل المصر!**

---

(١) أذينه: أذين الرجل: قومه الذين يقوم عليهم زعيماً. ويروى أدينه.

(٢) البيان، جـ ١ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤. وقد تم توثيقه من قبل. معجم ألفاظ الحديث النبوي الشريف. جـ ١ ص ٢٥٩.

فقال غيلان: أجل أيها الأمير، يعلم القوم فيه صبيانهم السباحة، ويكون لسقياهم، ومسيل مياههم، وتأتيهم فيه ميرتهم.

قال ثم مرّ غيلان يساير زياداً على ذلك النهر ـ وقد كان عادى ابن عامر ـ فقال زياد: ما أضرَّ هذا النهر بأهل هذا المصر!

فقال غيلان: أجل واللّه أيها الأمير تنزّ منه دورهم وتعزق فيه صبيانهم، ومن أجله يكثرنَّ البعوض.

فالذين كرهوا البيان؛ إنما هو مثل هذا المذهب؛ فأما نفس حسن البيان، فليس يذمّه إلا مَن عجز عنه ومن ذمّ البيان مدح العي، وكفى بذلك جهلاً وخبالاً»(١).

وهكذا نبّه الجاحظ إلى دور المرائين من الأدباء الذين يرتزقون بالكلمة ويلتزقون في مذاهبهم فيكون عملهم هذا سبباً في نشر الكراهية للأدب والبلاغة بين الناس.

٦ ـ **وهناك حالة المبالغة والغرور التي تصيب عامة الناس والأدباء منهم بطبيعة الحال عندما يتعلق الأمر بالولد أو بالشعر**، وهذه الحال العامة يرى أبو عثمان أننا نتفاوت في الإصابة بها على ثلاث درجات:

أ ـ الغرق المغمور، وهذا يلحق بالحالة الثانية غالباً.

ب ـ ومنّا مَن نال الصواب حظاً ومن الخطأ نصيباً.

جـ ـ والمحظوظون هم أصحاب الخطأ المستور لكثرة صوابهم، حتى يتم كشفهم.

«وليس في الأرض إنسان إلاَّ وهو يطرب من صوت نفسه، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده.

---

(١) البيان، جـ ١، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

إلا أن الناس في ذلك على طبقات من الغلط: فمنهم الغرق المغمور ومنهم مَن نال من الصواب، ونال من الخطأ.

ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف.

ولذلك احتاج العاقل في العجب بولده، وفي استحسان كتبه، وشعره من التحفظ والتوقّي، ومن إعادة النظر، والتهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك..»[1].

وداء الكذب يدفع بصاحبه للكذب، والتزيد، والإفراط والمبالغة، بل وأحياناً يصل إلى حدّ المحال الذي لا يمكن للعاقل قبوله إلا نادراً وهكذا نصل للسؤال التالي:

ب ـ متى يكون المحال مقبولاً؟

يجيبنا أبو عثمان على تساؤلنا بما يلي:

«وليس في الأرض خلق يغتفر في وصفه المحال غيره[2]، ولا يستحسن الهذيان سواة[3].

على أن من الهذيان ما يكون مفهوماً، ومن المحال ما يكون مسموعاً فمن جهل ذلك، ولم يعرفه، وقصّر، ولم يبلغه، فليسمع كلام اللهفان، والثكلان، والغضبان، والغيران، ومرّ قصة الصبيان و...»[4].

١ ـ وعليه يكون المحال هنا مقبولاً في مراحل التوتر النفسي والعاطفي

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ٢، ص ١٠٦.
(٢) الضمير يعود على النبيذ
(٣) ويعود الضمير هنا على شارب النبيذ.
(٤) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ في مدح النبيذ، ص ١٠٥.

عندما يفقد الإنسان السيطرة على أعصابه ويعود إلى طبيعته البدائية، وينسى تعقيد المجتمع مكرهاً أو عندما يخلو إلى نفسه ويناجي حبيبه دون رقيب. . .

٢ ـ وقد يقبل المحال بعض ضعاف النفوس من الأدباء الذين يقومون بتصوير الباطل بصورة الحق؛ لأنهم يلتزقون في مذاهبهم وهؤلاء نالوا من أبي عثمان ما يستحقون من تقريع ولوم وفضحٍ لألاعيبهم:

«نعم ومتى يكتب كتاب سعاية ومحل، وإغراق، فيلحن في إعرابه ويتسخّف في ألفاظه، ويتجنب القصد، ويهرب من اللفظ المعجب ليخفي حذّته.

ويستر موضع رفقه حتى لا يحترس منه الخصم، ولا يتحفظ منه صاحب الحكمة. . . بل ربما لم يرضَ باللفظ السليم حتى يسقمه ليقع العجز موضع القوة، ويعرض العيّ في محل البلاغة؛ **إذ كان حق ذلك المكان اللفظ الدون، والمعنى الغفل.**

هذا إذا كان صاحب القصة، ومؤلف لفظ المحل، والسعاية ممّن يتصرف قلمه، ويعلل لسانه، ويلتزق في مذاهبه.

ويكون في وسعه وصل لأن يحطّ نفسه في طبقة الذل، وهو عزيز، ومحل العيّ وهو بليغ، **ويتحول في هيئة المظلوم، وهو ظالم، ويمكنه تصوير الباطل في صورة الحق، وستر العيوب بزخرف القول»**[1].

وقال العجير السلولي:

وإن ابن زيدٍ لابنُ عمي وإنه لبلّالُ أيدي حلةِ الشولِ[2] بالدمِ

(١) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ من رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودّة والخلطة، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) قال الجاحظ: الشول: جمع شائلة، وهي الناقة التي جفّ لبنها، وإذا شالت بذنبها بعد اللقاح، فهي شائل، وجمعها شول.

طلوعُ الثنايا بالمطايا وإنه غداة المُرادي[1] لَلْخطيبُ المقدمُ
يسرك مظلوماً ويرضيك ظالماً ويكفيك ما حُمِّلتَهُ حين تغرُمُ

... وقال الآخر:

فتىً مثل صفو الماء ليس بباخلٍ عليك ولا مهدٍ ملاماً لباخلِ
ولا قائلٍ عوراءَ تؤذي رفيقه ولا رافعٍ رأساً بعوراء قائلِ
ولا مسلمٍ مولىً لأمرٍ يصيبه ولا خالطٍ حقاً مصيباً بباطلِ
ولا رافعٍ أُحدوثة السوء معجباً بها بين أيدي المجلس المتقابل
ترى أهله في نعمة وهو شاحب طَوِي البطن مخامص الضحى والأصائل

وكان أبو العباس الأعمى[2] يقول:

إذا وصف الإسلامَ أحسنَ وصفه بفيه، ويأبى قلبه ويهاجرُه[3]
وإن قام قال الحق ما دام قائماً تقي اللسان كافرٌ بعد سائرُه

وقال آخر:

ألا ربّ خصم ذو فنون علوته وإن كان ألوى[4] يشبه الحق باطله

فهذا هو معنى قول العتابي: البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق»[5].

٣ ـ يقبل الجاحظ الإفراط والمبالغة بشرطين هما:

---

(١) وقال الجاحظ: المُرادي: المصادم، والمقارع، يقال: رديتَ الحجر بصخرة، أو بمعول، إذا ضربتَه لتكسره، والمرادة: الصخرة التي تكسر بها الحجارة. قلت: والمراد هنا: مقارعة الخصوم ومضارعة الأكفاء.

(٢) هو السائب بن فروخ أبو العباس الأعمى مولى بني الديل، كان شاعراً فحلاً مجوداً من مقدمي شعراء بني أمية، ومن المتشيعين لهم، الذابّين عنهم، وله في مدحهم أشعار كثيرة.

(٣) قال الجاحظ: يقول: إنه يتيه عن قوله، ويأباه، ويهجره ويقول الحق على منبره بلسانه، وسائره كافر. تُرى كم لدينا منهم هذه الأيام؟!

(٤) ألوى: منافق في كلامه، مداور في أغراضه، مع شدة الخصومة، والسلاطة في الجدل.

(٥) البيان والتبيين، جـ ١ ص ٢٢٥ ـ ٢٤٣.

أ ـ ما كان في الناس.
ب ـ ما يجوز أن يكون منهم.

ويضرب مثلاً للمبالغة في وصف البخل، فقد أوضح أن المقبول من المبالغة هو الذي نتصور وقوعه منهم، أو ما كان موجوداً في الواقع، ولكن عندما نبعد في المبالغة إلى حدود لا غاية لها، فإن الجاحظ يرفضها، كما سنرى بعد قليل:

«وحديث سمعناه على وجه الدهر. زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غايته، وصار إماماً، وأنه ان إذا صار في يده الدرهم خاطبه، وناجاه، وفدّاه، واستبطاه... فلما مات وظنوا أنهم[1] قد استراحوا منه، قدم ابنه، فاستولى على ماله وداره، ثم قال: وما كان أدم أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام»

قالوا: «كان يتأدم بجبنة عنده».

قال: فهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد. **لو علمت ذلك ما صلّيت عليه**، قالوا: «فأنت كيف تريد أن تصنع؟ قال: **أضعها من بعيد، فأشِر إليها باللقمة**. ولا يعجبني ها الحرف الأخير؛ لأن الإفراط لا غاية له **وإنما نحكي ما كان في الناس، وما يجوز أن يكون فيهم مثله، أو حجة أو طريقة**، فأما مثل هذا الحرف، فليس مما نذكره، وأما سائر حديث هذا الرجل فإنه من هذه البابة»[2].

ولهذا السبب يعجب الجاحظ بأشعار المقتصدين الذين يلتزمون بحدود الاعتدال والقصد المقبول:

«ومن أشعار المقتصدين في الشعر أنشدني قطرب:

---

(١) الضمير يعود على أهل بيته.
(٢) البخلاء للجاحظ ـ تحقيق طه الحاجري، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

تـركـتُ الـرِّكـاب لأربـابـهـا فأجهدت نفسي على ابن الصَّعِقْ
جـعـلتُ يـديَّ وشـاحـاً لـه وبـعضُ الـفـوارسِ لا يـعـتـنـقْ

وممّن صدق على نفسه عمرو بن الإطنابة حيث يقول:

وإقـدامي على المكـروه نفسي وضـربي هامـة البـطل المشيـح(١)
وقـولي كلما جشـأتْ وجـاشت مكـانـك تحمـدي أو تستريحي

وقال قطري بن الفجاءة:

وقـولي كلمـا جشـأت لنفسـي من الأبـطال ويحـك لن تـراعي
فـإنك لـو سألتِ حيـاة يـومٍ سوى الأجل الذي لك لن تطاعي

وقال الخنسـاء:

يهين النفـوس، وهون النـفـوس غـداة الكـريهـة أبقى لـهـا»(٢)

وعليه يكون الجاحظ قد أعجب بصدق شاعري الخوارج لأنهما كانا صادقين في عقيدتهم، صادقين في الدفاع عنها، والجهاد في سبيلها، هذه الجماعة تتصف بالصدق وأول ما تتصف بالإخلاص الذي لا تشوبه شائبة ولذا جاء شعرهم صادقاً في التعبير عمّا يجيش في خلجات نفوسهم، بل لقد ذهب بهم الصدق أن ترجموا ما يمور في أعماق قلوبه البيضاء النقية التي لا تعرف النفاق ولم تتعرف إلى الرياء؟

وبسبب الاعتدال رضي عن قطرب والخنساء أيضاً.

جـ - متى يكون المحال مرفوضاً؟

كون المحال مرفوضاً في الحالتين الآتيتين:

(١) المشيحُ: المجدُّ، أو المقبل إليك، أو المانع لما وراء ظهره.
(٢) الحيوان، جـ ٦، ص ٤١٣ - ٤٢٩.

أ ـ عندما يكون المتحدث مسرفاً لدرجة لا يقبلها العقل أو المنطق؛ لأنها مخالفة للواقع مستحيلة:

«ولقد أسرف المتلمس حيث يقول:

أحارث إنّا لو تساط[1] دماؤنا[2] تزايلن حتى لا يمسَّ دمٌ دما

وأشد سرفاً منه أبو بكر الشيباني حيث يقول: كنت أسير مع بني عم لي، وفينا من موالينا جماعة في أيدي التغالبة[3]، فضربوا أعناق بني عمي، وأعناق الموالي على وهدة من الأرض، فكنت ـ والذي لا إله إلا هو ـ أرى دم العربي يمتاز من دم المولى، حتى أرى بياض الأرض بينهما، فإذا كان هجيناً[4] قام فوقه، ولم يعتزل»[5].

وهكذا كذب الجاحظ الرجل رغم قسمه، لأنه كان يقول ما لا يقبله العقل؛ فهو في حكم المستحيل منطقياً وواقعاً. وفي مثال آخر يقول الجاحظ:

«والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال:

يخفي التراب بأظلاف ثمانية ومسُّهنّ إذا أقبلن تحليلُ[6]

وقال الآخر[7]:

(١) تساط: تختلط.
(٢) تزايلن: افترقن.
(٣) التغالبة: بنو تغلب.
(٤) الهجين: هو الذي يولد من أب عربي، وأم غير عربية، والغالب أن تكون أمة.
(٥) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٦١.
(٦) القائل هو عبدة بن الطيب يذكر ثوراً يحفر كناساً، ويستخرج ترابه، فيظهره التحليل من تحله اليمين، أي الاستثناء في الحلف وهي أن يقول الحالف إثر حلفه: إن شاء الله قال العسكري يقول: إن مواصلة هذا الثور بين خطواته، كمواصلة الحالف بالتحلّة يمينه من غير تراخٍ.
(٧) الشاعر هو خلف الأحمر يصف الثور.

وكأنما جهدت[1] أليته[2] ألا يمسّ الأرض أربَعُه[3]

فأفرط المولدون في صفة السرعة، وليس ذلك بأجود. فقال شاعرهم يصف كلبه بسرعة العدو كأنما ترفع ما لم يوضع وقال الحسن بن هانىء:

.... ما إن يقعن الأرضَ إلا فَرَطا»[4]

٢ - ويلوم الجاحظ الأديب الذي يبلغ الغاية في الإسراف والمبالغة، ويطلب البُعد عنها قدر الإمكان: «فإن النسور تتبع العسكر، وتتبع الرفاق ذوات الإبل، وقد تفعل ذلك العقبان، وتفعله الرخم... وقد أكثر الشعراء في هذا الباب، حتى أطنب بعض المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد فقال:

يكسوب السيوف نفوس الناكثين[5] به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل[6]
قد عوَّد الطير عاداتٍ وثقن بها فهنّ يتبعنه في كل مرتحل

ولا تعلم أحداً منهم أسرف في هذا القول، وقال قولاً يرغب عنه إلا النابغة فإنه يقول:

جوانح قد أيقنَّ أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالبِ

وهذا لا نثبته، وليس عند الطير، والسباع في اتباع الجموع إلا ما يسقط من ركابهم، ودوابهم، وتوقع القتل؛ إذ كانوا قد رأوه من تلك الجموع مرة أو مراراً.

---

(١) جهد: من باب قطع: جد وبالغ.
(٢) الألية: اليمين والقسم.
(٣) أربعة قوائمه الأربعة.
(٤) الحيوان للجاحظ، جـ ٢، ص ٣٤ - ٣٥.
(٥) الناكثين: الناقضين للعهد.
(٦) الذبل: جـ ذابل، وهو القنا الدقيق اللاصق القشر.

فأما أن تقصد بالأمل، واليقين إلى أحد الجمعين، فهذا ما لم يقله أحد»[1].

وينتقل عمرو بن بحر بنا إلى وصف الطعنة والضربة: «وقال ابن هرمة:

بالمشرفية والمَظَاهر نسجُها[2]   يوم اللقاء وكلِّ وَرْدٍ صاهلِ
وبكل أروع كالحريقِ مطاعنٍ   فمسايف[3] فمعانق فمنازل

وإذ قد ذكرنا شيئاً من الشعر في صفة الضرب، والطعن، فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف واقتصاد من اقتصد، **فأما مَن أفرط فقول المهلهل:**

فلولا الريحُ أُسْمِعَ مَنْ بحجرٍ   صليلُ البيض تُقْرع بالذكور[4]

وقال الهذلي[5]:

والطعنُ شغشغةٌ[6] والضربُ هيقعةٌ[7]   ضربَ المعوِّل[8] تحت الديمةِ العَضَدا[9]
وللقسي أزاميل[10] وغمغمة   حِسَّ الجنوبِ[11] تسوق الماء والقَرَدا[12]

---

(1) الحيوان للجاحظ، جـ ٦، ص ٣٢٢ - ٣٢٨.

(2) عنى بالمظاهر نسجها: الدروع قد طورقت.

(3) تسايفوا: تقاتلوا بالسيوف.

(4) قال المرزباني في الموشح (٧٤) عن دعبل بن علي الخزاعي قال: أكذب الأبيات قول مهلهل:

فلولا الريح أسمع أهل حجر   صليل البيض تقرع بالسيوف

قال: وكان منزله على شاطىء الفرات من أرض الشام، وحجر هي قصبة اليمامة.

(5) هو عبد مناف بن رِبْع الجُرَبي، شاعر جاهلي من شعراء هذيل. ورِبْع بكسر الراء بعدها باء موحدة ساكنة. الجُربي كقُرَشي: نسبة إلى جُرَيب كَقريش: بطن من هذيل.

(6) الشغشغة تحريك السنان في المطعون ليتمكن منه.

(7) الهيقعة: صوت السيوف

(8) المُعَول. بكسر الواو المشددة: التي يتخذ العالة، وهي شجر يقطعه الراعي، والرامي يستظل به من المطر.

(9) العَضَد بالتحريك: ما قطع من الشجر.

(10) أزاميل: جمع أزمل وأزملة: رقيق القسي.

(11) الجنوب. ريح تقابل الشمال. وحِسَّها: بالكسر صوتها ورنتها.

(12) القَرَد: بالتحريك: هنات صغار تكون دون السحاب لم تلتئم. وككتِف السحاب المتلبد

ومن ذلك قول عنترة:

برحيبةِ الفَرْغَيْن[١] يَهْدي جرسُها[٢]   بالليل معتسٌّ[٣] السِّباع الضرَّم[٤]

وقال أبو قيس بن الأسلت[٥]:

قــد حصت البيضــة رأسي فمــا   أطعــم نــومــاً غيــر تــهــجــاع

وقال دريد بن الصمّة:

أعــاذل إنــمــا أفــنــى شــبــابــي   ركوبي في الصريخِ[٦] إلى المنادي
مــع الفتيان حتى خــلَّ[٧] جسمي   وأقــرح[٨] عــاتقي حمــلُ النجـاد

ومما يدخل في هذا الباب قول عنترة:

رعناهم[٩]، والخيل تَرْدي[١٠] بالقنا[١٠]   وبكل أبيضَ[١١] صارمٍ قصالِ[١٢]

---

(١) الفَرْغ: مفرغ الدلو.
(٢) الجرس: الصوت.
(٣) اعتسَّ الذئب والسبع: طلب الصيد، وبغاه.
(٤) الضرّم: الجياع، مفردها، ضارم.
(٥) الأسلت لقب أبيه، واسمه عامر بن جشم ينتهي نسبه إلى الأوس وهو شاعر من شعراء الجاهلية. قال هشام بن الكلبي: كانت الأوس قد أسندوا أمرهم في يوم بغاث إلى أبي قيس بن الأسلت فقام في حربهم، وآثرها على كل أمر حتى شحُب وتغير، ولبث أشهراً لا يقرب امرأته. ثم إنه جاء ليلة، فدقّ، ففتحت له، فأهوى إليها بيده، فأبعدته، وأنكرته، فقال: أنا أبو قيس فقالت: والله ما عرفتك حتى تكلمت، فقال في ذلك القصيدة التي أولها:

قــالــت ولمقتصــد لقيــل الخنــا   مــهــلاً فــقــد أبــلــغــت أســمــاعــي
اســتــنــكــرت لــونــاً لــه شــاحــبــاً   والــحــربُ غــول ذاتُ أوجــاع

(٦) الصريخ: المغيث، عنى الجماعة امذين ينهضون لإغاثة مَن ينادي بالاستغاثة.
(٧) خلّ جسمي: وهن وفسد.
(٨) أقرحه: أحدث به قروحاً، وهي الجراحات.
(٩) رعناهم: من الروع: وهو الخوف، والفزع.
(١٠) تردي بالقنا: تعدو بالرماح، والرديان: ضرب من العدو.
(١١) الأبيض: السيف.
(١٢) القصّال: القطاع.

وأنـــا المنيــة في المــواطن كلهــا   والـطعنُ مني سـابقُ الآجــال»[1]

وهكذا رأينا موقف الجاحظ الذي يرفض القبول بالإسراف الذي يبلغ الغاية، ولا يمكن أن يقبله العقل، ولهذا أخـذ على مهلهل إسرافه بسبب بُعد المسافة التي سيصل عبرها صوت الضرب بالسيوف، وصليلها بين شواطىء الفرات والجزيرة العربية.

وكذا لم يرضَ عن مبالغة الجُرَبي الهذلي، ولا إسراف عنترة الذي بلغ الغاية في الإسراف عندما ذهب إلى القول بأن صوت ضرباته يهدي السباع الجائعة وهي تبحث عن طعام من جثث قتلاه. أو عندما جعل طعناته تسبق الآجال، فقد خرج إلى المحال!

وتبقى مبالغة كلٍّ من أبي قيس بن الأسلت، ودريد بن الصمّة أقرب إلى الواقع من مبالغات عنترة، وإسرافه البعيد، وقد مرّ معنا قبل قليل في وصف البخيل قول الجاحظ عندما كان الراوي قد أفرط وبالغ إلى حد بعيد لا غاية له لدرجة أنه جعل البخيل يكتفي بأن يشير للجبنة من بعيد، فهذا الوصف فيه مبالغة في الوصف بالبخل مفرطه رفض أبو عثمان قبولها:

«ولا يعجبني هذا الحرف الأخير؛ لأن الإفراط لا غاية له... فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره»[2] واضح أن المبالغات المفرطة يجب ألّا تقع وإلا كان مصيرها الإهمال والتقريع من عمرو بن بحر.

د ـ تلخيص موقف الجاحظ من الأخلاق عامة:

يتضح موقفه من هذه القضية في أنه يفضل الصدق عامة ويدعو له وإن كان قد تسامح في بعض المواقف التي مرّت معنا منها:

---

(١) الحيوان، جـ ٦، ص ٤١٣ - ٤٢٩.

(٢) البخلاء للجاحظ ـ تحقيق طه الحاجري، ص ١٣١ - ١٣٢.

١ ـ مراحل التوتر النفسي والعصبي عندما يكون الإنسان في حالة فقدان التوازن العاطفي.

٢ ـ عندما يقبل الأديب على نفسه أن يصوّر الحق بصورة الباطل ويخون أمانة الكلمة.

٣ ـ يقبل بعض المبالغات بشرطين:

أ ـ ما كان من الناس.

ب ـ ما يجوز أن يكون منهم.

وفيما عدا هذه المواقف، **فإنه مع الصدق؛ لأن الكلمة أمانة** ويجب أن نرعى حقها:

«ولا نرى بالغناء بأساً، إذ كان أصله شعراً مكسوّاً نغماً، **فما كان منه صدقاً فحسن، وما كان منه كذباً فقبيح**. وقد قام النبي عليه السلام: «إن من الشعر لحكمة» وقال عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه: **«الشعر كلام فحسنه حسن، وقبيحه قبيح»**.

ولا نرى وزن الشعر قد أزال الكلام عن جهته، فقد يوجد، ولا يضرّه ذلك، ولا يزيد منزلته من الحكمة»[1]. وإذن فالأدب الحق والشاعر الصحيح يوقف شعره للحكمة. وهو يعلّل إيثاره للصدق بأن الأديب الصادق أقدر على تبليغ أفكاره، وذلك بتأثير العدوى العاطفية التي يتحسسها القارىء فتنتقل إليه عبر السطور عندما يكون صادقاً، بينما يظل القارىء محايداً عندما يكون الكاتب الأديب كاذباً في عواطفه بعيداً عن الصدق:

«وقال عامر بن عبد قيس: **الكلمة إذا خرجت من القلب، وقعت في القلب. وإذا خرجت من اللسان، لم تتجاوز الآذان»**[2].

(١) رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام محمد هارون، جـ ٢، كتاب القيان، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

ورغم إيمان الجاحظ بدور الكلمة في بناء المجتمع، ونشر الحكمة، فهُو أديب ذوّاقة يعجب بالصورة البديعة الجميلة فيدفعه الإعجاب بالصورة إلى أن يتسامح مع صاحبها رغم مخالفته للأخلاق، إنه في هذه الحالة **يضحّي بالأخلاق عندما تتحقق الفنية الجمالية على شكل معجب مبدع** والضرورات تبيح المحظورات **فهو هنا مخلص لقلبه وذوقه أكثر من أخلاصه لعقله ومنطقه**.

«وأنشدنا أصحابنا عن بعض الأعراب وشعرائهم أنه قال في أُمه:

فما أُم الردين وإن أدلتْ[1] بعالمة بأخلاق الكرام
إذا الشيطان قصَّع[2] في قفاها تنقفناه[3] بالحبل التوأم

يقول: إذا دخل الشيطان في قاصعاء قفاها، تنقفناه، أي أخرجْناه من النافقاء بالحبل المثنى.

وقد مثل، **وقد أحسن في نعت الشعر، وإن لم يكن أحسن في العقوق**»[4].

ومثال آخر شبيه به ما رواه عمرو بن بحر:

«وما علمت في العرب قبيلة من جميع ما هجيت به ما لقيت نمير من بيت جرير.

ويزعمون أن امرأة مرّت بمجلس من مجالس بني نمير، فتأملها ناس منهم، فقالت: يا بني نمير، لا قول اللّه سمعتم، ولا قول الشاعر أطعتم! قال اللّه تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ﴾[5]. وقال الشاعر:

---

(١) أدلت: انسطت، أو وثقت بمحبته، فأفرطت عليه.
(٢) قصَّع: أصله من قصَّع الضب: دخل في قاصعائه.
(٣) تنقفناه: استخرجناه كما يستخرج اليربوع من نافقائه.
(٤) الحيوان، جـ ٦، ص ٣٩٦ - ٣٩٧
(٥) من سورة النور. الآية ٢٤.

فغضّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وأخلق بهذا الحديث أن يكون مولداً، ولقد أحسن من ولده»[1].

وعليه فإن أبا عثمان يتسامح في الكذب هنا من أجل جودة الكلام، وحسن أداء المعنى.

وقد رأيناه قبل قليل يتسامح في العقوق من أجل جمال الصورة الفنية وإكراماً لشاعر مبدع، تناسى أبو عثمان دور الأخلاق، وتغافل عن الكذب.

أما إذا كان الأدب عادياً أو قريباً من الجيد فليكن معه الجاحظ متشدداً لا يتسامح في كذب ولا مبالغة، فالصدق ينبغي أن يتحقق في أدب كاتب عادي، ولكن العبقري المبدع يتسامح معه أبو عثمان ما دام الوصف ممكناً أو ما دامت الصفة موجودة لدى الموصوف.

والجاحظ هنا يأخذ دور العبقري الفذّ الذي يحترم العبقرية المبدعة فينحني أمامها ويعترف لها بالفضل، ويتنازل من أجلها عن كثير من مبادىء الأخلاق أو المنطق العقلي.

وقد بلغ من إخلاص الجاحظ لذوقه الفني المرهف حدّاً جعله يسامح الجواري الظراف باللحن في كلامهنّ، بل قال إنه يراه منهنّ جميلاً مليحاً، وهل بعد استملاحه اللثغ من الجارية، المجدولة المقدودة، حديثة السن، ويبقى هذا الاستحسان قائماً ما دامت في ريا شبابها، فإذا انقلبت عجوزاً شمطاء عاد لمطالبتها بما سامحها به فتاة طرية!؟!

«واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهنّ، **ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف.**

---

(١) البيان، جـ٣، ص ٣٦٠.

ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد، وكما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن، ومقدودة مجدولة، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح.

وربما كان اسم الجارية: غُليم، وصبية، أو ما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة، وعجوزاً شهلة وحملت اللحم، وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالاً، وبناتها نساءً، فما أقبح حينئذٍ أن يقال لها: يا غليم كيف أصبحت، ويا صبية كيف أمسيتِ؟!».

أي إخلاص أكثر من هذا الإخلاص للفن الجميل وأهله يدفع بأبي عثمان أن يغفر للوجه الجميل والقدّ الميّاس أن يكسر اللغة، ويهشم قواعدها ما دامت صاحبة القدّ غضّة طرية، فإذا ما اكتهلت سحبت منها تلك الرخصة؛ فقد زال الذي كان قد شفع لها، أو تلاشى!؟

بل لقد بلغ من إعجابه بالنادرة الحلوة أن يرويها كما هي وإن كانت صاحبة النادرة عجوزاً سندية تلحن ولكن النادرة بحد ذاتها شفعت لعجوز شمطاء وجعلته يرويها مستملحاً:

«ولقد ركبت عجوز سندية ظهر بعير، فلما أقبل بها وطمر[٢] فمخضها[٣] مخض السقاء، وجعلها مرّة كأنها ترهز[٤] فقالت بلسانها - وهي سندية أعجمية -:

أخزى اللّه هذا الذمل؛ فإنه يذكر بالسرِّ؟ تريد: أخزى اللّه هذا الجمل؛ فإنه يذكر بالشر. حدّثنا بهذه النادرة محمد بن عباد بن كاسب..»[٥].

---

(١) البيان والتبيين، جـ١، ص ١٧٢ - ١٧٤

(٢) طمر: وثب.

(٣) المخض: الخضّ الشديد.

(٤) رهزها: حركها فارتهزت هي.

(٥) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٢٩٢.

الفصل الثاني

الواقعية في الأدب

أ ـ المقـــدمة :

يرى أبو عثمان أن البيان نعمة من اللّه تعالى على عبده، واللسان أداة البيان يرى فيه الجاحظ عشر فوائد على النحو التالي :

«قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

يا أمير المؤمنين، في اللسان عشر خصال:

أداة يظهر بها البيان،
وشاهد يخبر عن الضمير،
وحاكم يفصل بين الخطاب،
وناطق يُرَدُّ به الجواب،
وشافع تدرك به الحاجة،
وواصف تعرف به الأشياء،
وواعظ يعرف به القبيح،
ومَعَزٍ يردُّ به الأحزان،
وخاصة يُزهى بالصنيعة،
ومله يونق الأسماع. . .»[1].

(١) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الجزء الأول رسالة صناعة القواد، ص ٣٧٩.

وعليه يجب على الإنسان أن يتقن اللغة أولاً، وخصوصاً إذا كان عربياً مسلماً، يعدّ نفسه ليعدّ بين العلماء، أو بين المتكلمين؛ لأن المعرفة الدقيقة بأسرار اللغة تساعد المرء على حسن استعمال اللسان:

«. . . فللعرب أمثال، واشتقاقات، وأبنية، ومواضع كلام، يدل عندهم على معانيهم، وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أُخر، ولها حينئذٍ دلالات أُخر.

فمَن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنّة، والشاهد **والمثل، فإذا نظر في الكلام، أو في ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك، وأهلك**»[1].

على أن أبا عثمان ينصح بألّا يقتصر المرء على الاهتمام بناحية معينة من نواحي العلوم، بل لا بدّ من تنويع المعارف والأخذ من كل علم بطرف، حتى يستطيع المشاركة في الحديث مع العلماء من مختلف الاختصاصات، ويفهم مناظراتهم لذلك وجّه النصيحة إلى المعتصم باللّه قائلاً:

«فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب؛ فإنك إن أفردتهم بشيء واحدٍ ثم سئلوا عن غيره، لم يحسنوه.

وذلك أني لقيت حزاماً[2] حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك فقال: لقيناهم في مقدار صحن الاصطبل، فما كان بمقدار ما يحسُّ[3] الرجل دابته، حتى تركناهم في أضيق من ممرقة، وقتلناهم. فجعلناهم كأنهم أنابير[4] سرجين، فلو طُرِحَتْ روثة، ما سقطت إلا على ذنب دابّة.

وعمل أبيات الغزل فكانت:

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) في جمع الجواهر: «وذلك ن حِزاماً كان صاحب خيلك حين سألته عن الوقعة ببلاد الروم».

(٣) حسَّ الدابّة يحسها حسّاً؛ نفض عنها التراب، وذلك إذا فرجنها بالمحسّة.

(٤) الأنابير: الأكداس جمع أبنار وهذه جمع نِبر بالكسر. .

إن يهدم الصدُّ من جسمي معالفه فـإن قلبي بقت[1] الوجـد معمـورُ
إني امرؤ في وثاق الحب يكبحه لجامُ هجرٍ على الأسقام معذور[2]
علّل بجُـلٍّ نبيلٍ من وصـالك أو حُسْنُ الرقاع؛ فإن النوم مأسورُ[3]
أصاب حبلَ شكالِ الوصل حين بدا ومبضـع الصـدِّ في كفّيـه مشهـور
لبستُ بُـرقع هجـرٍ بعد ذلـك في اصطبل ودٍّ فروث الحبِّ منثورُ»[4]

ومن هنا يصل بنا أبو عثمان إلى توضيح المسألة التالية:

ب ـ الناس طبقات وكذلك كلامهم ولكل ضناعة ألفاظ ألصق بها:

ولهذا نرى عمراً بن بحر يستمر في رسالته «في صناعة القواد»[5] فيسأل بختيشوع الطبيب عن مثل ذلك...

ثم يسأل جعفراً الخياط عن مثل ذلك...

قال وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك ـ وكان زراعاً ـ فقال...

قال وسألت فرجاً الرُّخجي عن مثل ذلك ـ وكان خبازاً ـ فقال:

لقيناهم في مقدار بيت التنور، فما كان بقدر ما يخبز الرجل خمسة أرغفة، حتى تركناهم في أضيق من حَجَر تنور، فلو سقطت جمرة، ما وقعت إلا في جفنة خباز.

وعمل أبياتاً في النزل فكانت:

قـد عجم الهجـر دقيق الهـوى فـي جفنـةٍ من خشب الـصـدِّ

---

(١) القت: الفصفصة، وهي من علف الدواب.
(٢) عذر الدابة عذراً. شدّ عليها العذار، وهو السير الذي يكون عليه اللحام.
(٣) المأسور: المشدود بالإسار، وهو الحبل.
(٤) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الحزء الأول رسالة في صناعة القواد ـ انظر بالتفصيل من ٣٨٩ ـ ٣٩٣
(٥) انظر بالتفصيل المصدر السابق من ص ٣٧٩ ـ ٣٩٣.

واختمر البين فنار الهوى تُذكى بسرجين من البعد
وأقبل الهجر بمحراكه يفحص عن أرغفة الوجد
جرادق[1] الموعد مسمومة مشرودة في قصعة الجهد

قال: وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبي داود عن مثل ذلك ـ وكان مؤدباً ـ فقال. . .

وهكذا يسأل أبو عثمان صاحب الحمام: ومن كان كناساً، أو صاحب شراب، أو مَن كان فرّاشاً، هم يجيبون بوصف يشي بمهنة كلٍّ منهم، ويعمل أبياتاً في الغزل لا نشك أنها من تدبيج قلم أبي عثمان حتى قال:

«قال: فضحك المعتصم، حتى استلقى، ثم دعا مؤدب ولده، فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم»[2]. ولهذا يعود الجاحظ للتأكيد على هذه الناحية الهامة التي ينبغي التنبه لها فيقول:

«وكما لا ينبغي أن يون اللفظ عاميّاً، ساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً؛ فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي.

وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج والخفيف والثقيل. وكله عربي، وبكلٍ قد تكلموا، وبكلٍّ قد تمادحوا وتعايبوا. . .

إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني.

كما أن النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً.

---

(١) الجرادق: جمع جردق، وهو الرغيف، فارسي معرب.
(٢) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ جـ ١، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٣.

وإنما الكرب الذي يـخيم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس: النادرة الفاترة التي لا هي حارّة، ولا باردة. وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط. إنما الشأن في الحار جداً، والبارد جداً.

وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول: واللَّه لفلان أثقل من مغنٍّ وسط، وأبغض من ظريف وسط»[1].

ولذا أعجب الجاحظ بأعرابي جلف تكلم على فطرته دون تصنع أو تكلف وأحب كلامه، بل ومازحه ما دام الرجل صادقاً مع نفسه منسجماً مع بيئته لا يدّعي ما ليس له من قشور الحضارة.

«قال: وقلت مرة لعبيد الكلابي ـ وأظهر من حب الإبل، والشغف بها ما دعاني إلى أن قلت له ـ؛ أبينها وبينكم قرابة؟ قال: نعم، لها فينا خؤولة.

إني واللَّه ما أعني النجاتي، ولكني أعني العِراب التي هي أعرب!

قلت: «مسخك اللَّه تعالى بعيراً!».

قال: لا يمسخ اللَّه الإنسان على صورة كريم، وإنما يمسخه على صورة لئيم، مثل الخنزير، ثم القرد.

فهذا أعرابي جلف[2] تكلم على فطرته»[3].

وإذا كان هذا البدوي جافي الطبع جفاء صحرائه، لدرجة الشغف بالإبل والهيام بها، كما يهيم ابن الحاضرة بالحسناء المجدولة ـ كما فعل الجاحظ مثلاً ـ فقد ذهب معه الجاحظ إلى حدّ المداعبة والممازحة فجعل يسأله إن كانت له قرابة بينها؟!

فلقد أوضح أبو عثمان أن لكل طائفة من الناس مجموعة من الألفاظ

---

(١) البيان، جـ١، ص ١٧٠ ـ ١٧٢.
(٢) الجِلف بالكسر: الرجل الجافي.
(٣) الحيوان للجاحظ، ص ١٠٠.

تهتم بها أكثر من غيرها، فتدور في كلامها؛ بسبب كثرة حاجتهم لها، وقربها من قلوبهم، والتصاقها بطبائعهم:

«ولكل قومٍ ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلامٍ منثورٍ، وكل شاعرٍ في الأرض، وصاحب كلامٍ موزونٍ فلا بدّ من أن يكون قد لهج، وألّف ألفاظاً بأعيانها؛ ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم، غزير المعاني، كثير اللفظ فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم، التناكح، والنتائج، والمَزاج، والنور، والظلمة، والدقّاع، والمنّاع والساتر والغامر، والمُنحلّ، والبطلان والوجدان، والأثير، والصدّيق[1]، وعمود السبح[2]، وأشكالاً من هذا الكلام. فصار وإن كان غريباً مرفوضاً مهجوراً عند أهل ملّتنا، ودعوتنا وكذلك عند عوّامنا، وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخواص والمتكلمون»[3].

جـ ـ اللحــن:

١ ـ **متى يكره اللحن؟** يطرب الجاحظ للنادرة الحلوة، والنكتة الذكية البارعة، ويعذر الذكاء والجمال إذا اجتمعا، فيتسامح معهما باللغة وقواعدها، ويبرز ذوّاقة مرهف الحس ينسى عقله ومنطقه أمام عظمة الإبداع الجميل لذلك قال أبو عثمان: «وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك، ومُلْهٍ، وداخل في باب المزاح، والطيِّب[4]، فاستعملت فيه الإعراب، انقلب عن

(١) الصدّيق: يعنون به المؤمن الخالص الإيمان، وفي اعتقاد المانوية أن الصديق حين يحتضر يحضره أربعة آلهة، ومعهم ركوة، ولباس، وعصابة، وتاج، وإكليل النور فيلبسونه التاج والإكليل، ويعطونه الركوة بيده، ويعرجون به في عمود السبح إلى فلك القمر.

(٢) السبح يراد به الخروج والصعود إلى السماء. وفي ذلك العمود الوهمي ترتفع التسابيح، والتقاديس، والكلام الطيب، وأعمال البر، ذلك ما قاله ماني.

(٣) الحيوان، جـ ٣، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٤) الطِّيب: بمعنى الهذل والفكاهة.

جهته، وإن كان لفظه سخيفاً، وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسرّ النفوس يكربها؛ ويأخذ بأكظامها»[١].

وعليه فقد عاد عمرو بن بحر للقول من جديد:

«ومتى سمعت ـ حفظك اللّه ـ بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها؛ فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين، والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير[٢].

وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوّام، ومُلحة من مُلح الحشوة، والطَّغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها حسناً، أو تجعل لها من قلبك مخرجاً سرياً[٣]، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها ومن الذي أُريدت له، ويُذهب استطابتهم إياها، واستملاحهم لها.

ثم اعلم أن أقبح اللحن، لحن أصحاب التقعير، والتعقيب، والتشديق، والتمطيط، والجهورة، والتفخيم، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طريق السابلة، وبقرب مجامع الأسواق...»[٤].

وعليه يكون اللحن مكروهاً في المواضع التالية:

أ ـ عند حكاية نادرة من كلام الأعراب.

ب ـ أقبح مما تقدم لحن أصحاب الصنعة المتكلفين من المتشدقين المتفيهقين.

جـ ـ ولكن أقبح من كل لحن ما يكون من الأعاريب الذين كثر احتكاكهم بالحضر؛ بحكم نزولهم قرب الطرق، ومجامع الأسواق.

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٣٩.
(٢) يعني أنك تحرج من هذه الحكاية خائباً غير بالغ قصدك منها واستخفّ بك السامعون لها.
(٣) سرياً: فخماً شريفاً.
(٤) البيان والتبيين للجاحظ، جـ١، ص ١٧٢ ـ ١٧٤.

والآن نصل إلى السؤال الثاني:

٢ - **متى يتسامح الجاحظ باللحن؟** طبيعة الجاحظ المرهفة، وروحه الشفافة تجعله ضعيفاً أمام الجمال الأُنثوي فينسى أمام حديثات السن منهنّ نفسه، ويتناسى منطقه، وقواعد اللغة التي يحرص عليها:

«**واللحن من الجواري الظِراف، ومن الكواعب النواهد ومن الشوابّ المِلاح**، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهنّ **ما لم تكن الجارية صاحبة تكلّف، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد، وكما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن، ومقدودة مجدولة فإذا أسنَّت، واكتهلت تغير ذلك الاستملاح**.

وربما كان اسم الجارية غليم، وصبية، أو ما أشبه ذلك فإذا صارت كهلة جزلة، وعجوزاً شهلة، وحملت اللحم، وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالاً، وبناتها نساءً، فما أقبح حينئذٍ أن يقال لها: يا غليمُ، كيف أصبحت، ويا صبية كيف أمسيتِ؟!

ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أُم الفضل، وقالت أُم عمرو، وذهبت أُم حكيم، نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدم في تلك الكِنى[1]، وقد فسرنا ذلك كله في كتاب «الأسماء والكِنى والألقاب، والأنباز».

وقد قال: مالك[2] بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه:

أَمُغطىً مني على بصري للحُـ ـبِّ أم أنتِ أكملُ الناسِ حُسنا
وحديثٍ ألذُّه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا

---

(١) التقدم هنا معناه: المبالغة والإكثار من هذه الكِنى حتى كادت تعمهنّ.

(٢) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن الفزاري، كانت أُسرته من أمجد أُسر العرب، وكان مالك من أنبلها ولّاه الحجّاج أصبهان، وتزوج أخته هند بنت أسماء وكان أميراً سرياً، وشجاعاً كريماً، وشاعراً بليغاً، إلا أنه كان مولعاً بالشراب، وله مع الحجاج خطوب وأحداث.

منـطق صـائب وتلحن[2] أحيـا نًا وأحلى الحديث ما كان لحنا»[3]

وعليه يمكن أن نرى اللحن مقبولاً لدى عمرو بن بحر في المواضع التالية:

١ ـ من الجواري الظِراف ومن الشواب الملاح؛ لأن جمال خلقهنّ يشفع لهنّ لديه.

٢ ـ يتسامح باللثغ واللحن معاً من اللثغاء المقدودة المجدولة حديثة السن فقط. فإذا كبرت لم يعد جائزاً، ولا عذر لها عنده!.

٣ ـ يقبل اللحن عند حكاية نوادر المولدين والبلديين لأن الإعراب يفسد نادرتهم ويحوِّلها عن صورتها ويقلب المعنى.

«وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً، أو كلاماً غير معرب، ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنه إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغِّض هذا الباب، ويخرجه من حدّه. إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء، وأشعار العلماء كسهل بن هارون، وأشباهه»[3].

والسبب يقدِّمه أبو عثمان واضحاً تماماً:

«وأنا أقول إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام، إنما أعجبته تلك الصورة، وذلك المخرج، وتلك اللغة، وتلك العادة، فإذا دخَّلت على هذا الأمر ـ الذي إنما أضحك بسخفه، وبعض كلام العجمية التي فيه ـ حروف الإعراب، والتحقيق، والتثقيل، وحوّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل

---

(١) المراد باللحن هنا: الوحي والتورية. قال أبو سعيد السيرافي: ما عرفت حقيقة معنى النحو، إلا من معنى اللحن الذي هو ضده، فإن اللحن عدول عن طريق الصواب، والنحو: قصد إلى الصواب.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، ص ١٧٢ ـ ١٧٤.

(٣) البخلاء للجاحظ ـ تحقيق طه الحاجري، ص ٤٠.

المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته»[1].

وهكذا يوضّح عمرو بن بحر بجلاء أن المعنى مرتبط بصورة تركيب الجملة، وأن أيّ تبديل بصورة تركيبها، لا بدّ أن ينعكس على المعنى، بل وأحياناً يقلب المعنى.

ومن هنا كان الجاحظ منسجماً مع نفسه عندما روى نادرة لعجوز سندية لحنت، ولكنها أدّت معنىً جميلاً استملحه الجاحظ فغفر لها ما وقعت فيه من لحن:

«ولقد ركبت عجوز سندية ظهر بعير، فلما أقبل بها هذا البعير، وطمر[2] فمخضها مخض[3] السقاء وجعلها مرّة كأنها ترهز[4] فقالت بلسانها ـ وهي سندية أعجمية ـ:

أخزى اللّه هذا الذمل؛ فإنه يذكر بالسّرّ! تريد أخزى اللّه هذا الجمل؛ فإنه يذكر بالشرّ»[5].

د ـ لا حياء في العلم، ويجب تسمية الأشياء بمسمياتها:

وهذه مسألة ترتب منطقياً على ما تقدم من بحث موقف عمرو بن بحر في اللحن، وتمسكه بالواقعية في رواية النادرة سواءً أكانت من أعرابي جلف تكلم مع أبي عثمان فمازحه، واستطيب حديثه، أو عندما روى لحناً لعجوز سندية، فالمهم الصدق والواقعية في رواية النادرة كما هي؛ لأن أي تغيير في صورة النادرة يؤدي حتماً إلى تغيير مماثل في معناها، بل ويقلب المعنى كلية في بعض الأحيان.

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ١ ص ٢٨٢.
(٢) طمر: وثب.
(٣) المخض: الخضّ الشديد.
(٤) رهزها: حرّكها فارتهزت هي.
(٥) الحيوان للجاحظ، جـ ٣، ص ٢٩٢.

من هذا المنطلق دعا عمرو بن بحر إلى تسمية الأشياء بمسمياتها، ولم يوافق عامة الناس على ما يدعونه من حياء، ويظهرونه من ورع لا يصدقه أبو عثمان، وخصوصاً تسمية الأعضاء التناسلية وما يرتبط بمسألة التكاثر؛ لأن الأمر هنا يتعلق بالعلم، ولا حياء بالعلم، فمن الأصح أن نسمي الأعضاء بأسمائها التي وضعت لها، وأن نعبّر عن الأشياء بمسمياتها:

«وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحِر، والأير، والنيك ارتدع، وأظهر التقزّز، واستعمل باب التورع، **وأكثر من نجده كذلك، فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل، والوقار، إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ولم يُكْشف قطّ صاحب رياء، ونفاق إلا عن لؤمٍ مستعمل ونذالة متمكنة. .»**[1].

«ولو كان ذلك الموضع موضع كناية هي المستعملة، وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأي ألّا يلفظ بها، لم يكن لأوّل كونها معنى إلا على وجه الخطأ، لكان في الحزم والصون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها. وقد أصاب كل الصواب الذي قال: لكل مقام مقال. .»[2].

وعليه نرى أبا عثمان يفضل استعمال الكلمات التي تدل على الأعضاء التناسلية بأسمائها مع ما يتصل بها ويستند على الحجج التالية:

١ ـ لا داعي للنفاق والرياء وإظهار العفاف أكثر من اللازم؛ فهذا دليل على النذالة واللؤم.

٢ ـ لقد وجدت هذه الألفاظ لتعبّر عن المعاني التي تلزمنا في حياتنا، ولو كانت موضع ريبة لوجب حذفها من اللغة العربية صوناً لها، ولكن لكل مقام مقال.

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٤٠.
(٢) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٤٣.

٣ ـ إن أدعياء الورع المزيف يلزمهم الجاحظ أن يقتدوا بالمأثور من كلام السلف الصالح الذين استعملوا هـذه الألفاظ بعينهـا وأولهم ـالنبي محمد ﷺ فقد روي عنه في حديث مرفوع: «مَنْ عذيري من ابن أُمِّ سباع[١] مقطعة البظور»[٢].

ويقول عمرو بن بحر في مناسبة أخرى:

«وقد كان لهم في عبد اللّه بن عباس مَقْنَع، حين سمعه بعض[٣] الناس ينشد في المسجد الحرام:.

وهـنّ يمشين بنـا هـميـسـاً[٤] إن تصـدق الطيـرُ تَنِـكْ لميسـا[٥]

فقيل له في ذلك، فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء. وقـال الضحاك[٦]: لو كان ذل القول رفثاً، لكان قطع لسانه أحبَّ إليه من أن يقول هُجْراً.

قال شبيب[٧] بن يزيد الشيباني ليلة بيَّته[٨] عتاب بن ورقاء:

مَنْ ينكِ العَيْرَ ينك نيَّاكا

---

(١) سباع هذا هو ابن عبد العزى الغبشاني. السيرة (٦١١) وكانت أمه ختانة بمكة السيرة (٥٦٣).

(٢) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ جـ ٢، مفاخرة الجواري والغلمان، ص ٩٣.

(٣) هو أبو العالية، كما في عيون الأخبار (١: ٣٢١).

(٤) الهميس: المشي الخفي الحسّ.

(٥) لميس: اسم امرأة، والبيت ليس لابن عباس، وإنما تمثل به.

(٦) هو الضحاك بن عبد اللّه الهلالي، وهو أحد مَن انضم إلى عبد اللّه بن عباس، في خروجه على علي بن أبي طالب.

(٧) هو شبيب بن يزيد بن نعيم الخارجي، كان مع صالح بن مسرح رأس الصفرية خرج بالموصل، وبعث إليه الحجاج خمسة قواد فقتلهم واحداً بعد واحد وعتاب بن ورقاء كان يكنى أبا ورقاء، وكان من أجواد العرب، وُلِّيَ عدة ولايات، وقاد عدة جيوش. ولد شبيب سنة ٢٦ هـ وتوفي سنة ٧٧ هـ وهو الذي دخل الكوفة مع زوجه غزالة على الحجاج.

(٨) بيت العدو: أوقع به ليلاً وهو مثل يُضرب لمن يغالب الغلاب.

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ حين دخل على بعض الأمراء فقال: مَنْ في هذه البيوت؟ فلما قيل له: عقائل من عقائل العرب. قال علي: «مَنْ يطلْ أير أبيه ينتطق به»[١].

فعلى علي ـ رضي اللّه عنه ـ يعوِّل في تنزيه اللفظ وتشريف المعاني. وقال أبو بكر ـ رضي اللّه عنه ـ حين قال بُدَيل بن[٢] ورقاء للنبي ﷺ: جئتنا بعجرائك، وسوداتك ولو قد مسَّ هؤلاء وخز السلاح لقد أسلموك[٣]، فقال أبو بكر ـ رضي اللّه عنه ـ: عضضت[٤] ببظر اللات»[٥].

وفي مكان آخر نقرأ لأبي عثمان:

«وقول حمزة بن عبد المطلب ـ رضي اللّه عنه ـ:

«وأنت يا ابن مقطِّعة البظور ممّن يكثّر علينا!»[٦].

ولذا يسخر عمرو بن بحر من بعض صور الورع المتكلف المتصنع، ويراه من النوع الذي يبغضه اللّه تعالى لأنه من علامات النفاق، ونعلم أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار:

«ولقد دخل علينا فتىً حدث، كان قد وقع إلى أصحاب عبد الواحد[٧] بن زيد، ونحن عند موسى بن عمران، فدار الحديث إلى أن قال الفتى:

أفطرتُ البارح على رغيف، وزيتونة، ونصف زيتونة، وثلث أو زيتونة، وثلثي زيتونة، أو ما أشبه ذلك.

---

(١) قال الميداني في الأمثال (٢: ٢٢٨) «يريد من كثر إخوته، اشتد ظهره، وعزّ بهم».

(٢) بُدَيل ورقاء من الرجال البارزين في يوم الفتح وبعده.

(٣) الوخز: الطعن الخفيف الضعيف.

(٤) تروى مثل هذه الكلمة منسوبة إلى حمزة بن عبد المطلب.

(٥) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٤٠ ـ ٤٣.

(٦) الرسائل ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الجزء الثاني مفاخرة الجواري والغلمان، ص ٩٣.

(٧) عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد. كان شيخاً للصوفية، وكان من أهل الحديث، قال =

بل أقول أكلت زيتونة، وما علم الله من أخرى.

فقال موسى: إن من الورع ما يبغضه الله، علم الله، وأظن ورعك هذا من ذلك النوع»[1].

وعليه فقد أعجب الجاحظ بجرأة جارية عامية وبصراحة جحشويه «وزعم[2] أيضاً أن سياراً البرقي قال: مرّت بنا جارية، فرأينا فيها الكِبْر والتجبّر، فقال بعضنا: ينبغي أن يكون مولى هذه الجارية ينيكّها قالت: كما يكون!

فلم أسمع بكلمة عامية أشنع، ولا أدلّ على ما أرادت ولا أقصر من كلمتها هذه.

وقال جحشويه في شعر شبيهة بهذا القول حيث يقول:

تواعدني لتنكحني ثلاثاً ولكن يا مشوم بأي أير

فلو خطبت في صفه أير خطبة أطول من خطبة قيس بن خارجة بن سنان في شأن الحَمالة لما بلغ قول جحشويه «ولكن يا مشوم بأي أير» وقول الخادم: «كما يكون»[3].

هـ ـ اللغة كائن حيّ متأثر بأحوال المجتمع:

وهذا الموقف مبني أساساً على نظرة الجاحظ لدور اللفظ والمعنى الذي تكلمت عليه في الباب الثاني ـ بالفصل الأول ـ عند بحث قضية الشكل

= حصين بن القاسم: لو قسم حديث عبد الواحد على أهل البصرة لوسعهم، ولكنه كان متهماً في حفظه كثير الوهم.

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ٣، ص ٤٣ ـ ٤٤. وانظر بالتفصيل في الجزء الخامس من الحيوان، ص ١٧١ ـ ١٨٠، وسترى إلى أيّ درجة وصلت الواقعية بالجاحظ، وتسمية الأعضاء والأشياء بمسمياتها.

(٢) الضمير يعود على أبي الحسن المدائني.

(٣) الحيوان، جـ ٦، ص ٢٦١.

والمضمون أو اللفظ والمعنى وقلنا وقتها إن الإنسان يستعمل من الألفاظ والأسماء ما يكفي حاجات حياته، وبما أن حاجات الناس تتطور وتتبدل تبعاً لتطور أحوالهم المعيشية، فكان لا بدّ للغة من مسايرة هذا التطور.

١ ـ ولذا فقد ترك الناس بعض الألفاظ التي كانت مستعملة في الجاهلية؛ لأن الحياة الإسلامية لم تعد بحاجة إلى مدلولاتها:

«. . . ترك الناس مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان: الحُملان والمَكس.

وقال جابر بن حُنَي:

أفي كل أسواق العراق إتاوةٌ ... وفي كل ما باع امرؤ مكس درهمِ

وكما تركوا أنعم صباحاً، وأنعم ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟

. . . وعلى ذلك قول امرؤ القيس:

ألا عمّ صباحاً أيّها الطلل البالي ... وهل يعممن مَن كان في العَصْر الخالي

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيد المطاع: أبيت اللعن كما قيل:

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معهْ[١]

وقد زعموا أن حذيفة بن بدر كان يحيا بتحية الملوك، ويقال له: أبيت اللعن.

وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً وقد ترك العبد أن يقول لسيده: ربي، كما يقال: رب الدار، ورب البيت. وكذلك حاشية السيد الملك تركوا أن يقولوا ربنا.

(١) البيت للبيد من أبيات له خبر في الأغاني (١٤: ٩ ـ ٢٩).

كما قال الحارث بن حلزة:

ربُّنـا وابنـنـا وأفـضـل مـن   يمشي ومن دون ما لـديـه الثناءُ

وكما قال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر:

وأهلكن يـومـاً ربَّ كنـدة وابنـه   وربَّ معـدٍ بين خبتٍ وعَـرْعَـرِ

وقال عوف بن مُحلِّم حين رأى الملك: إنه ربي، وربِّ الكعبة وزوجه أم أناس بنت عوف[1].

وكما تركوا أن يقولوا لقُوَّام الملوك السدنة، وقالوا الحجبة. وقال أبو عبيدة مَعْمر بن المثنى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب حين أنشده شعر الأسدي:

ومـركضـة صـريحي[2] أبـوهـا   تهـان لهـا الـغـلامـة والغـلام

قال: فقلت له: فتقول للجارية غلامة؟ قال: لا هـذا من الكلام المتروك، وأسماؤه زالت بزوال معانيها كالمرباع، والنشيطة، وبقي الصفايا. فالمرباع: ربع جميع الغنيمة الذي كان خالصاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنّه اللّه تعالى.

وأما النشيطة، فإنه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العِلقَ النفيس يراه إذا استحلاه.

وبقي الصفي، وكان لرسول اللّه - ﷺ - من كل مغنم وهو كالسيف اللهذم، والفرس العتيق، والدرع الحصينة، والشيء النادر...»[3].

٢ - وقد تستنكر العامة بعض القول دون سبب معقول، يتوهمونه من

(١) هو الذي يقال فيه: «لا حر بوادي عوف» أمثال الميداني (٢: ١٦٧). وهو من بني ذهل بن شيبان، ومن أشراف العرب في الجاهلية توفي نحو ٤٥ ق. هـ. قاموس الأعلام ٧٤٧.
(٢) الجوهري: صريح: اسم فحل منجب.
(٣) الحيوان للجاحظ، جـ ١ ص ٣٢٧ - ٣٣٠.

باب التوقي من الخطأ، أو حباً في الزخرفة والدجل كما يفعل الزنادقة والدجالون المضللون.

«وتقول العرب: الشمسُ أرحمُ بنا، فإذا سمع السامع منهم أن جالينوس قال: عليكم بالبقلة الرحيمة - يريد السلق - استشنعه السامع.

وإذا سمع قول العرب: الشمسُ أرحم بنا، وقول أمية:

ما أرحم الأرضَ إلا أننا كُفُر

لم يستشنعه وهما سواء.

فإذا سمع أهل الكتاب يقولون: إن عيسى بن مريم قال: هذا أبي للماء، وهذه أمي لكسرة الخبز، استشنعه فإذا سمع قول أمية:

والأرض نوَّخها الإلَه طروقةً للماء حتى كل زند مُسْفَدُ

لم يستشنعه.

والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم وأصحاب تهويل؛ لأنهم حين عدموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلف ما هو أخصر، وأيسر، وأوجز كثيراً»[١].

٣ - قد تفسد السليقة اللغوية لدى الأعراب النازلين قرب الأسواق فيصابون باللحن، ويجهلون الإعراب وقد تكلمت على هذه النقطة لدى كلامنا على اللحن المكروه[٢] في بداية هذا الفصل، وهنا يضرب الجاحظ مثلاً يدل على مدى جهل الأعراب بالنحو ومصطلحاته.

«وقال الربيع: قلت لأعرابي: أتهمز إسرائيل[٣]؟ قال: إني إذاً لرجل

(١) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٣٦٥.

(٢) انظر البيان والتبيين، جـ١، ص ١٧٢ - ١٧٤.

(٣) وقد أراد الربيع بالهمزة والجر معناهما الاصطلاحي، وفهم الأعرابي من الهمز الغمز أو النخس، أو الدفع أو العضّ كما فهم من الجرّ معناه اللغوي.

سَوْءٍ! قلت: أتجر فلسطين؟ قال: إني إذاً لقوي»[1].

و ـ أثر البيئة على الأديب:

وهذه مقولة بدأها الجاحظ قبل أن يدّعيها بعض جهابذة النقد الأوروبي بحوالي عشرة قرون وذهب إلى توضيحها، وضرب الأمثلة على بعض البلدان التي زارها وتعرّف إلى بيئتها.

«وقال الصنف الآخر: لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي، فيفسد ماؤهم، وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام كما عمل ذلك في طباع الزنج، وطباع الصقالبة[2]، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج[3]. وقد رأينا العرب، وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب، وجميع ماشيتهم: من سبع وبهيمة على طبائعهم...

وقد ترى حَرَّة بني سليم، وما اشتملت عليه من إنسان، وسبع، وبهيمة، وطائر، وحشرة فتراها كلها سوداء.

وقد خبرنا من لا يحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بَيسان[4]، ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح، والأسد، والبقر، والخيل، وإلا كأذناب السلاحف والجرذان فقد كانت لهم عُجُوب[5] طوال كالأذباب. وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المشوَّهين والأنياط، ويكونون جهالاً، فلا يرتحلون؛ ضنانة

---

(1) المصدر السابق.

(2) الصقالبة: جنس يسكن بين بلاد البلغار وقسطنطينية. معجم البلدان. وقد بيّن المسعودي خصائصهم في كتابه «التنبيه والإشراف».

(3) جنس من الآسيويين، بني من أجلهم سدّ الصين الذي بناه الإسكندر، وبيّن المسعودي طباعهم بأنهم في عداد البهائم.

(4) بيسان هذه قرية من قرى الموصل.

(5) العجوب: جمع عَجَب بالفتح، وهو أصل الذنب.

بمساكنهم، وأوطانهم، ولا ينتقلون. فإذا طال ذلك عليهم، زاد في تلك الشعور، وفي تلك الأذناب وفي تلك الألوان الشقر، وفي تلك الصور المناسبة للقرود»(١).

ونرى هنا أبا عثمان وقد فارق المنطق والعقل فقسا على الأنباط، وتمنى أن يراهم بأذناب وما ذلك إلا لأنهم كانوا من غلاة الشعوبية الذين كانوا ينكرون على العرب والمسلمين كل فضل، وكانوا شيعة الزنادقة وأعوانهم، ويبقى أبو عثمان أدرى بحالهم وبمفاسدهم حتى بادلهم تطرفاً بتطرف كما صبّ جام غضبه على أهل خراسان الذين انتقلت عدوى لؤمهم إلى مَن جاورهم من العرب، وهم على ما نعرف المحرّك والعقل المفكر للحركة الشعوبية لذلك نالوا قسطاً من غضب الجاحظ وتقريعه لهم وكذلك أصاب أهل الأهواز وبيئتهم، فهي ملوثة خطرة تنقل عدواها لكلّ مَن مرّ بها أو أقام بها ولو لمدة قصيرة.

«فأما قصبة الأهواز(٢) فإنها قلبتْ كلَّ مَن نزلها من بني هاشم، إلى كثير من طباعهم، وشمائلهم(٣) ولا بدّ للهاشمي قبيح الوجه كان أو حسناً، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش، وجميع العرب.

فلقد كادت البلدة أن تنقل ذلك، فتبدله، ولقد تخيفته(٤) وأدخلت الضيم عليه، وبيّنت أثرها فيه، فما ظنك بصنيعها في سائر الأجناس.

ولفساد عقولهم، ولؤم طباعهم لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة، والضياع الفاشية يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار على الثروة واليسار، وإن طال ذلك والمال منهبة كما تعلمون.

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ٤، ص ٧٠ - ٧٤.

(٢) قصبة الأهواز: أي أكبر مدنها. قال صاحب العين: الأهواز سبع كور بين البصرة، وفارس.

(٣) أي طبائع الأهوازيين وشمائلهم، وفي معجم البلدان: «فانقلبوا إلى طباع أهلها».

(٤) تخيفته، تحيقته، وتحوقته: تنقصته.

وقد يكتسب الرجل من غيرهم المُوَيل[1] اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين[2].

ولا يرضى لنسائه مثل الذي كان يرضاه قبل ذلك. **وليس في الأرض صناعة مذكورة، ولا أدب شريف ولا مذهب محمود لهم في شيء منه نصيب وإن خسَّ[3]، ولم أرَ بها وجنة حمراء لصبي، ولا لصبية، ولا دماً ظاهراً، ولا قريباً من ذلك. وهي قتالة للغرباء..»[4].**

والآن لندع جانباً تطرف الشعوبية، وغلواء أبي عثمان ولنرَ ماذا بقي من مناقشته لهذه النظرية، وسنجد ما يلي:

١ - إن فساد البيئة يؤثر على صحة السكان والأديب منهم بطبيعة الحال.

٢ - هنا ترابط أكيد بين صحة الإنسان الجسدية والنفسية، ولا بدّ أن ينعكس هذا الفساد على إنتاج الأديب فيكون سيئاً.

٣ - إن لؤمهم وبخلهم بلغ حدّ كراهية النسل والعبقرية موزعة بالتساوي بين البشر، فهناك نسبة من المواليد تكون لديها الاستعدادات للإبداع فيما لو توفرت البيئة المناسبة ولكن أهل الأهواز يقطعون الطريق على إبداع أولادهم عندما يحرم هؤلاء الأطفال من التعليم والتأديب، وهكذا تضيع الفرصة على مَن أعطاه اللّه نعمة النبوغ، فإذا كان اللّه تعالى قد وزّع العبقرية والنبوغ بالتساوي بين الشعوب فإن أهل الأهواز يضيعون هذه العبقريات بدافع من البخل والحرص واللؤم.

٤ - وقد نتج أن الأمية تؤخر الصناعة، والعلوم، والفنون فليس لأهل الأهواز نصيب مذكور في أيٍّ منها.

---

(١) مويل: تصغير مال.

(٢) المؤدبون: جمع مؤدِب: بكسر الدال، والجاحظ ومَن نَحَا نَحوَه يجعل المؤدب فوق المعلم.

(٣) خسَّ: قلَّ.

(٤) انظر بالتفصيل في الحيوان، جـ ٤، ص ١٣٥ - ١٤٣.

وهذا معقول ومنطقي نراه حتى اليوم في عالمنا المعاصر فالدول النايمة أو النامية التي ترزح لسبب أو لآخر تحت نير الجهل والأمية تعيش في فقر مدقع من جميع النواحي، بل إن أمورها مضطربة لدرجة تجعل العبقري النادر الذي قد يسعفه الحظ بالحصول على العلم تدفع به بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الهجرة إلى حيث يجد التشجيع والرعاية والاستقرار.

٥ ـ ما دام الجاحظ لم يجد وجنةً حمراء فهذا يعني أن صحة الأطفال ليست على ما يرام أيضاً، وعليه سيموت قسم كبير من الأطفال قبل البلوغ، وهكذا ينعكس ضعفاً في جميع النواحي، وهكذا نبّهنا الجاحظ بكل وضوح إلى أن شباب الأمة وأطفالها هم عماد البلاد، وأن الثروة الحقيقية في البلد هي أبناء هذه البلد قبل أن تكون الثروة ذهباً أبيض أو أسود أو أحمر لأن الشعب المتعلم الذكي قادر على تحويل التراب إلى ذهب، والبحث عن موارد العيش والثروة.

بينما نرى شعباً جاهلاً يملك الذهب يتحول الذهب بين يديه إلى تراب لا قيمة له.

إن صناعة كيمياء البترول تقوم في معظمها على جهود نوابغ ألمانيا وتربح منه ما لا نعرف ولا نقدر أن ندركه من الأرباح.

بينما عالمنا العربي لا يعرف كيف يتصرف في هذه الثروة وغيرها من الثروات، مع أن الطريق واضحة نحو النور والتقدم إنها طريق العلم. هل هناك في اللغة العربية مَن حاول أن يخدم أمته مثل خدمة الجاحظ؟

هل في العالم نابغة عبقري طرح قضايا فكرية على درجة عالية من التعقيد وعلى هذه الدرجة من الوضوح والبساطة كما فعل عمرو بن بحر؟

إن أبا عثمان يرسم لنا الطريق مع أنه غادر دنيانا قبل ما يزيد على عشرة قورن. فليرحمك الرحمن الرحيم يا أبا عثمان.

الفصل الثالث

الســرقات الأدبية

أ ـ المقـــدمة :

يقول عمرو بن بحر في معرض دراسته لهذه المسألة: «ولا يُعلم في الأرض شاعرٌ تقدم في تـشبيب مصيب، وفي معنى عجيب، أو في معنى شريف كريم أو بديع مخترع، إلا وكل مَن جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يعدُ على لفظه فيسرقَ بعضه، أو يدّعيه بأسره.

فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء، فتختلف ألفاظهم، وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحقّ بذلك المعنى من صاحبه. . .»(١).

ب ـ وعليه فإن أبا عثمان يرى أن أسباب السرقة الأدبية تعود إلى ما يلي:

١ ـ الإعجاب بتشبيه مصيب جيد يدفع بالمقلد إلى تقليده.

٢ ـ إذا أبدع الأديب أو الشاعر معنىً غريباً عجيباً نال منه شهرة وطار كالمثل.

٣ ـ قد يجيد الشاعر في التعبير عن معنى شريف كريم يعجب متذوقي

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٣١١ ـ ٣١٢.

الأدب، ويعترفون له بالفضل به فيدفع هذا الاعتراف الشاعر الثاني لتقليده أو محاولة الإغارة عليه.

٤ ـ وقد يجيد الأديب في رسم صورة شعرية غنية الجوانب بديعة، ويخلق من خلالها صورة فنية متعددة الجوانب جميلة آسرة ثم يأتي من بعد مَن يحاول الاحتذاء عليها.

جـ ـ والآن كيف درس الجاحظ مسألة السرقات الأدبية:

مما تقدم نرى أن النص السابق ميّز بين حالتين هما:

١ ـ حالة السرقة للألفاظ والمعنى معاً سرقة جزئية أو كلية. وغالباً ما يكون الثاني مقصراً عن المبدع الأول في التعبير عن المعنى الشريف، أو العجيب، أو لا يستطيع التعبير بوضوح عن تشبيه جيد، أو يتأخر عن الأول في رسم الصورة البديعة الغنية بالصور والأحاسيس، مثل هذا الشاعر المقصر ينعته الجاحظ بالسارق ويقول صراحة **إنه سرق المعنى** من الشاعر الفلاني، دون مواربة.

«وقال بعض العلماء إن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين، وحذّاقهم حيث يقول:

مُسَّا تـرابَ الأرضِ منه خُلقتمـا ... وفيها المعادُ والمصيرُ إلى الحشرِ
ولا تعجبـا أن تُؤتيـا وتعـظمـا ... فما حُشي الإنسانُ شراً من الكِبْرِ
فلو شئتُ أدلى فيكمـا غيرُ واحـدٍ ... عـلانيـةً أو قـال ذلـك في سـرٍّ
فـإن أنا لم آمـر ولم أنـهَ عنكمـا ... ضحكـت لـه حتى يلجَّ فيستشـري

ومن هنا سرق العتابي[1] المعنى حيث يقول:

(١) هو كلثوم بن عمرو العتابي، من شعراء الدولة العباسية، كان منقطعاً إلى البرامكة، فوضعوه للرشيد، ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ...

على أن الأبيات نسبت في الخزانة (٤: ١٢) إلى كعب بن زهير. قلت وإذا صحّت لكعب فيكون عبيد اللّه بن عبد اللّه قد سرقها من كعب بن زهير.

إن كنت لا تحـذر شتمي لـمـا تعـرف من صفحي عن الجاهـل
فـاخشَ سكوتي سـامعـاً ضـاحكـاً فيـك لمشنـوعٍ مـن القـائـل
مـقـالـة السُّـوء إلـى أهلهـا أسـرع مـن منحـدِرٍ سـائـلِ
ومَـن دعـا النـاسَ إلـى ذمِـه ذمّـوه بـالـحق وبـالـبـاطـلِ

وسُئِل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى، فقلب كفّيه، وقال:

من النـاس من يخفى أبوه وجـده وجـدُّ أبي ليلى لكـالبـدرِ ظـاهـرُ

فلم تثبت به حجة في ذم، ولا مدح. وقد بلغ ما أراد»[1].

ومثال ثانٍ يقدّمه أبو عثمان للسرقة المكشوفة: «ولطلبها [الحيّات] الضفادع بالليل في الشرائع يقول الأخطل:

ضفـادعُ في ظلماء ليـل تجـاوبت فـدلَّ عليهـا صـوتُهـا حيّـةَ البحـرِ

وقد سرق معناه بعض الشعراء[2] فقال: وهو يذكر الضفدع وأنه لا ينقّ حتى يدخل حنكه في الماء:

يـدخل في الأشـداق مـاءً ينصفُـه كـيمـا يـنقُّ والـنقيق يتلفــه»[3]

ثم يعرض مثالاً ثالثاً للسرقة المعيبة:

«وإذا مشى الفرس مشياً شبيهاً بمشي الثعلب قالوا: مشي الثعلبية.

قال الـراعي:

وغَمْلى[4] نصيٍّ بـالمتان[5] كـأنهـا ثعـالب موتى جلدها قد تسلعـا[6]

(١) الرسائل ـ تحقيق هارون، جـ ١، ص ٣٥٥. كتاب فصل ما بين العداوة والحسد.
(٢) هو الذكواني.
(٣) الحيوان للجاحظ، جـ ٥، ص ٥٣٢.
(٤) غَمْلى بفتح الغين المعجمة: جمع عميل، وهو من النصي ما ركب بعضه بعضاً، والنصي كفتى: نَبْتٌ سبط أبيض ناعم من أفضل المراعي.
(٥) المتان: جمع متن، وهو ما ارتفع من الأرض، واستوى.
(٦) تسلع: تشقق

وقال الأصمعي: سرق هذا المعنى من طُفيل الغنـوي، ولم يُجِدْ السرق... والبيت الذي ذكره الأصمعي لطفيل الغنوي أن الراعي سرق معناه هو قوله:

وغَمْلى نصِيٍّ بـالمتـان كـأنهـا ثعالبُ موتى جلدهـا لم ينزعِ»(1)

٢ ـ الحالة الثانية عندما يستعين الشاعر بمعنى مَن سبقه ويشاركه فيه، وعادة يكون من المعاني الشائعة المعروفة للجميع، وهكذا يكون المعنى واحداً لديهم، والاختلاف بينهم في الألفاظ الـدّالة على المعنى الواحد، والتي يتحكم بها العروض والروي الذي يختاره كل شاعر، ولذا يغدو المعنى مشاعاً للجميع وليس لأحدٍ الحق أن يدّعيه لنفسه.

الجاحظ في هذه يستعمل ألفاظاً معينة للدلالة على اشتراكهم في المعنى الواحد، وقد تتبعت ألفاظ أبي عثمان فوجدتها على الوجه التالي:

أ ـ **لقد استعمل كلمة شبيه بهذا قوله** ست مراتٍ «وقال حارثة بن بدر:

إذا مـا مـتُّ سُـرَّ بنـو تـميـمٍ على الحـدثـان لـو يلقـون مثلي
عـدوٌّ عـدوِّهـم أبـداً عـدوي كـذلـك شكلُهم أبـداً وشكـلي

وهذا شبيه بقول الأعشى:

علقتهـا عـرضـاً وعلقت رجـلاً غيري، وعلق أخرى غيرها الرجلُ»(2)

ونجد لدى الجاحظ في موضع آخر قوله:

إذا مـا مـات مثلي مـات شيء يـمـوت بمـوتـه بـشـرٌ كـثـيـر

وأشعر منه عبدة بن الطيب حيث يقول في قيس بن عاصم:

عليك سلام اللّه قيس بن عـاصم ورحمتـه مـا شـاء أن يترحمـا

(1) الحيوان للجاحظ، جـ٦، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨.
(2) البيان والتبيين للجاحظ، جـ٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

تحيــة من أوليتــه منــك نـعمــة   إذا زار عن شحطٍ بــلادك سلمــا
فمـا كان قيسٌ هلكـه هلك واحدٍ   ولـكنــه بنيــان قــومٍ تـهــدمــا

وقال امرؤ القيس في تشبيه بهذا المعنى:

فلو أنهــا نفس تمــوت ســويــة   ولكنهــا نفس تسـاقط أنفســا»(١)

وهكذا نسير مع الجاحظ في استعمال شبيه بهذا فنجد: «وقال الراجز وهو يمتح(٢) بدلوه:

عَلِقْتَ يــا حــارثُ عـنــد الــورْدِ   بـجــابـىءٍ لا رفــل الـتــردي(٤)
ولا عيي بابتناء المجد

وهذا كقول بشار الأعمى(٥):

وعـي الفعــال كـعـي الـمـقــال   وفي الصـمت عي كعي الكـلـمْ

وهذا شبيه بما ذهب إليه شتيم بن خويلد الفزاري في قوله:

ولا يشعبون الصدع(٦) بعـد تفاقم   وفي رفق أيديكم لذي الصدع شاعب»(٧)

وقا عمرو بن بحر في موضع آخر:

«وقال الشاعر في قوم يحسنون في القول، ويسيئون في العمل، قال أبو

(١) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٩٣ - ٣٩٤.
(٢) يمتح: يستقي بدلوه.
(٣) الجابىء. القادم المفاجىء.
(٤) لا رفل التردي: لا يجرّ ذيل ثوبه خيلاء، والتردّي: الاشتمال بالرداء، وقيل: غير جاهل بخطر السقوط.
(٥) هو بشار بن برد. . زعيم المحدثين بلا منازع شاع ذكره في الدولتين الأموية والعباسية. . وكان مرهوب الجانب مخشيّ اللسان، ولد عام ٧٦ هـ ٥٥٦ م، ومات تحت سياط المهدي عام ١٦٨ هـ ٧٨٤ م.
(٦) شعب الصدع: لأمه. وتفاقم الأمر: جلّ الخطر، واتسع الخرق على الراقع. يقول إن أعداءكم لا يصلحون فاسداً، أما أنتم ففي أيديكم صلاح كل فاسد ورأب الصدع.
(٧) البيان والتبيين، جـ ١ ص ١٩.

حفص عمر بن عثمان الشمري أنشدني الأصمعي للمكعبر[1] الضبي:

كُسالى إذا لاقيتهم غير منطق ... يلهى به المحروب وهو عناء

وقيل لِذَوْهمان: ما تقول في خُزاعة؟ قال: جوعٌ، وأحاديث وفي شبيه بهذا المعنى قال أُفنون[2] بن صريم التغلبي:

لو أنني كنت من عادٍ ومن إرمٍ ... غَذِيَّ قَيْلٍ ولقمانٍ وذي جَدَنِ
لما وفَوا بأخيهم من مُهوِّلَةٍ ... أخا السَّكون ولا حادوا عن السَّنَنِ
أنّى جَزَوا عامراً سوءاً بفعلهم ... أم كيف يجزونني السوأى من الحسنِ
أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به ... رئمان[3] أنفٍ إذا ما ضنَّ باللبنِ»[4]

«وذهب الشاعر في مرثية أبي داود في قوله:

وأصبرُ من عَوْدٍ وأهدى إذا سرى ... من النجم في داجٍ من الليل غيهبِ

هذا شبيه بقول جبار بن سُلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب حين وقف على قبر عامر بن الطفيل، فقال: «كان ـ والله ـ لا يضلُّ حتى يضلَّ النجم، ولا يعطش حتى يعطش البعير ولا يهاب حتى يهاب السيل، وكان ـ والله ـ خير ما يكون حين لا تظن نفس بنفسٍ خيراً»[5].

وفي مثال آخر يقول الجاحظ:

«وقال إسحق بن حسان: [في يحيى البرمكي]

مَنْ مبلغٌ يحيى ودون لقائه ... زَبَراتُ كلِّ خنابسٍ هَمهامِ

(١) المكعبر الضبي اسمه حريث بن عفوظ، وهو جاهلي
(٢) أُفنون هو صريم بن معشر وهو شاعر جاهلي قديم مات عام ٥٦٧ م.
(٣) قال الجاحظ: رئمان أنف: كأنها تبرّ ولدها بأنفها، وتمنعه اللبن. قلت والبيت مثل يضرب لمن يعد بالجميل، وهو مضمر عدم الوفاء.
(٤) البيان والتبيين للجاحظ، جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٥) المصدر السابق، جـ ١، ص ٧٨.

يـا راعيَ السلطانِ غيـر مُـفـرِّطٍ في لين مختبطٍ وطيب شِـمـامِ
تغـذي مسـارحـه ويُصفى شِـربُـه ويـبيـت بـالـربـوات والأعـلامِ
حتى تنخنـخ ضـاربـاً بجـرانـه ورسـت مـراسيـه بـدار سـلامِ
في كـل ثغـرٍ حـارسٌ من قبله وشعـاعُ طـرف لا يُغتـرُّ سـامِ

وهذا شبيه بقول العتابي بهارون:

إمـام لـه كـفّ يضـمُّ بنـانُـهـا عصا الدين ممنوعاً من البري عودُها
وعينٌ محيط بـالبريـة عـودُهـا سـواءٌ عليها قـربُها وبعيـدُهـا
وأصمـع يقـظانٌ يبيت منـاجيـاً له في الحشا مستودعات يكيـدُها
سميع إذا نـاداه في قعـرِ كُـربـةٍ منـادٍ كفتـه دعـوة لا يعيـدُهـا»(٢)

ب ـ وأحصيت له أربع مرات استعمل فيها **«أخذ المعنى»** «وقال أبو عمرو بن العلاء: اجتمع ثلاثة من الرواة، فقال لهم قائل: أي نصف بيت شعر أحكم وأوجز؟ فقال أحدهم: قول حميد بن ثور الهلالي:

وحسبك داءً أن تصحَّ وتسلما

ولعلّ حميداً أن يكون أخذه عن النمر بن تولب؛ فإن النمر قال:

يحب الفتى طول السلامـة والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل»(٢)

ويقول أبو عثمان في مكان آخر:

«وقال يزيد بن مفزع:

العـبـدُ يـقـرع بـالـعـصـا والـحـر تـكـفـيـه الـمـلامـة

قالوا أخذه من الفلتان الفهمي حيث يقول:

الـعـبـد يـقـرع بـالـعـصـا والـحـر تـكـفـيـه الإشـارة

---

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص ٣١١
(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ١٨٠.

وقال مالك بن الريب:

العبد يقرع بالعصا والحر يكفيه الوعيد

وقال بشار بن برد:

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

وقال آخر:

فاحتلت حين صرمتني والمرء يعجز لا محالة[1]
والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعاله[2]
والمرء يكسب ماله بالشح يورثه الكلالة[3]
والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة»[4]

ويقول الجاحظ في مكان آخر:

«وقال النابغة:

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت كتائب من غسان غير أشائب[5]
بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر أولئك قومٌ بأسهم غير كاذب
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقنَّ أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أولُ غالب
تراهنَّ خلف القومِ خزراً عيونها جلوس شيوخٍ في ثياب الأرانب

فأخذا هذا المعنى حميد بن ثور الهلالي فقال:

إذا ما غزوا يوماً رأيت عصابة من الطير ينظرن الذي هو صانعُ

---

(١) المحالة: الاحتيال.
(٢) ثعالة: أنثى الثعالب، وقد يطلق على الذكر.
(٣) الكلالة: أن يورِّثه مَن ليس من نسبه، ولا من عمود عصبه، إلا ما كان من الوالد والولد.
(٤) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٣٤ ـ ٣٥.
(٥) الأشائب، الأخلاط من الناس جمع أشابة بالضم.

وقال آخر [مسلم بن الوليد:

يكسو السيوف نفوس الناكثين به ويجعل الروس تيجان القنا الذبل
قد عوّد الطير عاداتٍ وثقن بها فهنّ يتبعنه في كل مرتحلِ»[1]

ويقول عمرو بن بحر في موضع آخر:

«وذو الرُّمة القائل: «إذا قلت كأنَّ، فلم أجد مخرجاً[2] فقطع اللّه لساني وأنشد:

لا أتقى حسّك الضغائن بالرُّقَى فعْل الذليل ولو بقيت وحيدا
لكن أعدُّ لها ضغائنَ مثلها حتى أداوي بالحُقود حُقودا
كالخمرِ خير دوائها منها بها تشفي السقيم وتبرىء المنجودا[3]

فأخذ الحِكميُّ هذا فقال:

وكأسٍ شربت على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها»

جـ - وأحياناً يرى الجاحظ أن التشابه بين الشاعرين يكفيه قوله **وقال في هذا المعنى:**

«يقول حسان بن ثابت:

ما أُبالي أنبَّ[5] بالحزْن تيس أم لحاني بظهر الغيبِ لئيمُ

وأنشد:

خُبِّرتُ أن طويلباً يغتابنا بعضيهة[6] يتنحل الأقوالا

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ٧، ص ٢١ - ٢٢.
(٢) يعني بذلك قدرته على التشبيه
(٣) المنجود: المكروب والمعيي.
(٤) الحيوان للجاحظ، جـ .، ص ١٦٤.
(٥) نَبَّ التيس: هاج وصاح.
(٦) العضيهة: النميمة والإفك والبهتان.

مـا ضـرّ سـادة نهشـل أهجـاهـم أم قـام في عُرْضِ الخـويّ فبالا

وقال الفرزذق في هذا المعنى:

مـا ضـرّ تغلب وائـل أهجـوتّهـا أم بلت حيث تنـاطـح البحـرانِ

وقال الآخر في هذا المعنى:

مـا يضيـر البحـر أمسى زاخـراً أن رمى فيـه غـلام بحجـرْ»[1]

«ومن هذا الشكل قول الحسين بن مطير الأسدي في رثائه لمعن بن زائدة:

ألـمـا على مـعنٍ وقـولا لـقبـره سقتـك الغوادي مـربعاً ثم مـربعا
فيـا قبـر معنٍ كنت أول حـفـرةٍ من الأرض خطت للسماحة موضعا
ويـا قبـر معن كيف واريت جـوده وقد كان منه البر والبحـر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيّاً ضقت حتى تصدعا
فلما مضى معن مضى الجود والندى وأصبـح عـرنين المكـارم أجـدعا
فتى عيش في معروفه بعـد موتـه كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
تعـزّ أبـا العبـاس عنـه ولا يكن جـزاؤك من معنٍ بـأن تتضعضعا
فما مات مَن كنت ابنه لا والذي له مثل ما أسدى أبـوك وما سعى
حكى أنـاس شأوه من ضـلالهم فأضحوا على الأذقان ضرعى وظلّعا

وهذا مثل قول مسلم[3] بن الوليد في يزيد بن مزيد:

---

(١) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٢٣٢.
(٢) أبو العباس: هو زائدة بن معن، وكان فارساً شجاعاً وكريماً جوّاداً.
(٣) هو مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء، يلقب بصريع الغواني. كان شاعراً مبدعاً، كثير الافتنان، حسن التصرف في القول، وكان من مقدّمي شعراء الدولة العباسية. ولد ونشأ بالكوفة، وكان هو وأخوه سليمان الأعمى منقطعين إلى يزيد بن مزيد الشيباني، ومحمد بن منصور بن زياد. ثم اختصّ مسلم بعد ذلك بالفضل بن سهل فولاّه ديوان المظالم بجرجان. وبها توفي عام ٢٠٨ هـ - ٨٢٣ م.

قبر ببرذعة[1] استسرَّ ضريحُه   خطراً تقاصرُ دونه الأخطار
أبقى الزمان على معدٍّ[2] بعده   حزناً كعمر الدهر ليس يعار
نقضت به الآمال أحلاس الغنى   واسترجعت نزاعها الأمصار
فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة   أثنى عليها السهل والأوعار»[3]

ونجد الجاحظ يقول أحياناً:

«وقال سعد بن ربيعة بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم:

ألا إنما هذا الملال الذي ترى   وإدبار جسمي من ردى العثراتِ
فكم من خليلٍ قد تجلدت بعده   تقطَّع نفسي بعده حسراتِ

وهذا من قديم الشعر.

وقال الطرماح بن حكيم في هذا المعنى:

وشيبني أن لا أزال مناهضاً[4]   بغير قوىً أنزو[5] بها وأبوع[6]
وأن رجال المال أضحَوا ومالُهم   لهم عند أبواب الملوك شفيع
أمخترمي[7] رَيْبُ المنون ولم أنلْ   من المال ما أعصي به وأطيعُ»[8]

د ـ وقد يمر التشابه بين الشاعرين دون تعليق من عمرو بن بحر، وفي هذه الحالة يجد أن التشابه واضح، والمعنى قد تساوى الشاعران أو الأديبان في التعبير عنه «قال صفوان الأنصاري في بشار:

تواثبُ أقماراً، وأنتَ مشوَّه   وأقرب خلق اللّه من شبه القرد

(١) برذعه ضبطها ابن خلكان بالدال. والذي في الأمالي قبر بحلوان.
(٢) الذي في وفيات الأعيان، وفي مهذب الأغاني، أبقى الزمان على ربيعة.
(٣) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.
(٤) مناهضاً: مقاوماً ومدافعاً.
(٥) أنزو: أشب.
(٦) أبوع: أنساب في مشيتي مسرعاً.
(٧) أمخترمي. هل المنون آخذي، وفاتك بي.
(٨) المصدر السابق، جـ٣، ص ١٩٤.

ولذلك قال فيه حماد[1] عجرد بعد ذلك:

ويـا أقـبـح مـن قـرد إذا مـا عـمـي الـقـردُ

ويقال إنه لم يجزع من شيء قطّ جزعه من هذا البيت»[2]. ونقرأ للجاحظ في موضع آخر: «وقال بعض خلفاء بغداد:

عـجبت مـن إبـليس فـي كِـبـره وخـبـثِ مـا أبـداه مـن نـيَّـتـه
تـاه عـلى آدم فـي سـجـدةٍ وصـار قـواداً لـذريـتـه

وذكر بهذا المعنى سليمان الأعمى أخو مسلم الأنصاري فقال:

يأبى السجود لـه من فرط نخـوته وقد تحول في مسلاخ[3] قوَّاد»[4]

هـ ـ وعندما يرى أن المعنى صار مشاعاً معروفاً يعلق أبو عثمان بقوله: «وهذا كثير جداً».

وقال الراعي النميري:

إن السمـاء وإن الـريـح شـاهـدةٌ والأرض تـشهـدُ والأيـامُ والـبـلدُ
لقـد جـزيت بني بـدر ببغيهـم يـومَ الهباءة[5] يـومـاً مـالـه قَـوَدُ

وقال نصيب في هذا المعنى يمدح سليمان بن عبد الملك:

أقـول لـركب صـادرين لقيتهـم قَفا ذاتِ أوشالٍ[6] ومولاك[7] قاربِ[8]

---

(١) حماد عجرد: شاعر معروف من أهل العبث والمجون، له في بشار وغيره أهاجٍ كثيرة، وكان جيد الشعر حسن التوليد في الهجو، توفي عام ١٦٨ هـ.

(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) مسلاخ قواد: زي ديوث.

(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥١.

(٥) يوم الهباءة: من أيام العرب كان لبني عبس على بني فزارة. والقود: الاقتصاص من القاتل.

(٦) قفا: خلف، وذات أوشال: بقعة ذات مياه تسيل من أعراض الجبال.

(٧) مولاك: يعني نفسه.

(٨) قارب: طالب للماء.

قفوا خبروني عن سليمان إنني   لمعروفة من أهل ودَّان[١] طالبُ
فعاجوا[٢] فأثنَوا بالذي أنت أهله   ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ»[٣]

وهذا كثير جداً»[٤].

و ـ وقد يتساوى الشاعران فيعلّق الجاحظ بقوله: ذهب إلى قول فلان.

«وقال آخر يهجو بعض الخلفاء:

يُمان ولا يمونُ وكان شيخاً   شديد اللُّقم[٨] هلقاماً خطيبا

وذهب إلى قول الأحوص[٦]:

ذهب الذين أحبهم فَرَطا   وبقيت كالمقمور في خلفِ
من كل مطمور على حنقٍ   مُتضجعٍ يُكفى ولا يَكْفي»[٧]

كما نجد لدى عمرو بن بحر قوله:

«وأنشد عقبة بن رؤبة، عقبة بن سَلْم، رَجَزاً يمتدحه به وبشارٌ حاضر فأظهر بشار استحسان الأرجوزة، فقال عقبة بن رؤبة: هذا طراز ـ يا أبا معاذ ـ لا تحسنه! فقال بشار: ألمثلي يقال هذا الكلام؟ أنا ـ والله ـ أرجز منك، ومن أبيك، ومن جدك!

ثم غدا على عقبة بن سَلْم بأرجوزته التي أولها:

---

(١) ودان: قرية قريبة من الجحفة

(٢) فعاجوا: عطفوا.

(٣) الحقائب: أوعية الراد تحمل خلف الرجل، وقد ملأها سليمان بن عبد الملك بفضل عطاياه ومنحه

(٤) البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٥) هلقام: واسع الشدق. كثير اللُّقم، وهو الأكل.

(٦) هو الأحوص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري الشاعر المشهور الجيد القول في الفخر والمديح والغزل، من شعراء الدولة الأموية، توفي عام ١٠٥ هـ ٧٢٣ م.

(٧) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٠٩.

يـا طلل الحيّ بـذات الصَّمـدِ   بـالله خبّـر كيف كنت بعـدي

وهي التي يقول فيها:

اسـلمْ وحييـتَ أبـا المِـلَدّ   لـلّه أيـامـك فـي مـعـدِّ
الحـر يلحى والعصـا للعبـد   وليس للمُلحف مثل الـردِّ
وصـاحبٍ كـالـدُّمَّـلِ المُمِـدِّ   حملتـه في رقعـة مـن جلدي
وما درى ما رغبتي من زهدي

أي لم أره زُهداً فيه، ولا رغبة. ذهب إلى قول الأغر الشاعر:

لقـد كنت في قومٍ عليك أشحةٍ   بنفسك لـو أنَّ مَنْ طاح طـائحُ
يودّون لو خاطوا عليك جلودَهم   ولا يدفع الموتَ النفوسُ الشحائحُ»[(١)]

وفي موضع آخر نقرأ لأبي عثمان ما يلي: «وقال آخر:

ألا تَـرَيْنَ وقـد قـطَّعتِني عـذلاً   ماذا من الفَوْتِ بين البخلِ والجودِ
إلا يكن وِرقاً يـومـاً أجود بهـا   لـلمعتفين فـإني ليّـن الـعـودِ

وإلى هذا ذهب ابن يسير الرياشي حيث يقول:

لا يعـدم السائلون الخيـرَ أفعلُه   إما نوالي وإمـا حسن مردودي»[(٢)]

ر ـ وقد يعلّق أبو عثمان على التشابه بين الشاعرين بقوله ومثله أيضاً قول فلان:

«وكان مالك بن دينار[(٣)] يقول في قصصه: ما أشد فطام الكبير! وهو كما قال القائل:

وتـروض عـرسكَ بعـدما هـرمت   ومـن الـعـنـاء ريـاضـة الـهـرم

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) المصدر السابق، جـ٣، ص ٢٩٦.
(١) هو أبو يحيى مالك بن دينار، عالم فاضل، وزاهد ناسك، مشهور بالصلاح، والتقوى، والورع، كان يكتب المصاحف، ويعيش منها، مات عام ١٣١ هـ ٧٤٩ م.

ومثله أيضاً قول صالح بن عبد القدوس[1]:

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى[2] عاد إلى جهله ... كذي الضنى[3] عاد إلى نكسه

وقال كلثوم بن عمرو العتابي[4]:

وكنتَ امرأً لو شئتَ أن تبلغ المدى ... بلغتَ بأدنى نعمةٍ تستديمُها
ولكن فطام النفس أثقل محملاً ... من الصخرة الصمّاء حين ترومها»[5]

خ ـ وقليلاً ما يعلّق الجاحظ بقوله «رام مثله» على تشابه الشاعرين في المعنى الواحد:

«وقال الراجز:

طال عليهن تكاليفُ السُّرَى ... والنصُّ[6] في حين الهجير والضُّحى
حتى عجاهن[7] فما تحت العجى ... رواعفٌ[8] يخضبن مُبيضَّ الحصى

سمع ذلك ابن وُهَيب[9] فرام مثله فقال:

---

(1) هو صالح بن عبد القدوس الشاعر المتكلم البليغ، كان يذهب في شعره مذهب الحكمة، والفلسفة، ولذلك رماه خصومه بالزندقة.
(2) ارعوى: نزع، وكفّ عن جهالاته.
(3) ذو الضنى: المريض يخشى عليه من الانتكاس.
(4) هو كلثوم بن عمرو العتابي التغلبي كان يقول: إنه من سلالة عمرو بن كلثوم من شعراء الدولة العباسية المطبوعين، ومن متقدميهم وكان كاتباً بليغاً، وخطيباً فصيحاً، وكان أول أمره منقطعاً إلى البرامكة، ثم وصلوه بالرشيد فبلغ كل مبلغ.
(5) البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(6) النصّ: السير الشديد.
(7) عجاهن: العجى، جمع العجاية، وهي عصب مركب فيه فصوص من عظام تكون عند رسغ الدابة.
(8) رواعف: تسيل منهنّ الدماء على الحصى.
(9) هو أبو جعفر محمد بن وهيب الحميري البصري، شاعر مطبوع مكثر من شعراء الدولة العباسية، وكان أديباً بارعاً من أدباء الشيعة، نشأ بالبصرة، وسكن بغداد، وكان مختصاً =

يخضب مروا دماً نجيعاً من فرط ما تُنكَبُ الحوامي»[1]

ط ـ ونادراً ما عبّر أبو عثمان عن تشابه الشاعرين أو الأديبين بقوله: «احتذى هذا البيت على فلان».

«قال بعض الكتاب: معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه، كما وصف الخريمي[2] شعر نفسه في مديح أبي دُلَف حيث يقول:

له كلمٌ فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوفْ

وأول هذه القصيدة:

أبا دُلفٍ حاجتي إليك وما خلتُها بالدلوفْ

ويظنون أن الخريمي إنما احتذى هذا البيت على أيوب بن القِرِّية حين قال له بعض السلاطين[3] ما أعددتَ لهذا الموقف: قال: ثلاثة حروف، كأنهن ركب وقوف: دنيا، وآخرة، ومعروف»[4].

ي ـ وأحياناً يعبّر الجاحظ عن حالة التشابه بقوله «كما قال».

«وقال مسلم بن الوليد:

فكم من مليم لم يصب بملامةٍ ومتّبع بالذنب ليس له ذنبُ

= بالحسن بن سهل، وهو من مؤدبي الفتح بن خاقان وزير المتوكل، وله مدائح في المأمون والمعتصم وغيرهما.

(١) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٢٩٨.

(٢) هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهى السفدي الخريمي الأعور، أصله من فارس، وانتمى إلى ابن خريم الناعم، فنسب إليه، كان شاعراً حسن الديباجة جيد المعاني، وكان متصلاً بمحمد بن منصور كاتب البرامكة وله فيه مدائح جياد، ثم رثاه بعد موته بأجود مما مدحه به وكان قد عمي.

(٣) بعض السلاطين: يريد به الحجاج بن يوسف وله مع ابن القِرِّية حديث.

(٤) البيان والتبيين، جـ١، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

وكم من محبٍّ صد عن غير علة وإن لم يكن في وصل خُلته عَتْبُ

وقال أيضاً:

لعلّ له عذراً وأنت تلوم وكم لائم قد لام وهو ملوم

كما قال الأحنف: ربّ ملوم لا ذنب له.

وقال ابن المقفع:

فلا تلم المرء في شأنه فربّ ملومٍ ولم يذنب»[1]

٣ ـ الحالة الثالثة عندما يهمل الشاعر معنىً جيداً، فيدّعيه غيره:

«وأنشدني له[2] الثقة في كلمة له معروفة:

الجورُ أخشنُ مسّاً يا بني مطرٍ[3] من أن تبزّكموه[4] كفُّ مستلبِ
ما أعلمَ الناسَ أن الجود مدفعة للذم لكنه يأتي على النشبِ[5]

قال ثم لم يحفل[6] بها، فادّعاها مسلم بن الوليد الأنصاري أو ادّعيت له، وكان أحد مَن يجيد قريض الشعر، وتحبير الكلام»[7].

٤ ـ الحالة الرابعة من المعاني والصور ما يستعصي على المقلدين، فإذا راموا تقليده افتضح أمرهم وبانَ عجزهم، «إلا ما كان من عنترة في صفة الذباب، فإنه وصفه، فأجاد صفته، فتحامى معناه الجميع، فلم يعرض له أحد

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٢) الضمير يعود على محمد بن عباد بن كاسب.
(٣) بنو مطر: من شيبان، وهم رهط معن بّن زائدة، ويزيد بن مريد ممدوح مسلم بن الوليد، وكانا مشهورين بالشجاعة والكرم فهو يقول لهم: إن الجود صعب المنال على غيرهم.
(٤) تبزكموه: تنتزعه منكم.
(٥) النشب: المال وهو كقول المتنبي: الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتالُ.
(٦) لم يحفل بها: لم يُعنَ بها.
(٧) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٦٤ ـ ٦٥.

منهم ولقد عرض له بعض المحدّثين ممّن كان يحسن القول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى، ومن اضطرابه فيه، أن صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر.

قال عنترة:

جادت عليه كل عَيْنٍ[1] ثرةٍ   فتركن كل حديقةٍ كالدرهمِ
فترى الذباب بها يغنى وحده   هزجاً كفعل الشارب المترنمِ
غرداً يحك ذراعه بذراعه   فعل المكب على الزناد الأجذمِ

قال: يريد فعل الأقطع المكب على الزناد. والأجذم: المقطوع اليدين. فوصف الذباب إذا كان واقعاً ثم حكّ إحدى يديه بالأخرى، فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعودين، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك. ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة»[2]، حتى بلغ من إعجاب عمرو بن بحر بهذا المعنى أن قال في موضع آخر: «فلو أن امرؤ القيس عرض في ذلك المعنى لعنترة لافتضح»[3].

٥ ـ الحالة الخامسة قد يكون الشاعر الثاني أقدر من الأول على معناه، عندما يزيده جمالاً ووضوحاً، ويزيد من حسن سبكه فيغلب عليه رغم تأخره عن صاحبه وعليه فالعبرة هنا لمن يحسن التعبير، ويجيد السبك والتصوير أكثر من غيره، ولا قيمة للتقدم في الزمن.

وهذه نظرة جديدة وجيدة لم نعهدها لدى النقاد العرب قبل الجاحظ، ولم يأنسوا لها بعده، ولو أننا استفدنا منها، لوفرنا على أنفسنا كل ذلك العناء والعنت في أبحاث لا طائل تحتها في التقصّي عن السرقات الموهومة، حتى غدا النقد وحشاً كاسراً يفترس المواهب البكر، فوصف السارق ينتظره، أنّى

---

(١) أراد بالعين الثرة: السحابة الغزيرة بالمطر، وجعل الحديقة كالدرهم في استدارته.
(٢) الحيوان للجاحظ، جـ٣، ص ٣١١ ـ ٣١٢.
(٣) المصدر السابق، جـ٣، ص ١٢٧.

توجه، وحيثما حاول أن يسير حتى وقع أدبنا في مأزق خطر حرج فشعراء العربية اعتباراً من القرن الرابع وجدوا الطريق مسدوداً في وجوههم فإما أن يعبّروا عن أنفسهم وعن عصرهم بالكلام الذي ثقفوه عن المتقدمين، ولا بدّ أن تتسرب بعض ألفاظهم ومعانيهم للمتأخرين، وعندها سيجدون مقراضاً حادّاً من ألسنة العسس المدعوين بالنقاد يرمونهم بالسرقة، ويدعونهم للمحاكمة الظالمة، أو على الشاعر أن يتجه نحو اللفظ فيزخرفه ما شاء له الحظ، وما وسعه الوقت وهكذا بدأت مدرسة الطبع بالتراجع ليتقدم التكلف والتصنع الذي انتهى بنا إلى الجفاف التدريجي، ومن ثم التحجّر الذي غرقنا به طويلاً وما زلنا نعاني من آثاره حتى يومنا هذا، لقد كانت أبحاث السرقة سدّاً منيعاً أجبر الشعراء والأدباء على الاتجاه نحو البديع الزخرفي اللفظي وكان أن اقتصرت الجهود على الشكل دون المضمون فجاء أدبنا هياكل عظمية لا حياة تنبض في قلوبها وأضحى حديقة عارية الأشجار في شتاء قارس.

«قال بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقال عمرو بن كلثوم:

تبني سنابكهم من فوق أرؤسهم ... سقفاً كواكبه البيض المباتير

وهذا المعنى قد غلب عليه بشار»(١).

رحماك يا أبا عثمان ليتنا انتفعنا بعلمك وفكرك وطبّقنا بحثك القيّم في السرقات الأدبية فلم نصم بالسرقة إلا من قلّد فقصر، وتأخر عن صاحب المعنى الأول، أو صاحب الصورة مبدعها الأول، وكنّا معتدلين في بقية الحالات كما فعلت في نظرتك الحكيمة المعتدلة لحالات التشابه الطبيعية بين الناس عند

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص ١٢٧.

تعبيرهم عن المعاني العامة المشتركة فاستعملنا أيَّة كلمة من كلماتك التسع التي عبّرت بها عن معنى الاشتراك والتشابه، وبرّأت أصحابها من النعت باللصوصية والسرقة، وكنت عادلاً حازماً عندما قررت أن المعنى مُلْك لمن يحسن التعبير عنه أكثر من غيره، أو مَن يُجيد التصوير، ويُصيب في التشبيه، أعود للقول ليتنا فهمنا نظريتك وعملنا بها لكان لنا منها الخير العميم.

الباب الرابع

الفصل الأوّل

فنون الشعر العربي

١ ـ المديـــح

أ ـ المقدمة ـ في أسباب نشوء فن المديح عند العرب:

١ ـ **هناك أسباب لدى الممدوح**: فالعربي يحب الثناء، وجميل الذكر، وحسن الأُحدوثة، ويروي الأبناء عن آبائهم، وأجدادهم ما قيل فيهم من مديح، ويفخرون به، بل ويعدّون هذا الشعر الذي قيل في مدحهم من أعظم نِعَم اللّه تعالى على عبده بعد الخلافة أو الولاية:

«ويدل على حبّهم للثناء، وجميل الذكر قول الأسدي:

فإني أُحب الخلد لو أستطيعه وكالخلد عندي أن أموتَ ولم أُلَمْ

وقال:

فأثنوا علينا لا أباً لأبيكم بمسعاتنا إن الثناءَ هو الخلدُ

وقال الغنوي:

فإذا بلغتم أهلكم فتحدثوا إن الحديث مهالكٌ وخلودُ

فجعل الذكر الجميل مثل الخلود في النعيم.

وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الإسكندر، وهو قاتل دارا بن دار:

ما ظننت أن قاتل دارا يموت!

وهذا القول هو أمدح منه لقاتله. ولم أسمع للعجم قطّ أمدح منها.

فأما العرب فقد أصبت لهم من هذا الضرب كلاماً كثيراً»[1].

٢ ـ دواعي المديح عند الشاعر: وهذه يمكن أن تلخص بالتكلّف، والخروج إلى التكبّر والغرور، وحبّ الشهرة عن طريق الشعر، وغلبة المنافسة على قلب الشاعر، وهي بدورها تفتح الباب لسيطرة الشيطان على عقله، وقلبه، فتدفعه إلى قول الزور ويصرف رغبته لما في أيدي الناس، فيفرط في مديح مَن أعطاه، وذمّ مَن منعه.

«ومن الخصال التي ذمّهم بها: **تكلّف الصنعة، والخروج إلى المباهاة، والتشاغل عن كثير من الطاعة، ومناسبة أصحاب التشديق، ومَن كان كذلك كان أشدّ افتقاراً إلى السامع من السامع إليه؛ لشغفه أن يذكر في البلغاء وصبابته باللحاق بالشعراء، ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة، والمغالبة، وولد ذلك في قلبه شدة الحمية وحبّ المجاذبة.**

ومن سخف هذا السخف، وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة، **كانت حالة داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصرف الرغبة إلى الناس، والإفراط في مديح مَن أعطاه، ودمّ مَن منعه**»[2].

ب ـ تقاليد فن المديح في الشعر العربي:

١ ـ الصفات التي ينبغي المدح بها: «ولا تعجب إن كانت نهاية الهمّة، وغاية المنية، **فإن حسن الوجوه إذا وافق حسن القوام، وشدة العقل، وجودة الرأي، وكثرة الفعل، وسعة الخلق، والمغرس الطيب، والنصاب الكريم، والطرف الناصع، واللسان المفحم، والحديث المونق...**»[3].

وعليه تكون الصفات التي أكـد عليها أبو عثمان في المديح والتي

---

(١) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد اسلام محمد هارون، الجزء الأول ـ رسالة في نفي التشبيه، ص ٣٠٤.

(٢) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

(٣) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ في مدح النبيذ، ص ١١٦ ـ ١١٧.

ينبغي التركيز عليها هي الصفات الآتية:

أ ـ حسن الوجه.

ب ـ حسن القوام.

جـ ـ جودة الرأي وشدة العقل.

د ـ كثرة الأعمال العظيمة التي قام بها الممدوح.

هـ ـ الحلم أو سعة الخلق.

و ـ الأصل الطيب والمنبت الكريم والتربية الحسنة.

ز ـ الطرف الناصع.

حـ ـ اللسان المفحم، وجمال البيان، والحديث المونق الذي يأخذ بألباب السامعين على أنه يسمح للشاعر أن يتزيد في صفات ممدوحه «وزعم بعضهم أن أسنان الذئب مخلوقة في الفك ممطولة في نفس العظم. وذلك مما توصف به الحيّة.

قال الشاعر:

مُطِلنّ في اللحيين مطلاً إلى الرأ س وأشداقٍ رحيباتِ

والشاعر يمدح الشيء فيشدد أمره، ويقوّي شأنه، وربما زاد فيه..»[1].

٢ ـ لقد جرت عادة الشعراء أن تكون الكلاب مقتولة حينما تذكر الكلاب والبقر في شعر المديح. «ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش.

وإذا كان الشعر مديحاً أن تكون الكلاب هي المقتولة.

على أن ذلك ليس حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب، وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك، فإنها تكون هي المصابة.

---

(١) الحيوان للجاحظ، جـ ٤، ص ٥٣.

والكلاب هي السالمة الظافرة، وصاحبها الغانم»[1].

فهذه القاعدة تقليد فني استنتجه أبو عثمان من اطّلاعه الدقيق على نماذج الشعر العربي ولا علاقة لها بواقع الصيد والقنص.

٣ - ينبغي مراعاة حال الممدوح؛ فالناس طبقات، وكل طبقة أو طائفة لها مديح يتناسب معها. وهو يرى أن الشاعر الذي يمدح الذميين ومَن شاكلهم يكون واحد من اثنين:

فإما أن يكون مديحه عن رغبة بما لهم، وإما أن يكونوا مستحقين للحمد.

«**من ذلك ما هو مديح رغبة، ومنه ما هو إحماد**[2] وأنشدنا أبو صالح مسعود بن قَنْد الفزاري في ناس خالطهم من اليهود:

وجدنا في اليهود رجال صدقٍ   على ما كان من دين يريبُ
لعمرك إنني وابنَيْ غريض   لمثلُ الماء خالطه الحليبُ
خليلان اكتسبتهما وإني   لخلة ماجدٍ أبداً كسوبُ»[3]

وعلى الشاعر مراعاة هذه القاعدة بدقة فإذا أخطأ في مراعاتها ناله تقريع عمرو بن بحر، كما فعل الكميت عندما قصر في مديحه للنبي ﷺ، فجاء مديحه متناسباً مع عامة الناس، فعدّه أبو عثمان من أقبح المديح.

«ومن المديح الخطأ الذي لم أرَ قطّ أعجب منه قول الكميت بن زيد، وهو يمدح النبي ﷺ فلو كان مديحه لبني أمية، لجاز أن يعيبهم بذلك بعض بني هاشم، أو لو مدح به بعض بني هاشم لجاز أن يعترض عليه بعض بني أمية. أو لو مدح أبا بلال الخارجي لجاز أن تعيبه العامة. أو لو مدح عمراً بن عبيد لجاز أن يعيبه المخالف. أو لو مدح المهلب، لجاز أن يعيبه أصحاب

---

(١) المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٠.
(٢) المصدر السابق، جـ٥، ص ١٥٧.

الأحنف. فأما مديحُ النبي ﷺ، فمن هذا الذي يسوءه ذلك حيث قال:

فاعتتب[1] الشوق من فؤادي والشـ ـعـر إلى مَنْ إليه مُعْتَبُ
إلى السراج المنير أحمد لا يعدلني رغبة ولا رهبْ
وقيل أفرطت بل قصدتُ ولو عنفني القائلون أو ثلبوا[2]
إليك يا خير مَن تضمنت[3] الأر ض ولو عاب قوليَ العُيُبُ
لج بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك الضجاج واللجُبُ
أنت المصفى المحض المهذب في النسـ ـبة إن نصَّ قومك النسبُ

ولو كان لم يقل فيه عليه السلام إلا مثل قوله:

وبورك قبرٌ أنت فيه وبوركتْ به وله أهلٌ بذلك يثربُ
لقد غيبوا برّاً وحزماً ونائلاً عشية واراك[4] الصفيح[5] المنصَّبُ[6]

فلو كان لم يمدحه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب لما كان بالمحمود، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا»[7].

وفي مثال آخر يعيب الجاحظ المديح المبالغ فيه لمن لا يستحقه؛ فقد خالف الشاعر مقتضى الحال.

«ومن المديح الذي يقبح، قول أبي الحلال في مرثية يزيد بن معاوية حيث يقول:

يا أيها الميْتُ بحُوَّارينا إنك خير الناسِ أجمعينا

---

(١) الاعتتاب: الانصراف عن الشيء، واعتتب عن الشيء: انصرف.

(٢) ثلبه: لامه، وعابه.

(٣) تضمنه: اشتمل عليه. والعيبُ: العيابون. وهو من المنسرح.

(٤) واراك سترك وغيبك.

(٥) الصفيح: جمع صفيحة، وهي الحجارة العريضة.

(٦) المنصَّب: الذي نصب بعضه على بعض، عنى حجارة القبر.

(٧) الحيوان للجاحظ، جـ ٥، ص ١٦٩ ـ ١٧١، وقد عاد للتوبيخ والنيل من الكميت في البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٦٨، وكذلك فعل ابن رشيق.

ودخل بعض أغثاث شعراء البصريين على رجل من أشراف الوجوه يقال في نسبه[1]، فقال: إني مدحتك بشعر لم تمدح قطّ بشعر هو أنفع لك منه. قال: ما أحوجني إلى المنفعة. ولا سيما كل شيء منه يخلد على الأيام فهات ما عندك فقال:

سألت عن أصلك فيما مضى أبناء تسعين وقد نيّفوا
فكلهم يخبرني أنه مهذبٌ جوهرُه يعرفُ

فقال له: قم في لعنه اللّه وسخطه!

فلعنك اللّه، ولعن من سألت ولعن من أجابك!!»[2].

جـ ـ الصفات الفنية للمديح الجيد:

«والمخرج السهل... مع الإشارة الحسنة،... واللهجة الفصيحة... والبديه البديع، والفكر الصحيح، والمعنى الشريف، واللفظ المحذوف والإيجاز يوم الإيجا، والإطناب يوم الإطناب، يفل المحز، ويصيب المفصل...»[3].

ومن هذا النص نستخرج الصفات الفنية التالية للمديح الجيد كما يراها أبو عثمان:

١ ـ جودة السبك وتتأتى من سهولة مخارج الكلمات.

٢ ـ الإشارة الحسنة للمعنى أي إعطاء المعنى حقه من الوضوح دون زيادة حتى لا يظن السامع أو القارىء بأنك تتهم عقله، ولا غموض يجعله محتاجاً للشرح.

٣ ـ واللهجة الفصيحة، وتأتي من استعمال الألفاظ العذبة المتناسبة مع

---

(١) يقال في نسبه. يطعن في نسبه.
(٢) الحيوان للجاحظ، ص ١٧١ ـ ١٧٨
(٣) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ـ في مدح النبيذ، ص ١١٦ ـ ١١٧.

بعضها بعضاً، ومع الغرض العام للقصيدة وهذه بينها الجاحظ بعد قليل على الوجه التالي:

«والشعر الفاخر حسن، وهو من الأعرابي أحسن، فإن كان من قول المنشد وقريضه، ومن نحته وتحبيره فقد بلغ الغاية، وأقام النهاية»(١).

٤ ـ **الصورة البديعة التي تجمع عنصري البساطة والجمال معاً**، وهذه ميزة الجمال المطلق كما يراه الجاحظ فهو ممتع وسهل في الوقت نفسه أتى على البديهة والسليقة، فجاء في مكانه المناسب دون تكلف أو تصنّع، فإن أكثر ما يبغضه أبو عثمان هو التصنّع، حتى لقد كرهه من الجارية الحسناء الشابة، لدرجة أنه زهد بجمالها، وشبابها إن كانت متصنعة:

«واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر.

وربما استملح الرجل ذلك منهنَّ ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف. ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد..»(٢).

٥ ـ **والفكر الصحيح يُعنى بإخراج المعنى الشريف إخراجاً حسناً** ويقدّمه للقارىء والسامع في وقته المناسب.

٦ ـ **لا بدّ من البراعة في مراعاة مقتضى الحال** وهذا شرط يندرج ضمنه جميع فنون الكلام، وخصوصاً التقيد بالأوقات المناسبة لكلٍّ من الإيجاز أو الإطناب، أو المساواة.

٧ ـ **لا بدّ من مراعاة الصدق بصورة عامة وعدم الإسراف والمبالغة** وقد رأيناه لا يغتفر المحال إلا إذا كانت الصورة الجميلة غاية في الإبداع والإتقان والبساطة، أو كان المعنى الذي اخترعه الشاعر بكر غريباً.

---

(١) المصدر السابق مكرر

(٢) البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٧٢ ـ ١٧٤.

«وأحببت أن يكون كتاباً قصداً، ومذهباً عدلاً ولا يكون كتاب إسراف في مديح قوم، وإغراق قوم في هجاء آخرين. وإذا كان الكتاب كذلك شابه الكذب، وخالطه التزيد وبني أساسه على التكلّف، وخرج كلامه مخرج الاستكراه والتغليق»[1].

وأنفع المدائح للمادح وأجداها على الممدوح، وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً، أن يكون المديح صدقاً، وللظاهر من حال الممدوح موافقاً، وبه لائقاً، حتى لا يكون من المعبِّر عنه والواصف له، إلا إشارة إليه، والتنبيه عليه..»[2].

٨ ـ ويجب أن نضع في حسابنا أن الكمال للّه وحده، ولذا يجب أن نقنع من أعمال الناس ما كان خيره أكثر من شره، دون شطط، فلا يكلف اللّه نفساً إلا وسعها.

«ولكلٍّ نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن، وقلّة المساوىء، فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوىء دقيقها، وجليلها، وظاهرها، وخفيّها، فهذا لا يعرف.

وقد قال النابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه على شعثٍ أي الرجال المهذب!؟

وقال حريش السعدي:

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه تلوّن ألواناً عليَّ خطوبُها
إذا عبت منه خلة فتركته دعتني إليه خلة لا أعيبها

---

(١) التغليق: المراد به العسر، كما يُغلّق الباب تغليقاً.

(٢) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ الجزء الأول، مناقب الترك، ص ٣٦ ـ ٣٨.

وقال بشار:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك، لم تلق الذي لا تعاتبُه
فعش واحداً، أو صِلْ أخاك فإنه مقارف ذنبٍ مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القذى ظمئت، وأيّ الناس تصفو مشاربُه»[1]

د ـ وجهة نظر بخيل في المديح:

ولا يحب أبو عثمان أن يدع باب المديح دون أن يعرض حجج معارضي هذا الفن من البخلاء، وقد اتصف أبو عثمان بالإنصاف، فساق حججهم على أوضح وجه، وعبّر عنهم بأحسن مما لو عبّروا عن أنفسهم.

«فلاسم الجود موضعان: أحدهما حقيقة، والآخر مجاز. فالحقيقة ما كان من اللّه. والمجاز المشتق له من هذا الاسم وما كان للّه كان ممدوحاً، وكان لله طاعة.

وإذا لم تكن العطية من اللّه، ولا للّه، فليس يجوز هذا فيما سمّوه جوداً، فما ظنك بما سمّوه سرفاً؟

بل ما ظنك بالشعراء، والخطباء الذين إنما تعلموا المنطق لصناعة التكسب؟ وهؤلاء قوم بودّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدّ السلامة إلى الغفلة، حتى لا يكون للأموال حارس، ولا دونها مانع.

فاحذرهم، ولا تنظر إلى بزّة أحدهم، فإن المسكين أقنع منه ولا تنظر إلى مركبه، فإن السائل أعفّ منه، واعلم أنه في مسك مسكين، وإن كان في ثياب جياد، وروحه روح نذل وإن كان جِرْم ملك، وكلهم، وإن اختلفت وجوه مسألتهم واختلفت أقدار مطالبهم، فهو مسكين.

إلا أن واحداً يطلب العلق، وآخر يطلب الخرق، وآخر يطلب الدوانيق، وآخر يطلب الألوف.

(١) المصدر السابق مكرر.

فجهة هذا هي جهته هذا! وطُمعة هذا في طُمعة هذا، وإنما يختلفون في أقدار ما يطلبون على قدر الحِذق والسبب.

فاحذر رفاقهم، وما نصبوا لك من الشُّرَك، واحرس نعمتك وما دسّوا لها من الدواهي، واعمل على أن سحرهم، يسترق الذهن، ويختطف البصر. قال رسول اللّه - ﷺ -: «إن من البيان لسحراً»[1]. وقد قال رسول اللّه - ﷺ -: «لا خلابة»[2].

واحذر احتمال مديحهم، فإن محتمل المديح في وجهه كمادح نفسه..

ودعني مما نراه - في الأشعار المتكلفة، والأخبار المولدة، والكتب الموضوعة، فقد قال بعض أهل زماننا: «ذهبت المكارم إلا من الكتب، فخذ فيما تعلم، ودع نفسك مما لا تعلم»[3].

هـ - مختارات من المديح الجيد:

والجاحظ يعوِّل على الشواهد الشعرية والأمثلة كثيراً لتوضيح أفكاره، حتى ذهب به الأمر إلى الاستعانة بها في شرح حياة الحيوان، وطباعه، وتشريح أعضائه فلا عجب إن رأيناه يهتم بالنماذج الجيدة من فنون الشعر العربي لكي تعينه على رسم صورة واحضة في ذهن القارىء عن النموذج الجميل للفن الشعري. «وكان أُسيلم بن الأحنف الأسدي، ذابيان، وأدب، وعقل وجاه، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا أيها الركب المخبُون هل لكم ... بسيِّد أهل الشام تُحْبَوا[4] وترجعوا
أسليم ذاكم لا خفا بمكانه ... لعين تُدجّى أو لأُذن تسمَّعُ
نجيبة بطال لدن شبّ همّه ... لعاب الغواني والمُدام المشعشعُ

(١) معجم ألفاظ الحديث النبوي الشريف جـ ١ ص ٢٥٩.
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٨.
(٣) البخلاء للجاحظ - تحقيق طه الحاجري، ص ١٧٤ - ١٧٦.
(٤) تُحْبَوا: تأخذون الحباء، وهو المال الذي يبذل جوداً وكرماً.

من النفر البيض الذين إذا انتمَوا   وهاب الرجال حلقة الباب قعقعوا[1]
جلا الأذفرُ الأحوى من المسك فرقه[2]   وطيب الدهان رأسه فهو أنزع[3]
إذا النفر السود اليمانون[4] حاولوا   له حوك برديه أراقوا وأوسعوا

وهذا الشعر من أشعار الحفظ والمذاكرة»[5].

ومن جيد المديح ما قيل فيهم[6]:

«للفضل يوم الطالقان وقبله   يومٌ أناخ به على خاقان[7]
ما مثلُ يوميه اللذين تواليا   في غزوتين حواهما يومَان
عصمت حكومتُه جماعة هاشم   من أن يُجرَّد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها[8]   عظم الثأى وتفرق الحُكمان»[9]

«وعن هشام بن عروة قال: سمع عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ رجلاً ينشد قول الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خيرُ موقدِ

فقال عمر: ذاك رسول الله ﷺ. وقد كان الناس يستحسنون قول الأعشى:

تُشبُّ لمقروريْن يصطليانها   وبات على النار النَدى والمحلَّقُ

---

(1) قعقعوا: دقّوا أبواب الملوك على غير هيبة ولا وجل.
(2) فرقه: شعر ناصيته.
(3) أنرع: منحسر شعر الحبهة
(4) النفر اليمانون: لأن الحياكة الجيدة كانت في أهل اليمن.
(5) البيان والتبيين للجاحظ، جـ ١، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.
(6) الضمير يعود على البرامكة.
(7) يشير إلى وقائع حاسمة كانت منه في بلاد الطالقان وممالك الترك التي يحكمها الخاقان.
(8) يشير إلى أمر الحكمين بين علي ومعاوية، وما كان من أمرهما من التفريق والتمزيق بين جماعة المسلمين.
(9) البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

فلما قال الحطيئة البيت الذي كتبناه قبل هذا سقط بيت الأعشى»[1].

ونقرأ لأبي عثمان في موضع آخر:

«ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العنزي[2]، وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز، والبيعة للوليد بن عبد الملك. في خطبته المشهورة، وقصيدته المذكورة. وهو الذي لما بلغ عبد الملك بن مروان قتلُ الحجاج له قال: ولِمَ قتله ويله؟

هلّا رعى له قوله فيه:

وبعثت من ولـد الأغـرّ مُعتِّب[3] صقراً يلوذُ حمامُه بالعرفجِ
فإذا طبخت بناره أنضجتها وإذا طبخت بغيرها لم تنضجِ
وهو الهزبر إذا أراد فريسة لم ينجها منه صياح[4] الهجهج»[5]

ونجد له أيضاً:

«وقال كعب الأشقري لعمر بن عبد العزيز:

إن كنتَ تحفظُ ما يليك فإنما عمال أرضِك بالبلادِ ذئابُ
لن يستجيبوا للذي تدعو له حتى تجلَّد بالسيوف رقابُ
بأكف منصلتين أهل بصائر في وقعهنّ مزاجرٌ وعقابُ
هلّا قريش ذُكرتْ بثغورها حزمٌ وأحلامٌ هناك رغاب

---

(1) المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(2) كان عمران بن عصام شاعراً لسناً، وجلداً شجاعاً، أرسله الحجاج إلى عبد الملك ليحضّه على خلع ولاية العهد عن عبد العزيز بن مروان وإعطائها للوليد ابنه. فأدى الرسالة، وتم ما أراد الحجاج. ولما كانت فتنة ابن الأشعث خرج معه عمران، فلما وقع بين يدي العحاج قتله شر قتله.

(3) معتب: أحد أجداد الحجاج بن يوسف.

(4) الهجهجة: الصياح على الأسد لطرده وزجره.

(5) البيان والتبيين، جـ١، ص ٧١.

لــولا قــريشٌ نصــرُهــا ودفــاعهــا ... أُلفيــتُ منــقــطعــاً بي الأســبــابُ

فلما سمع هذا الشعر قال: لمن هذا؟ قالوا: لرجل من أزد عمان يقال له: كعب الأشقري؟ قال: **ما كنت أظن أهل عمان يقولون مثل هذا الشعر»**[1].

ويسوق أبو عثمان أمثلة للمديح الجيد كانت سبباً في نجاة أصحابها من أيدي الملوك وحصولهم الجوائز الكبيرة: «ولما مدح ابن هرمة أبا جعفر المنصور أمر له بألفي درهم فاستقلها، وبلغ ذلك أبا جعفر فقال:

أما يرضى أني حقنت دمه، وقد استوجب إراقته، ووفّرت ماله، وقد استحق تلفه، وأقررته، وقد استأهل الطرد، وقرّبته، وقد استحق البعد؟

أليس هو القائل في بني أمية:

إذا قيــل من عنــد ريب الــزمــا ... ن لــمعتــرٍّ فهــرٍ ومحتــاجهــا
ومن يعجــلُ والخيــل يــوم الــوغى ... بــألــجــامهــا قبــل إســراجهــا
أشـــارت نـســاء بنــي مــالــك ... إلــيــك بــه قــبــل أزواجــهــا

قال ابن هرمة: فإني قلت فيك أحسن من هذا!

قال هاته! قال: قلت:

إذا قــلتُ أيُّ فــتــىً تــعــلمــو ... ن أهشَّ إلى الــطعنِّ بالــذابــلِ
وأضــرب لــلقــرن يــوم الــوغى ... وأطــعم فــي الــزمن الــمــاحــل
أشــارت إلــيــك أكــفّ الــورى ... إشــارة غــرقــى إلــى ســاحــل

قال المنصور: أما هذا الشعر، فمسترق، وأما نحن فلا نكافىء إلا بالتي هي أحسن»[2].

---

(1) المصدر السابق، جـ٣، ص ٣١٦.
(2) المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

وكذلك نجد: «قال الهيثم بن عدي: أنشدت هارون وهو ولي عهد أيام موسى الهادي بيتين لحمزة بن بيض في سليمان بن عبد الملك:

حاز الخلافة والداك كلاهما من بين سخطة ساخطٍ أو طائعِ
أبواك ثم أخوك أصبح ثالثاً وعلى جبينك نور ملك ساطعِ

قال: يا يحيى[1] اكتب لي هذين البيتين»[2].

وتقرأ له في البيان ما يلي:

«وقال أبو الشغب السعدي:

ألا إن خير الناس قد تعلمونه أسير ثقيفٍ[3] موثقاً في السلاسل
لعمري لئن أعمرتم السجن خالداً وأوطأتموه وطأة المتثاقلِ
لقد كان نهاضاً بكل ملمةٍ ومُعطي اللُّهى غَمْراً كثير النوافلِ
فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائلِ

ومن هذا الباب قول أعشى هَمْدان في خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحي:

رأيت ثناء الناس بالغيب طيباً عليك وقالوا ماجدٌ وابنُ ماجدِ
بني الحارث السامين للمجد إنكم بنيتم بناءً ذكرُه غيرُ بائدِ
هنيئاً لما أعطاكم اللّه واعلموا بأني سأطري خالداً في القصائدِ
فإن يكُ عتاب مضى لسبيله فما مات من يبقى له مثلُ خالدِ»[4].

وفي الحيوان يقدّم مجموعة من المختارات الجميلة القصيرة:

---

(1) يحيى بن خالد البرمكي.
(2) المصدر السابق، جـ ٣٢٦٣ مكرر.
(3) يمدح خالد بن عبد اللّه القسري حينما عزل بيوسفَ بن عمر الثقفي وأخذه يوسف فسجنه وعذبه.
(4) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

«باب من المديح بالجمال وغيره[١]».

قال مُزاحمٌ العَقيلي:

يزينُ سنا الماوي[٢] كل عشيةٍ ... على غفلات الزين والمتجمل
وجوهٌ لو أن المدلجين اعتشوا بها ... صدعنَ الدجى حتى ترى الليل ينجلي

وقال الشمردل:

إذا جرى المسك يندى في مفارقهم ... راحوا كأنهم مرضى من الكرم
يشبهون ملوكاً من تجلّتهم[٣] ... وطول أنضية الأعناق واللمم[٤]

النضي: السهم الذي لم يُرش، يعني أن أعناقهم ملس مستوية والأمم: القامات

وقال لقيط بن زرارة:

وإني من القوم الذين عرفتم ... إذا مات منهم سيد قام صاحبُه
نجوم سماء كلما غار كوكب ... بدا كوكب تأوي إليه كواكبُه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظّم الجزع[٥] ثاقبُه

وقال رجل من بني نهشل[٦]:

وإني لمن معشرٍ أفنى أوائله ... قيلُ الكماة ألا أين المحامونا
لو كانَ في الألف منا واحدٌ فدعوا ... مَنْ فارس خالهم إياه يعنونا
وليس يذهب منّا سيدٌ أبداً ... إلا افتلينا[٧] غلاماً سيداً فينا

(١) مرّ معنا في مطلع الفصل تفصيل الصفات التي ينبغي المديح بها.
(٢) الماوي: لغة في الماوية أي المرأة.
(٣) التجلّة: العظمة.
(٤) اللمم: جمع لِمة بكسر اللام وهو الشعر.
(٥) الجَزْع: بالفتح: ضرب من الخرز فيه سواد وبياض.
(٦) هو بشامة بن حزن النهشلي.
(٧) افتلينا: الافتلاء: الافتطام، والأخذ عن الأم.

وفي غير ذلك من المديح يقول الشاعر:

وأتيت حيّاً في الحروب محلَّهم والجيش باسم أبيهم يُستهزمُ

وفي ذلك يقول الفرزدق:

لتبكِ وكيعاً[1] خيلُ ليلٍ مغيرةٌ تَساقَى السِّمامَ[2] بالردينية السُّمرِ
لقَوا مثلهم فاستهزموهم بدعوة دعَوها وكيعاً والرماح بهم تجري»[3]

و ـ والصلة بين المديح والهجاء:

وقبل أن ينتقل الجاحظ إلى باب الهجاء أحب أن يوضّح الصلة بين هذين الفنين لأنه وجد **بعض المُغرضين يدّعي أن العرب يمدحون الشيء الذي يهجون به**، فكان جوابه التالي:

«والعربي يعافّ الشيء، ويهجو به غيره، فإذا ابتلي بذلك، فخر به، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهله ما هجا به صاحبه.

فافهم هذا فإن الناس يغلطون على العرب ويزعمون أنهم يمدحون الشيء الذي قد يهجون به، وهذا باطل؛ **فإنه ما من شيء إلا وله وجهان، وطرفان، وطريقان: فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين، وإذا ذمّوا ذكروا أقبح الوجهن..**»[4].

(١) وكيع هذا هو ابن أبي سود الغداني.
(٢) السمام: جم سم.
(٣) الحيوان، جـ ٣، ص ٩١ ـ ٩٧.
(٤) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٧١ ـ ١٨٠.

الفصل الثاني

فنون الشعر العربي

٢ ـ الهجاء والنقائض

أ ـ سببا نشوء فن الهجاء في الشعر العربي:

يرى أبو عثمان سببين لنشوء هذا الفن في شعرنا العربي يعودان إلى الشاعر الهاجي نفسه، وهذان السببان هما:

١ ـ حرص الشاعر على المال يدفعه إلى الإفراط في ذمّ مَن منعه منه، كما كان المال سبب المديح عندما يحصل الشاعر المرتزق على الجائزة، فقد يصادف مَن لا يدفع له، فينطلق لسانه بالهجاء بالحق وبالباطل، تماماً كما تفعل صحافتنا «صاحبة الجلالة» في هذه الأيام من القرن العشرين، رغم ما تدّعيه من مسوح العقائدية الثورية، والتقدمية المتطرفية... إلى نهاية المعزوفة، فهي والحق يُقال جاءت بلاءاً علينا في مسلاخ دجّال.

«فمن الخصال التي ذمّهم بها. تكلف الفصاحة، والخروج إلى المباهاة، والتشاغل عن كثير من الطاعة، ومناسبة أصحاب التشديق، ومن كان كذلك، كان أشد افتقاراً إلى السامع من السامع إليه؛ لشغفه أن يذكر في البلغاء، وصبابته اللحاق بالشعراء، ومَن كان كذلك غلبت عيه المنافسة والمغالبة، وولّد ذلك في قلبه شدة الحمية، وحبّ المجاذبة. **ومن سخف هذا السخف، وغلب عليه الشيطان هذه الغلبة كانت حاله داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصرف الرغبة إلى الناس، والإفراط في مديح مَن أعطاه، وذم من منعه**»[١].

(١) البيان والتبيين، جـ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

٢ - قد ينقلب مديح الشاعر إلى الهجاء عندما يخطىء التعبير أو لا يكون المديح متناسباً مع حال الممدوح وبهذا يكون قد أراد أن يمدح فهجا.

«قال سعيد بن سَلْم(١): لما قال الأخطل بالكوفة: أخطأ الفرزدق حين قال:

أبني غدانة إنني جررتكم فوهبتكم لعطية بن جعالِ(٢)
لولا عطية لاجتدعت(٣) أنوفكم من بين الأم أعينٍ وسبالِ(٤)

كيف يكون قد وهبهم له هو يهجوهم بمثل هذا الهجاء؟! قال: فانبرى له فتىً من بني تميم، فقال له: وأنت الذي قلت في سويد بن منجوف(٥):

وما جذْعُ سوءٍ رقّقَ السُّوسُ جوفَه لما حُمِّلَتْه وائلٌ بمطيقُ(٦)

أردت هجاءه، فزعمت أن وائلاً تعصب به الحاجات، وقدر سويد لا يبلغ ذلك عندهم؛ فأعطيته الكثير، ومنعته القليل(٧)!

---

(١) هو سعيد بن مسلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي، ولآه السلطان بعض الأعمال بمرو، وقدم بغداد، وحدّث بها، فروى عنه محمد بن زياد بن الأعرابي وكان سعيد عالماً بالحديث والعربية. وله أخبار مع المأمون.

(٢) هو عطية بن جعال الغداني، كان صديقاً ونديماً للفرزدق، فبلغ الفرزدق أن رجلاً من بني غدانة هجاه، وعاون جريراً عليه، فهمّ الفرزدق بهجاء بني غدانة، فأتاه عطية بن جعال، فسأله أن يصفح عن قومه، ويهب له أغراضهم، ففعل..

(٣) لاجتدعت: لقطعت.

(٤) السبال: جمع سبلة، وهي ما على الشارب من الشعر أو ما على الذقن إلى طرف اللحية. الأغاني فبلغ ذلك عطية فقال: ما أسرع ما ارتجع هبته قبحها اللّه مس هبة ممنونة، مرتجعة.

(٥) سويد بن منجوف زعيم بكر بن وائل بالبصرة، وكان الأخطل وفد عليه بشأن حمالة فذكر سويد قومه بهجاء الأخطل لهم، فلم يدفعوا شيئاً وعاد الأخطل خائباً فهجاه.

(٦) أراد لما حملته إياه فهو حين جعله كهذا الجزع هجاه، وحين حملته وائل مدحه فناقص نفسه بذلك.

(٧) في الموشح «١٣» أن سويداً نفسه نقد الأخطل في هجوه إياه، وقال له: يا أبا مالك لا واللّه ما تحسن الهجو، ولا تحسن المدح، بل تريد الهجاء فيكون مديحاً، وتريد المديح فيكون هجاء. قل لي وأنت تريد هجائي: لما حملته وائل بمطيق. فجعلت وائلاً حملتني أمورها، وما طمعت في ذلك من بني ثعلبة فضلاً عن بكر.

وأردت أن تهجو حاتماً بن النعمان الباهلي[1]، وأن تصغّر من شأنه، وتضع منه، فقلت:

وسـوَّد حـاتمـاً أن ليس فيهـا   إذا مـا أُوقـد الـنيـرانُ نـارُ

فأعطيته السؤدد من قيس، ومنعته ما لا يضرّه.

وأردت أن تمدح سِمَاك بن زيد الأسدي، فهجوته فقلت:

نعم المجيرُ سماكٌ من بني أسـد   بالطَّف[2] إذ قتلت جيـرانَها مُضَـرُ
قـد كنتُ أحسبُه قينـاً وأُنْبَؤُه[3]   فـاليـوم طُيِّـرَ عن أثـوابِـه الشـررُ

وقلت في زفر بن الحارث[4]:

بـني أميـة إني نـاصـح لـكـم   فـلا يبيتنْ فيكـم آمنـاً زُفَـرُ
مفتـرشاً كـافتراش الليث كلكله[5]   لـوقعـةٍ كـائن فيهـا لكم جَـزَرُ[6]

فأردت أن تغري بني أمية، فوهَّنت أمرهم، وتركتهم ضعفاء ممتهنين، وأعطيت زفر عليهم من القوة ما لم يكن في حسابه.

---

(١) كان يكتب لأبي جعفر المنصور عبد الملك بن حميد مولى حاتم بن النعمان الباهلي.

(٢) أرض من ضاحية الكوفة، في طريق البرية، فيها كان مقتل الحسين بن علي بكربلاء يوم عاشوراء عام ٦١ هـ، ويسمى قتيل الطف، وفي البيت إشارة إلى غدر أهل العراق بالحسين، بعد أن كتبوا له يطلبون منه الشخوص إليهم

(٣) أُنْبَؤُه: أخبره. أراد أن الشرر لا يدنو من أثوابه، فهو ليس قيناً. وكان قوم سما يدعون القيون وفي الموشح أن سويداً بن منجوف قال للأخطل: «ومدحت سماك بن عمير أخا بني أسد، وأردت أن تنفي عنه شيئاً، فحققته عليه».

(٤) هو زفر بن الحارث الكلابي، أحد بني عمرو بن كلاب، وكان قد خرج على عبد الملك بن مروان، وظل يقاتله تسع سنين، ثم رجع إلى الطاعة. دخل زفر بن الحارث على عبد الملك بعد الصلح فقال: ما بقي من حبك للضحاك؟ قال: ما لا ينفعني ولا يضرّك، قال: فما منعك من مواساته يوم المرج؟ قال: الذي منعك من مواساة عثمان يوم الدار وزفر كان سيد قيس في زمانه، ويكنى أبا الهذيل وكان على قيس يوم مرج راهط

(٥) الكلكل: الصدر

(٦) الجَزَرُ: بالتحريك ما يجزر من الشاة واحدته جَزَرة. يقول: زفر يتأهب للإيقاع بكم.

قال ورجع أبو العطاف من عند عمرو بن هدَّاب في يومين كانا لعمرو وأبو العطاف يضحك. فسئل عن ذلك، فقال: أما أحد اليومين فإنه جلس للشعراء، فكان أول من أنشده المديح فيه، طريف بن سوادة، فما زال ينشده أُرجوزةً له طويلة حتى انتهى، إلى قوله:

أبـــرصُ فيَّـاضُ اليـــدين أكلفُ[1] والبُرصُ أندى[2] باللهى[3] وأعرفُ
مُجْلَوِّذٌ في الزَحَفَات مِزْحَفُ[4]

المِجْلَوذ: السريع.

وكان عمرو أبرضَ فصاح به ناسٌ: ما لك؟ قطع اللّه لسانك؟ قال عمرو: مَهْ، البرص من مفاخر العرب.

أما سمعتم ابن حبناء [المغيرة] يقول:

إني امرؤٌ حنظلي[5] حين تنسبني لا ملْ العتيك[6] ولا أخوالي العَوَقُ[7]
لا تحسبَنَّ بيـــاضـــاً في منقـصـــةً إن اللهاميمَ[8] في أقرابهــا[9] بلقُ

أو ما سمعتم قول الآخر:

يــا كـأس لا تستنكــري نحـولي ووضحــاً أوفى[3] على خصيلي[4]

(١) الكلف: لون يعلو الجلد فيغيّر بشرته.
(٢) أندى: أكثر ندىً، والندى: الجود والعطاء.
(٣) اللُّهى: بضم ففتح جمع لُهوة بالضم وهي العطية. وأجود العطايا.
(٤) المزحف: الكثير الزحف للعدو.
(٥) حنظلي: من بني حنظلة، وهو المغيرةُ بن حبناء بن ربيعة بن حنظلة.
(٦) العتيك: كأمير قبيلة من ولد كعب بن يشكر بن بكر بن وائل.
(٧) العَوَق: من يشكر، وكانوا أخوال المفضل، يعني المفضّل بن المهلب
(٨) اللهاميم: جمع لهموم، وهو الجواد من الناس والخيل.
(٩) الأقراب: جمع قُرب بالضم: الخاصرة.
(١٠) أوفى: ارتفع.
(١١) الخصيل: جمع خصيلة، وهي الخصلة من الشعر.

فــإن نعت الفــرس الــرجيــل(١) يكْمُــلُ بــالغــرة والتحجيــلِ(٢)

وأتى بعض الشعراء أبا الواسع، وبنوه حوله، فاستعفاه أبو الواسع من إنشاد مديحه، فلم يزل معه، حتى أذن له فلما انتهى إلى قوله:

فكيف تُنْفى وأنت اليــوم رأسهم وحــولك الغـرُّ من أبنائـك الصيـدُ

قــال أبــو الــواســع لــيتــك تــركــتهــم رأســاً بــرأس!»(٣)

ب ـ أثر الهجاء على العرب:

١ ـ **المقدمة: في عادة العرب في الهجاء**: يوضّح الجاحظ عادة العرب في الهجاء عندما يلزمون القبيلة كلها بعمل قبيح أتاه واحد منها، وقد يكون هذا الرجل معذوراً عند العقلاء إذ قدروا ظروفه التي دفعت به لهذا العمل القبيح ولكن الشعراء المتكسبين أعني صحف ذلك الزمان لم تكن تحب أن تعرف السبب بل كانت تصرّ على الهجاء والنكير وتعميم الحادثة الفردية وأحياناً ينصبّ الهجاء على القوت أو الغذاء الذي تفرضه البيئة التي تعيش القبيلة بها، ولكن الشعراء يطلقون ألسنتهم بالهجاء، ويتندرون من غذاء القوم..

«وتهجي أسد بأكل الكلاب، وبأكل لحوم الناس. **والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً ألزمت ذلك القبيلة كلها**، كما تمدح القبيلة بفعل جميل، وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها، **فتهجو قريشاً بالسخينة، وعبد القيس بالتمر، وذلك عامٌ في الحيّين جميعاً، وهما من صالح الأغذية والأقوات.**

كما تهجو بني أسد بأكل الكلاب والناس، وإن كان ذلك إنما كان من

(١) الرجيل: من الإبل والدواب: الصبور على طول السير.
(٢) التحجيل: بياض قوادم الفرس.
(٣) الحيوان، جـ ٥، ص ١٦١ ـ ١٦٩.

رجل واحد، ولعلك إذا أردت التحصيل تجده معذوراً... وقال في ذلك مساور بن هند:

إذا أســديــة ولــدت غــلامــاً فـبـشـرهـا بلؤم فـي الـغـلام
تـخـرِّسُهـا نـسـاء بـنـي دبـيـر بـأخبث ما يجدن من الطعام
تـرى أظـفـار أعقـذ مـلقـيـاتٍ بـراثـنـهـا على وضم الثُـمـام

... وقال الفرزدق:

إذا أسـدي جـاع يـومـاً ببلدةٍ وكـان سميـنـاً كلبُـه فهـو آكلُه»[1]

ولهذا السبب خاف العرب الهجاء، فوصل بهم الأمر إلى حدّ البكاء خوفاً من لسان شاعر هجاء خبيث: «ولأمرٍ ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب، وبكى علقمة بن علاثة، وكما بكى عبد اللّه بن جدعان من بيت لخداش بن زهير...»[2].

وعليه ينصح الجاحظ العرب بالحذر من شظايا الهجاء والحيطة من الشعراء، مهما كان واحدهم مفحماً خسيساً، فرُبّ بيت شرود ذهب مثلاً، حتى بلغ الخوف بالجاحظ أن ينصح للعاقل أن يهب الشعراء شطر ماله حماية لعرضه وسمعته:

«فيجب على العاقل بعد أن يعرف ميسم[3] الشعر ومضرّته أن يتقي لسان أخسّ الشعراء، وأجهلهم شعراً بشطر ماله بل بما أمكن من ذلك. فأما العربي أو المولى الراوية، فلو خرج من جميع ملكه، لما عنّفته.

والذي لا يكترث لوقع نبال الشعر كما قال الباخرزي:

---

(١) البخلاء للجاحظ - تحقيق طه الحاجري، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.
(٢) الحيوان للجاحظ، جـ ١، ص ٣٦٤.
(٣) الميسم: العلامة التي يتركها الكي بالنار.

ما لي أرى الناس يأخذون ويعـ طون ويستمتعون بالنسب
وأنت مثل الحمار أبهم لا تشكو جراحات ألسن العرب

ولأمرٍ ما قال حذيفة لأخيه، والرماح شوارع في صدره «**إياك والكلام المأثور**».

وهذا مذهب جامع لأصناف الخير»[1].

ويتابع عمرو بن بحر تحذيره على النحو التالي:

«وقالوا في التحذير من ميسم الشعر، ومن شدة وقع اللسان، ومن بقاء أثره على الممدوح، والمهجو، قال امرؤ القيس:

ولو عن نثا[2] غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد
لقلت من القول ما لا يزا لُ يؤثر عن يد المُسندِ[3]

وقال طرفة[4]:

بحسام سيفك أو بلسانك والكليم الأصيل كأرغبِ الكلمِ[5].

وأنشد محمد بن زياد ابن الأعرابي:

تمنى أبو العفاق عندي هجمة[6] تسهِّل مأوى ليلها بالكلاكل[7]

---

(١) المصدر السابق، جـ ٥، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.
(٢) النثا: الخبر عن الآخرين.
(٣) يد المسند: أبد الدهر.
(٤) هو طرفة بن العبد البكري، كان من مشاهير الشعراء في الجاهلية، مات حدثاً عام ٥٦٤ م، وهذا البيت الذي استشهد به الجاحظ في الأصل من كلمة قاله يمدح بها قتادة بن مسلمة الحنفي وكان أغوث قومه في سنة مجدبة، وهي من قصيدة مطلعها:
إن امرأً سرفَ الفؤادِ يرى عسلاً بماءِ سحابة شتمي
(٥) كأرغب الكَلِم: يعني أن من الكلام كلاماً يجرح جرحاً هو أوسع من جرح السيف أو السنان.
(٦) الهجمة: القطعة من النوق فيها فحل.
(٧) الكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر.

ولا عقل عندي غير طعنٍ نوافذٍ   وضربٍ كأشداق الفصال[1] الهوادل[2]
وسبّ يودّ المرء لو مات قبله   كصوع الصفا[3] فلّقته بالمعاول

وقال الأخطل[4]:

حتى أقرّوا وهم مني على مضضٍ   والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

وقال بعض المولدين:

إذا نلتَ العطية بعد مُطْلٍ   فلا كانت وإن كانت جزيلة
فسقياً[5] للعطية ثم سقياً   إذا سهلت وإن كانت قليلة
وللشعراء ألسنة حِداد   على العورات موفية دليلة
ومن عقل الكريم إذا اتقاهم   وداراهم مداراة جميلة
إذا وضعوا مكاذبهم[6] عليه   وإن كذبوا فليس لهنّ حيلة»[7]

٢ ـ **ميسم الشعر في بعض قبائل العرب**: يرى عمرو بن بحر أن بعض القبائل نكبت بأخبث الهجاء من متكسبي الشعر، وعظم البلاء عليها، حتى اضطرت للتنكر والتبرؤ من اسمها، والانتماء إلى جدٍّ غير الذي عُرفت به من الهجاء وشُهِّر بها. «قال أبو عبيدة: كان الرجل بني نمير إذا له قيل له: ممّن

(١) الفصال: جمع فصيل، والفصيل: ولد الناقة إذا فصل عنها.
(٢) الهوادل: العظام والمشافر. والعقل ههنا: الديّة، والعاقلة: أهل القاتل الأدنون، والأبعدون.
(٣) الصفاء: جمع صفاة؛ وهي الصخرة الملساء.
(٤) هو أبو مالك غياث بن غوث، الأخطل التغلبي، شاعر فحل من شعراء الدولة الأموية، نازع جريراً والفرزدق التقدم والتفوق. وقد فضّله كثير من العلماء بالشعر عليهما. وكان نصرانياً مات عام ٩٢ هـ ـ ٧١١ م.
وهذا البيت من قصيدته المشهورة التي مدح بها عبد الملك وبني أمية، وهجا بها قبائل قيس، وهي من أجود شعره وأولها:
حفّ القطين فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوىً في صرفها غِيَرُ
(٥) سقياً لها: دعاء لها؛ حبذا هي.
(٦) مكاذبهم: جمع مكذبة، وهي الفرية، والأكذوبة. وليسَ لهذه المكاذب حيلة في أن تمحى عمّن قيلت فيه. ويروى: مكاويهم.
(٧) البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٨٢ ـ ١٨٧.

الرجل؟ قال: نميري، كما ترى!

فما هو إلا أن قال جرير:

فغضَّ الطرف إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

حتى صار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممَّن الرجل؟ قال: من بني عامر!

قال: فعند ذلك قال الشاعر يهجو قوماً آخرين:

وسوف يزيدكم ضعة هجائي كما وضع الهجاء بني نمير

فلما هجاهم أبو الرديني العكلي، فتوعدوه بالقتل، قال أبو الرديني:

أتوعدني لتقتلني نميرٌ متى قتلت نمير مَن هجاها

فشدّ عليه رجل منهم، فقتله.

وما علمت في العرب قبيلةً لقيت من جميع ما هجيت به ما لقيت نمير من بيت جرير، ويزعمون أن امرأة مرّت بمَجلس من مجالس بني نمير، فتأملها ناس منهم فقالت: يا بني نمير، لا قول اللّه سمعتم، ولا قول الشاعر أطعتم! قال اللّه تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾[1]. وقال الشاعر:

فغضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وأخلق بهذا الحديث أن يكون مولداً، ولقد أحسن من ولده. وفي نمير شرف كثير.

وهل أهلك عَنَزة، وجَرْماً، وعُكْلاً وسلول، وباهلة وغنياً إلا الهجاء؟

وهذه قبائل فيها فضل كثير، وبعض النقص، فَمَحقَ ذلك الفضل كله هجاءُ الشعراء.

---

(١) سورة النور: الآية ٢٤.

وهل فضح الحبطات ـ مع شرف حسكة بن عتاب، وعباد بن الحصين، وولده ـ إلا قول الشاعر [زياد الأعجم]:

رأيت الحمرَ من شرِّ المطايا كما الخبطات شر بني تميم

وهل أهلك ظليم البراجم إلا قول الشاعر:

إن أباناً فقحةٌ لدارمٍ كما الظليمُ فقحةُ البراجمِ

وهل أهلك بني عجلان إلا قول الشاعر:

إذا الله عادى أهل لؤم ودقةٍ فعادى بني العجلان رهط بن مقبلِ
قبيلة لا يغدرون بذمةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردلِ
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهلِ»(1)

و ـ أحياناً قد يمنع الهجاء المهجوَّ عن فعل هُجيَ به، وإن لم يكن به ذم في العادة:

«وربما قال الشاعر في هجائه قولاً يعيب به المهجو، فيمتنع من فعله المهجو، وإن كان لا يلحق فاعله ذم، وكذلك إذا مدحه بشيء أولع بفعله، وإن كان لا يصير إليه بفعله مدح.

فمن ذلك تقدمُ كلثم بنت سريع مولى عمرو بن حريث إلى عبد الملك بن عمير، وهو على قضاء الكوفة، تخاصمِ أهلها، فقضى لها عبد الملك على أهلها.

فقال هذيل الأشجعي(2):

أتاه وليدٌ بالشهود يقودهم على ما ادَّعى من صامت المال والخَوْلْ

(1) البيان والتبيين، جـ3، ص 360 ـ 369.
(2) هو هذيل بن عبد الله بن سالم بن هلال الأشجعي. أحد شعراء الكوفة ومجّانها. كان مولعاً بهجاء القضاة، فهجا عبد الملك بن عمير، كما هجا الشعبي، وابن أبي ليلى.

وجــاءت إليــه كلثـم وكــلامهــا ... شفاء من الداء المخـامرِ والخَبْـلْ
فــأدلى وليــد عنــد ذاك بحـقــه ... وكــان وليـد ذا مِــراءٍ وذا جَـدْلْ
وكــان لـهــادلٌ وعيـن كـحـيـلة ... فأدلت بحسن الدل منها وبالكحلْ
ففتَّنتِ القبــطيَّ حتى قضى لهــا ... بغير قضاء اللّه في الســور الطولْ
فلو كـان مَنْ بالقصـر يعلم علمه ... لما استُعمل القبطيُّ فينا على عَمَلْ
لـه حين يقضي للنسـاء تخـاوصٌ ... وكان وما فيه التخاوصُ(١) والحَوْلْ
إذا ذاتُ دلٍّ كـلمتـه بـحـاجـةٍ ... فهمَّ بـأن يقضي تنحنح أو سعـلْ
وبــرَّق عـيـنــيــه ولاكَ لســانــه ... يرى كل شيء ما خلا شخصها جللْ(٢)

قال: **فقال عبد الملك: أخزاه اللّه. واللّه لربما جاءتني السعلة أو النحنحة، وأنا في المتوضأ، فأذكر قوله فأردّها لذلك.**

وزعم الهيثم بن عدي عن أشياخه أن الشاعر لما قال في شهر بن حوشب(٣):

لقــد بـاع شهــر دينه بخـريـطةٍ ... فمن يـأمنِ القراءَ بعـدَكِ يـا شهـرُ
أخـذت بهـا شيئـاً طفيفـاً وبعتــه ... من ابن جرير إن هذا هو الغـدر

ما مسّ خريطة حتى مات»(٤).

جـ ـ مَنْ سَلِمَ من الهجاء:

يـرى عمرو بن بحـر أن شرّ الهجـاء استـطار بين العـرب أفـراد، وجماعات، وأن الذين نجوا منه كانوا واحداً من اثنين:

---

(١) التخاوص: تضايق العينين للتمكّن من النظر.
(٢) جلل: هنا بمعنى هين.
(٣) هو شهر بن حوشب الأشعري، وكان من علماء أهل الشام وفضلائهم، قرأ القرآن على عبد اللّه بن عباس، وكان كثير الرواية، حسن الحديث. ويعدّ من كبار العلماء. توفي عام ١٠٠ هـ ٧١٩ م.
ويروى أنه كان على بيت المال، فأخذ منه دراهم فقال فيه الشاعر هذه الأبيات.
(٤) البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩.

١ ـ خامل جداً، فلا يأبه لما يقال، ولا يزيده الهجاء خمولاً فوق خموله، وصار حاله كما وصف المتنبي.

وصرت إذا أصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

٢ ـ نبيه معروف، لا يصدق الناس ما يقال فيه من مكاذيب الهجاء ولا يلتفتون لشاعر مرتزق.

«وناس سلموا من الهجاء بالخمول والقلّة، كما سلمت غسان، وغيلان، من قبائل عمرو بن تميم. وابتليت الحيطات؛ لأنها أنبه منها شيئاً. والنباهة التي لا يضرّ معها الهجاء مثل هجاء بني بدر وبني فزارة، ومثل نباهة بني عُدس بن زيد، وبني عبد اللّه بن دارم، ومثل نباهة الديان بن عبد المدان وبني الحارث بن كعب.

فليس يسلم من مضرّة الهجاء إلا خامل جداً أو نبيه جداً وقد هجيت الحارث بن كعب، وكتب الهيثم بن عدي فيهم كتاباً، فما ضعضع ذلك منهم، حتى كأنه قد كتبه لهم.

ومما يدل على قدر الشعر عندهم بكاء سيد مازن، مخارق بن شهاب حين أتاه محرز بن المكعبر الضبي الشاعر، فقال: إن بني يربوع قد أغاروا على إبلي، فاسعَ لي فيها؟ فقال: وكيف وأنت جار وردان بن مخرمة؟

فلما ولّى عنه محرز محزوناً بكى مخارق حتى بلَّ لحيته، فقالت له ابنته: ما يبكيك؟ فقال: وكيف لا أبكي وقد استغاثني شاعر من شعراء العرب، فلم أغثه؟ واللّه لئن هجاني، ليفضحني قوله، ولئن كفّ عنّي ليقتلني شكره!

ثم نهض، فصاح في بني مازن فردّت عليه إبله، وذكر وردان الذي كان أخفره فقال:

فعضَّ الذي أبقى المواشي من أمه   خفير رآها لم يشمرْ ويغضبِ

إذا نزلت وسط الرباب وحولهات إذاً حُصنت ألفا سنان مجرّبِ
حميت خزاعياً وأفناء مازنٍ ووردان يحمي عن عدي بن جندب
ستعرفها ولدان ضبة كلها بأعيانها مردودة لم تغيَّبِ

قال: ويبلغ من خوفهم من الهجاء، ومن شدة السبّ عليهم وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب، ويسبّ به الأحياء والأموات أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق، وربما شدّوا لسانه بنسعةٍ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب، وهو الذي يقول:

أقول وقد شدّوا لساني بنسعةٍ أمعشر تيمٍ أطلقوا من لسانيا
وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترَ قبلي أسيراً يمانيا
كأني لم أركب جواداً ولم أقل لخيلي كرّي كرّة عن رجاليا
فيا راكباً إما عرضت فبلغن نداماي من نجران أنْ لا تلاقيا
أبا كرِب والأيهمين كليهما وقيساً بأعلى حضرموت اليمانيا

وكان سألهم أن يطلقوا لسانه لينوح على نفسه، ففعلوا فكان ينوح بهذه الأبيات، فلما أنشد قومه الشعر قال قيس: لبيك وإن كنت أخّرتني...»[١].

وهذا المعنى أكده جرير عندما أفهم ابنه أن الهجاء لم يؤثر علي التيم؛ لأنه لم يجد فيهم حسباً ونسباً فينكره عليهم، ولا مجداً عتيقاً سامياً ليهدمه: «حَجْناء بنُ جرير قال: قلت: يا أبتِ، إنك لم تهجُ أحداً إلا وضعته، إلا التيم!

قال: لأني لم أجد حسباً فأضعه، ولا بناءً فأهدمه»[٢].

---

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٦٠ - ٣٦٩.
(٢) المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٧٢.

د ـ الدراسة الفنية لفن الهجاء

فـــي الشعر العربي

كيف يكون الهجاء جيداً موجعاً؟

يرى عمرو بن بحر أن الهجاء الجيد الموجع الذي يبقى ميسمه يتوارثه الأبناء عن الآباء، ويسب به الأحياء والأموات، يجب أن يكون بإحدى الطرق الآتية:

"١ ـ **أن يحسن الشاعر طريقة سب الأشراف:** وهذه تعني البعد عن السب المباشر بالسوقي من الكلام، والاكتفاء بالطعن الخفي المميت الذي يلمح للعيب، ويستره بحاجز شفـاف يزيـد من شوق النـاس إلى رؤيته والاستمتاع به، تماماً كما الشفوف تزين الجواري الشواب الظراف.

«وذكر خالدُ بنُ صفوان، شبيبَ بن شيبة فقال: **ليس له صديق في السر، ولا عدو في العلانية**». فلم يعارضه شبيب، **وتدل كلمة خالد هذه على أنه يُحسن أن يسب سبَّ الأشراف**»(١).

"٢ ـ **يجب أن يكون الهجاء مختصراً، ليسهل حفظه وانتشاره بين الناس، وهكذا يؤدي الغرض الذي قيل من أجله:** «وقيل لعقيل بن عُلَّفة: لـمَ لا تطيل الهجاء»؟ قال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق».

وقيل لجرير: إلى كم تهجو الناس؟ قال: «إني لا أبتـدي ولكني أعتدى».

وقيل له: لم لا تقصِّر؟ قال: إن الجماح يمنع الأذى»(٢).

"٣ ـ **على الشاعر تَصَيُّد وجوه التشابه المضحك بين المهجو والمشبه**

---

(١) الحوان جـ ٣ ص ٩٩.
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٩.

به، لأن سرور الناس بهذا التشابه المضحك يدفع بهم إلى حفظ الهجاء والتندر به في مجالسهم، وبذا يضمن الشاعر سيرورة شعره وشهرته.

«ولما هجا أبو الطَّروق الضبي امرأته، وكان اسمها شَعْفَر بالقبح، والشناعة. فقال:

جاموسةٌ وفيلة وخنزَرُ   وكلهن في الجمالِ شَعْفَرُ

جعل الخنزير خنزر فجمعها كما ترى للتشابه.

وقال الآخر:

كأن الذي يبدو لنا من لثامها   جحافلُ عَيْرٍ أو مشافرُ فيلِ»(1)

وهكذا تصيّد الشاعر الأول التشابه في الاسم، بينما لجأ الثاني للتشابه المضحك في خلق المرأة، ووضع إزاءه ملامح الفيل، والحمار الوحش!.

وبذا أصبح الهجاء مضحكاً مبكياً معاً!.

٤ ـ قد يكون التغافل أو الغلط سبباً في نجاح الشاعر لِحمل الناس على الضحك من المهجو، «ورزين العروضي ـ وهو أبو زهير ـ **لم أرَ قطُّ أطيبَ منه احتجاجاً، ولا أطيب عبارة، قال في شعر له، يهجو ولد عقبة بن** جعفر، فكان في احتجاجه عليهم، وتقريعه لهم أن قال:

تِهْتُم علينا بأن الذئبَ كلمكمْ   فقد لعمري أبوكم كلَّم الذيبا

فكيف لو كلم الليث الهصور إذاً   تركتم الناسَ مأكولاً ومشروبا

هذا السنيدي لا أصل ولا ظرف   يكلِّم الفيل تصعيداً أو تصويبا

ولو كان ولد أُهبان بن أوس ادعوا أن أباهم، كلم الذئب، كانوا مجانين وإنما ادعوا أن الذئب كلم أباهم. وأنه ذُكر ذلك للنبي ﷺ، وأنه صدقه.

---

(1) المصدر السابق جـ ٧ ص ١٧٢.

والفيل ليس يكلم السندي، ولم يدعِّ ذلك السندي قط وربما كان السندي هو المكلم له، والفيل هو الفَهِم عنه فذهب رزين العروضي من الغلط في كل مذهب»[1].

"٥ ـ **أجود الهجاء ما كان مُثْلةً**، ولا يكون مثلاً إلا عندما يكون بديعاً يضم بين جوانحه صورة بديعة تتسم بالبساطة والجمال معاً، بحيث يستطيع الناس جميعاً أن يتذوقوا جمالها، وأن تكون غنية الجوانب، عميقة المعاني حتى يأخذ كل واحد من الناس ما يتناسب مع استعداداته، مثل قصص «كليلة ودمنة» فهي فكاهة وتسلية لمن أراد العبث واللهو، وهي الحكمة لمن أحب التأمل في مغزاها وأخذ العبرة منها.

«وقال آخر يهجو رجلاً:

يا حابس الروثِ في أعفاج بغلته   شحاً على الحب من لقطِ العصافير

وهذا شبيه بقول الشاعر[2]:

رأيت الخبـز عـزَّ لـديـك حتى   حسبتُ الخبز في جوِّ السحابِ
ومـا روَّحـتـنـا لـتـذبَّ عـنـا   ولكن خفتَ مَـرْزِئـة الـذبـابِ

وهذا ليس من الهجاء الموجع، وإنما الهجاء ما يكون في الناس مثله».

"٦ ـ **يجب مراعاة مقتضى حال المهجو، فإذا كان سيداً فإن هجاءه بالخمول من أشد الهجاء وأقساه عليه**.، وكما قال الشاعر في عِلْباء بن حبيب حيث يقول:

---

(١) المصدر السابق جـ ٧ ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) البيتان بدون نسبة في الحيوان ٣: ٣١٧. والعقد ٦: ١٩١.

وهما لأبي الشمقمق كما في عيون الأخبار ٢: ٣٦، ٣٤٧. وجاء في البخلاء ٦٤: وكان أبو الشمقمق يعيب في طعام جعفر بن أبي زهير، وكان له ضيفاً، وهو مع ذلك يقول كما أعادهما. . . .

أرى العلباء كالعباء لا حلوٌ ولا مرُّ
شيخ من بني الجارود لا خيرٌ ولا شرُّ

فهذا ونحوه من أشد الهجاء.

والخمول اسم لجميع أصناف النقص كلها، أو عامتها، ولكنه كالسرو عند العلماء.

وليس ينفعك العامة إذا ضرتك الخاصة»[1].

«ورب قوم قد رضوا بخمولهم مع السلامة على العامة، فلا يشعرون حتى يصيب الله تعالى على قمم رؤوسهم حجارة القذف، بأبيات يسيرها شاعر، وسوط عذاب يسير به الراكب والمثل[2].

«قال الأخطل[3] يهجو جريراً:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار

ومعلوم أن هذا لا يكون، ولكنه أمر حقرهم وصغرهم»[4].

ومرة أخرى نقرأ لعمرو بن بحر قوله:

«وليس شيء أجمع لخصال النقص من الخمول؛ لأن تلك الخصال المخالفة لذلك تعطي من النباهة، وتقيم من الذكر على قدر المذكور من ذلك.

وكما لا تكون الخصال التي تورث الخمول مورثة للنباهة فكذا خصال النباهة في مجابنة الخمول؛ لأن الملوم أفضل من الخامل»[5].

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٣٦٠ - ٣٦٢.
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٣
(٣) وفيه قالت بنو تميم: ما هجينا بشعر أشد علينا من هذا البيت. ديوان المعاني ١. ١٧٥.
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٨٤.
(٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٦.

ونجد له أيضاً:

«وقال ثمامة: الشهرة بالشر خيرٌ من أن لا أُعرف بخير، ولا بشر.

وكان يقال: يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه»[1].

ويعود عمرو بن بحر للقول:

«قالوا: ولسقوط الخامل من عيون الناس، قالت أعرابية لابنها:

إذا جلست مع الناس، فإن أحسنت أن تقول كما يقولون، فقل، وإلا فخالف تذكرا.

وقد روينا في المُلَح أن رجلاً قال لصاحب له: أبوك الذي جهل قدره، وتعدى طوره، فشق العصا وفارق الجماعة؛ لا جرم لقد هُزِمَ، ثم أُسرَ ثم قتل، ثم صُلبَ!.

قال له صاحبه: دعني من ذكر هزيمة أبي، ومن أسره، وقتله، وصلبه.

أبوك هل حدّث نفسه بشيء من هذا قطُّ؟!»[2].

«وقال أبو نخيلة:

وإن بقومٍ سوَّدوك عليهم لفاقةً ... إلى سيدٍ لو يظفرون بسيد

وقال إياس بن قتادة في الأحنف بن قيس:

وإن من السادات من أطعته ... دعاك إلى نار يفور سعيرُها

وقال ابن ميادة:

أتيت ابن قشراء[3] العجان فلم أجد ... لدى بابه إذناً يسير ولا نُزْلا[4]

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٩٠.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ١٠٠ - ١٠١.

(٣) القشراء: الشديدة الحمرة.

(٤) النزل: مسكن الشعر. والنّزْل: ما أعد للضيف.

وإن الـــذي ولاك أمــر جمــاعــة لأنقصُ من يمشي على قدمٍ عقلا»(١)

"٧ ـ الظرافة تجعـل الهجاء محبـوباً مشهـوراً لدى النـاس فتكوي المهجو، وتسمه بميسمها حتى ولده، «قال الشاعر»(٢):

اضرب ندى طلحة الطلحات مبتدئاً بلؤم مــطّلب فينـا وكنْ حـكمـا
تُخْـرج خزاعـة من لؤم ومن كرم ولا تعــدَّ لهـا لؤمـاً ولا كــرمـا

وقد طَرف في شعره، فظلم خزاعة ظلماً عبقرياً.

وقال في مثل ذلك الأشعر(٣) الرَّقّبان الأسدي:

بحسبــك في القــوم أن يعلمــوا بــأنــك فيـهــم غـنـيٌّ مُـضَــرْ
وأنـت مـليــخ كـلـحـم الـحُـوار فــلا أنت حلوٌ ولا أنت مُــرْ»(٤)

وكذلك أعجب أبو عثمان بظرف حماد عجرد عندما هجا بشاراً بن برد:

«قــل للشقيِّ الجَــدِّ فـي رَمْسِــه ومَـنْ يفــرُّ الـنــاسُ من رِجْسِــهِ
لــلقــرد بــشــار بــن بــردٍ ولا تحفــل بــرغم القــرد أو تعســه
لــلقــرد بــالــليــث اغــتــرار بـِـه فــمــا الــذي أدنــاك من مــسِّــه
يا ابن استها فـاصبر على ضَغْمةٍ بــنــابــه يــا قــردُ أو ضــرسِــه
نــهــاره أخــبــث مــن لــيــله ويــومــه أخــبــث مــن أمــســه
ولــيس بــالــمــقــلع عــن غـيِّــه حتى يُــدلَّى القــرد فـي رمســه
مــاخــلق الله شــبــيــهــاً لــه مــن جنــه طــراً ومــن إنــســه
والله مــا الــخـنــزيــر فـي نتـنــه من ربعــه بــالعُشــر أو خــمســه
بــل ريــحــه أطيــب من ريحــه ومــســه ألــيــن مــن مــســه
ووجــهــه أحــســن مــن وجــهــه ونــفــســه أنــبــل مــن نــفــســه

(١) الحيوان جـ٣ ص ٨٠ ـ ٨٢.
(٢) هو دعبل بن علي الخزاعي والمطلب الذي يعنيه هو ابن عبد الله ابن مالك كان والياً على مصر. وقد كان ولى دعبلاً على أسوان فلما سمعه يهجوه بهذا الشعر المتقدم عزله عنها.
(٣) الأشعر لقب الرَّقّبان، وهو شاعر جاهلي.
(٤) الحيوان جـ١ ص ٣٦٠.

وعوده أكرم من عوده ... وجنسه أكرم من جنسه

وأنا ـ حفظك الله تعالى ـ أستظرف وضعه الخنزير بهذا المكان، وفي هذا الموضع، حين يقول: وعوده أكرم من عوده! وأيُّ عودٍ للخنزير؟! قبحه الله تعالى، وقبح من يشتهي أكله»[1].

وللظرف نفسه أعجب عمرو بن بحر بهجاء قاله أبو نواس في أبان بن عبد الحميد اللاحقي:

«وذكر أبو نوّاس أُبان بن عبد الحميد اللاحقي، وبعض هؤلاء ذكرَ إنساناً يرى لهم قدراً، وخطراً، في هجائه لأبان وهو قوله:

جالستُ يوماً أباناً ... لا درَّ درُّ أبانِ
ونحن حضر رواق الـ ... أمير بالنهروانِ
حتى إذا ما صلاة الأو ... لى أتت لأذانِ
فقام بها ثَمَّ ذو ... فصاحة وبيانِ
فكل ما قال قلنا ... إلى انقضاء الأذانِ
فقال كيف شهدتم ... بذا بغير عيان؟!
لا أشهد الدهر حتى ... تعاين العينان!
فقلت: سبحان ربي ... فقال: سبحان ماني!
فقلت: عيسى رسولٌ ... فقال: من شيطانِ!
فقلت: موسى كليم الـ ... مهيمن المنّانِ
فقال: ربك ذو مقو ... لة إذا ولسان
فنفسه خلقته ... أم مَنْ؟ فقمت مكاني
عن كافر يتمرى ... بالكفر بالرحمن
يريد أن يتسوى ... بالعصبة المجّان
بعجردٍ وعُبادٍ ... والوالبي الهجان

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

وقاسمٍ ومطيعٍ ريحانة الندمان

وتعجبي من أبي نواس ـ وقد كان جالس المتكلمين ـ أشد من تعجبي من حماد، حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً لا يقوله أحد، وهذا قرّة عين المهجو.

والذي يقول: سبحان ماني يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول: إنه من قبل الشيطان؟!.

وأما قوله: فنفسه خلقته؟ أم من؟ فإنَّ هذه مسألة تجدها ظاهرة على ألسن العوام. والمتكلمون لا يحكون هذا عن أحد.

وفي قوله: «والوالبي الهجان» دليل على أنه من شكلهم والعجب أنه يقول في أبان: إنه ممن يتشبه بعجرد ومطيع، ووالبة بن الحباب، وعلي بن الخليل، وأصبغ وأبان فوق ملء الأرض من هؤلاء. ولقد كان أبان وهو سكران أصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة»[1].

"٨ ـ يجب التركيز على التناقض في خُلُق المهجو وخَلْقِه، لأن إبراز هذا التناقض، والتركيز عليه، ومن تم تضخيمه يجعل الصورة ساخرة، لا يتمالك الإنسان نفسه من الضحك على من يحمل هذه المتناقضات في أخلاقه التي يعلنها للناس من جهة، والتي يعملها في السر، أو رصد التناقض في جسمه وفقدان التوازن بين أعضاء جسده.

«الهيثم بن عدي قال: قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك، بعدما استُخلف، فأمرهم بشتم الحجاج، فقاموا يشتمونه، فقال بعضهم:

إن عدو الله الحجاج كان عبداً زباباً[2] قِنَّوراً ابن قِنَّور[3] لا نسب له في العرب.

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٤٨ ـ ٤٥٢.
(٢) الزباب: الطائش، شبهه بنوع من الفأر أصم.
(٣) القنور: العبد.

فقال سليمان: أيُّ شتمٍ هذا؟!.

إن عدو الله الحجاج كتب إليّ: إنما أنت نقطة من مداد، فإن رأيت فيَّ ما رأى أبوك، وأخوك، كنت لك كما كنت لهما، وإلا فأنا الحجاج، وأنت النقطة، فإن شئت محوتك، وإن شئت أثبتك!.

فالعنوه لعنه الله! فأقبل الناس يلعنونه، فقام بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال: يا أمير المؤمنين: إنا نخبرك عن عدو الله بعلم! قال: هات. قال:

كان عدو الله يتزينُ تزينَ المومسة، ويصعد المنبر، فيتكلم بكلام الأخيار، فإذا نزل عملَ عمل الفراعنة، وأكذب في حديثه من الدجال.

فقال سليمان لرجاء بن حيوة(١):

هذا وأبيك الشتم لا ما تأتي به هذه السفلة»(٢).

هـ ـ مختارات من الهجاء الجيد

«قال: ومن جيد الشعر قول جرير:

لئن عَمِرتْ(٣) تيمٌ زمانـاً بغـرةٍ ... لقد حُدِيَتْ تيمٌ حُداءً عصبصبا(٤)
فـلا يضغمنَّ(٥) الليثُ تيمـاً بغـرةٍ ... وتيم يشمون الفريس(٦) المنيبا»(٧)

---

(١) هو رجاء بن حيوة الكندي، كان من فضلاء التابعين، حسن الكلام، جيد المنطق، خطيباً بليغاً، وكان محبباً إلى بني أمية، فكانوا يقربون مجلسه منهم، وكان أحمر الوجه، أبيض اللحية مات عام ١١٢ هـ ـ ٧٣٠ م.

(٢) البيان والتبيين جـ١ ص ٤٠٨.

(٣) في الديوان: لئن سكنت تيم.

(٤) الحداء العصبصب: السوق العنيف.

(٥) يضغمن: يعضن.

(٦) الفريس المنيب: المصاب بنيوب الأسد.

(٧) المصدر السابق جـ٣ ص ٢١٤.

ونقرأ لأبي عثمان في مكان آخر قوله:

«وقال أشهب بن رميلة، وكان أول من رمى بني مجاشع بأنهم قيون:

يا عجباً هل يركبُ القينُ الفرسْ ... وَعَـرَقُ القينِ على الخيـلِ نَجَسْ
وإنــمــا أداتــه إذا جَــلَسْ ... الـكلبتــان والعَــلاَةُ والـقـبس»[١]

كما أعجب عمرو بن بحر بشعر لأبي الشمقمق في الهجاء. «وقال أبو الشمقمق في ذلك:

الـطريق الـطريقَ جـاءكم الأحـ ... ـمـقُ رأسُ الأتــان والـقِـذرَهْ
ابنُ عمٍّ الحمــار في صــورة الـ ... ـفيـل وخـالُ الجـامـوس والبقــره
يمشي رويــداً يــريــد حلقـتكـم ... كمشي خنــزيــرٍ إلـى عَــذِره»[٢]

واختار الجاحظ للكذاب الحرمازي[٣] قوله.

«وقال الكذاب الحرمازي لقومه، أو لغيرهم:

لــو كنتم شــاءً لكـنتـم نقــداً[٤] ... أو كــنـتــم مــاء لكـنتـم ثمــدا[٥]
أو كنتم قولاً لكنتم فنداً»[٦]

وقال كثير:

يـجــرِّر ســربــالاً عليــه كــأنــه ... سبيٌّ[٧] هلالٍ لم تَفتَّقْ[٨] شرانقه»[٩]

كما استجاد قول العلاء بن الجارود في بعض المنافقين من أبناء زمانه،

---

(١) الحيوان جـ ١ ص ٣١٥.
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٩.
(٣) هو عبد الله بن الأعور، أحد بني الحرماز بن مالك بن تميم وهو بنو فقيم.
(٤) النَّقَد: جنس من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه بالبحرين.
(٥) الثمد: الماء القليل.
(٦) الفند: الكذب.
(٧) السبي: جلد الحية تسلخه. والهلال الحية.
(٨) الشرانق: ما تسلخه.
(٩) الحيوان جـ٣ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٧.

وما أكثرهم في عصرنا أيضاً، وهل جاءت مصائبنا إلا عن طريقهم.

«وقال العلاء بن الجارود:

أظهروا للناس نسكاً وعلى المنقوش داروا
وله صاموا وصلوا وله حجوا وزاروا
وله قاموا وقالوا وله حلوا وساروا
لو عدا فوق الثريا ولهم ريشٌ لطاروا»(١)

و ـ النقائض

ومعروف أنها مجموعة القصائد التي يتطاير لها الهجاء بين الشاعرين، وهنا لم يشأ الجاحظ أن ينقل ـ فيما علمت ـ النماذج عن نقائض جرير مع كل من الأخطل والفرزدق، أو نقائض جرير مع غيره من الشعراء الكثيرين الذين ناقضهم، ولكنه اكتفى بنقل خبرين نفهم منهما أن الرجل كان في صف جرير، ولا عجب فجرير من مدرسة الطبع التي يحبها ويؤثرها أبو عثمان.

«وقال الفرزدق لامرأته النوار: كيف رأيت جريراً؟ قالت: رأيتك قد ظلمته أولاً، ثم شغرت(٢) برجلك آخراً.

قال: إنا إنيه(٣)!.

قالت: نعم، أما إنه قد غلبك في حلوه، وشاركك في مره»(٤).

وساق الخبر الثاني على لسان الأخطل وابنه مالك: «كان مالك بن الأخطل التغلبي ـ وبه كان يكنى ـ أتى العراق، وسمع شعر جرير، والفرزدق،

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٩.
(٢) أنا إنيه: يعني أتقولين هذا، وأنا كما تعلمين، قد شغرت برجلك: استسلمت له ولم تمنعه عن التمادي في هجوك.
(٣) البيان والتبيين جـ٢ ص ٢٠٦.
(٤) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٠٦.

فلما قدم على أبيه سأله عن شعرهما، فقال:

وجدت جريراً يغرف من بحر، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر.

فقال الأخطل: الذي يغرف من بحر أشعرهما»[٣].

ولكن الجاحظ يعرض علينا بعض النماذج من النقائض الأخرى منها:

«وقال أدهم بن أبي الزعراء[١] وشبه نفسه بحية:

وما أسودٌ بالبأس ترتاح نفسه ... إذا حَلْبةٌ جاءت ويطرق للحسِّ
به نقطٌ حُمْرٌ وسود كأنما ... تنضَّحَ نضحاً بالكُحَيْلِ[٢] وبالورس[٣]
أصم قطاريٌّ[٤] يكون خروجه ... قبيل غروب الشمس مختلط الدمس[٥]
له منزلٌ أنفٌ ابن قِنْزة[٦] يغتدي ... به السم لم يظهر نهاراً إلى الشمس
تقيل[٧] إذا ما قال بين شواهق[٨] ... تُزِلُّ العُقابَ عن نقانقها[٩] الملس
بأجرأ مني يابنة القوم مُقْدَماً[١٠] ... إذا الحرب دبّتْ أو لبست لها لبسي

فأجابه عنترة الطائي[١١] فقال:

---

(١) هو أدهم بن أبي الزعراء الطائي، شاعر محسن، له أشعار جياد في أوصاف الحيات، وهو من شعراء الحماسة، وهو شاعر إسلامي له شعر جيد في وقعة المنتهب التي كانت في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان

(٢) الكُحَيْل: بهيئة التصغير: القطران يطلى به الإبل، وهو أسود اللون.

(٣) الوَرْس: بالفتح نبت يصبغ به، فيعطي ص صفرة إلى حمرة.

(٤) قطاريٌّ: بالضم: ضخم.

(٥) مختلط الدمس: أي عند اختلاط الظلام.

(٦) ابن قِنْزة: بكسر القاف وإسكان التاء. حية خبيثة تميل للصغر، تنطوي ثم تنفرد ذراعاً، أو نحوها، يقول: إن تلك الحية الصغيرة الخبيثة تقصد إلى منزل ذلك الأسود فتغتدي بأنفها بالسم.

(٧) قال: أمضى وقت القائلة، أي الظهر.

(٨) الشواهق: الجبال العالية.

(٩) النفانف: جمع نفنف بفتح النوني، وهو سفح الجبل الذي كأنه حدار مبني مستو.

(١٠) مُقْدَماً: بضم الميم وفتح الدال: أي إقداماً.

(١١) هو عنترة بن عكبرة الطائي، وعكبرة أم أمه، وهو عنترة بن الأخرس بن ثعلبة.

عساك تمنى[1] من أراقم أرضنا بأرقم يُسقى السّم من كل مَنْطَقِ [2]» [3]

ثم يعرض علينا مناقضة بين الأخطل ونفيع المحاربي:

«قال الأخطل:

هَلُمَّ ابنَ صَفّارٍ فإنَّ قتالنا جهاراً وما منا مُلاوَذَة العُذْرِ
فإنك في قيس لتالٍ مذبذب وغيرك منهم ذو الثناء وذو الفخر
ونحن منعنا ماء دجلة منكم ونمنع ما بين العراق إلى البشر[4]
ألا يا بن صفار فلا ترم[5] العلا ولا تذكرنْ حيّاتِ قومك في الشعر
فما تركت حياتنا لك حيةً تحرّك في أرضٍ بَرَاحٍ[6] ولا بحر

وقال نفيع[7] يعيره بالكُحَيل[8]:

فإن تكُ قتلاكم بدجلة غُرِّقتْ فما أشبهت قتلى حنين ولا بدرِ
ثووا إذا لقونا بالكُحَيْل كما ثوى شُمام[9] يوم القيامة والحشر
بدجلة حالت حربُنا دون قومنا وأوطانِنا ما بين دجلة فالحَضْر[7]
ولو كنتم حيات بحرٍ[8] لكنتم غداة الكُحيل إذ تقومون في الغمر»[9]

(١) تمني: أراد يقدر لك من الله له الشيء: قدره.
(٢) المَنْطق: الموضع ينطق منه السم أي يقطر.
(٣) الحيوان جـ ٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.
(٤) البِشر: بالكسر جبل بالجزيرة.
(٥) لا ترم: لا تطلب، ليس ذلك من شأنك.
(٦) البَرَاح: كسحاب: المتسع من الأرض لا زرع به، ولا شجر.
(٧) نُفَيْع بالفاء وهيئة التصغير هو ابن سالم بن صفّار المحاربي، وقد هجاه الأخطل، فرد عليه نفيع، وناقضه.
(٨) الكُحَيْل: بهيئة التصغير: نهر أسفل الموصل، كانت عنده وقعة هزمت فيها تغلب، وألقوا بأنفسهم في الماء.
(٩) شَمام: كقطام: جبل له رأسان يسميان ابني شَمام يضرب بهما المثل في البقاء.
(٧) الحَضْر: مدينة بإزاء تكديت في البرية بينها وبين الموصل والفرات.
(٨) أي لكنتم حيات غداة الكُحَيْل، فاستطعتم السباحة.
(٩) الحيوان جـ ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١.

ثم يختار أبو عثمان مناقضة شعرية بين الزيادي، ويحيى بن أبي حفصة.

«وقال الزيادي في يحيى بن أبي حفصة[1]:

إني ويحيى وما يبغي كملتمسٍ … صيداً وما نال منه الري والشبعا
أهوى إلى البحر جُحراً في مقدمه … مثل العسيب[2] ترى في رأسه قزعا[3]
اللون أربد والأنياب شابكة[4] … عُصْلٌ[5] ترى السُّمَ يجري بينها قطعا
يهوي إلى الصوت والظلماء عاكفة … تعرُّد السيل لاقى الحيد[6] فاطلعا
لو نال كفك أبت منه مخضبة … بيضاء قد جللت أنيابها قزعا
بيعت بوكسٍ قليل فاستقل بها … من الهزال أبوها بعدما ركعا

فرد عليه يحيى فقال:

كم حيةٍ ترهب الحيات صولته[7] … يحمي لريديه قد غادرته قطعا
يلقين حية قُفٌّ[8] ذا مساورة … يُسقى به القرن من كأس الردى جَرَعا
تكاد تسقط منهن الجلود لما … يعلمن منه إذا عاينه فزعا[9]
أصمَّ ما شمَّ من خضراء أيبسها … أومسَّ من حجرٍ أوهاه فانصدعا»[10]

وقد اختار عمرو بن بحر مناقضة بين أخوين:

---

(١) هو جد مروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور.
(٢) العسيب: أصل الذَّنَب، أو الجريدة المستقيمة من النخل يكشط خوصها
(٣) القَزَع: بالتحريك، خفة شعر الرأس.
(٤) شابكة: متشابكة.
(٥) العصل: الملتويات.
(٦) الحَيَد: بالفتح، ما شخص من الجبل، ومن كل شيء. والتعرد: بالراء بعد العين: التعوج. يقول: هذا الحية يتلوى في مشية كما يتلوى السيل إذا لاقى حَيَداً، فأشرف منه على أرض منخفضة فهو أسرع بجريه، وتلويه
(٧) أي تدركه الحمية والأنفة، إذا اعتدى على رَيديه، والرَيد بالفتح: الحرف الناتئ من الجبل.
(٨) القُف: بالضم مرتفع حجري.
(٩) القزع قزعاً: أي قطعاً متفرقة، وأصل القزع: القطع من السحاب.
(١٠) الحيوان جـ ٤ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

«وقال العكلي[1]:

قد يُلقحُ البغلة غيرُ البغلِ ... لكنها تَعْجَلُ قبل المهلِ
. . .ـة[2] مشغولة بالحملِ ... عن مَرْفق الطحن وحمل الرِّجل[2]
وثقل السفر ومير الأهل ... ولا تساوي حفنة من زبل[3]
ما كان فيها من كرام الفحل ... دودة خلٍّ خلّقت من خلِّ
وكل أنثى غيرُها في الحمل ... تزداد في القيمة عند السحل[4]
ملعونة بنت لعين نذل ... قتالة للفارس الأبلّ[5]
لم يعتدل منصبها في الأصل ... من غير شكلٍ خلقت وشكل
في أدب الخنزير يوم الحفل ... ومَوْقها موق رضيع الطفل[6]
أو عقل أفعى وهجفٍّ هقل ... أو حوت بحرٍ قذفت في سهل[7]
أو جيأل يكتفها بحبل ... كل حميميق وكل فسل[8]
وكل غرٍ جاهل وغفل ... ليس لها في الكَيْس رفق النمل[9]
أو ذئب قفرٍ مُجمع للختل ... أو تنفل راوغ كلب المثلي[10]
أو خزز وثّب خوف القتل ... أما تراها غاية في الجهل
والشؤم منها في ذوات الحجل ... وعزة تصدع جمع الشمل[11]

---

(١) والعكلي الراجز هو أبو حزام غالب بن الحارث، وكان أعرابياً فصيحاً، يفد على أبي عبيد الله وزير المهدي. قال الخوارزمي: «شعره عويص؛ لأنه أكثر فيه من الغريب، فلا يقف عليه إلا العلماء. وكان يؤخذ عنه اللغة، أدركه الكسائي واستشهد ببعض شعره».

(٢) لم يظهر من هذه الكلمة في الأصل إلا هذا الحرف. والرِّجل: المراد حمل الناس.

(٣) الثقل: بالتحريك: متاع المسافر.

(٤) يقال سحله مائة درهم سحلاً: نقده، والسحل: النقد من الدراهم.

(٥) الإبل: الشديد الخصومة، الذي لا يستحي.

(٦) الموق:

(٧) الهجفّ من النعام: الجافي الثقيل. والهقل: الظليم أي ذكر النعام. الحوت: السمكة، وأنث ضميره لمعناه.

(٨) الجيأل: الضبع.

(٩) الرفق: لطافة الفعل.

(١٠) التُّنفل: بضم التاء والفاء وفتحهما وكسرهما: الثعلب.

(١١) خُزَز: كصُرَد: الذكر من الأرانب.

فهي خلاف الفرس الهِبل وكلٍّ طِرْفٍ ذائل رِفَلٍّ[1]
قد حذر الناسُ أذاها قبلي وعدّدوا كلَّ قتيلِ بغلِ

فقال أخوه ناقضاً عليه، وهو في ذلك يقدم البغلة على البغل وهكذا هما عند الناس في جملة القول فقال:

عليك بالبلغة دونَ البغلِ فإنها جامعة للشملِ
مركب قاضٍ وإمامٍ عَدْل وتاجرٍ وسيد وكهل
وهاشمي ذي بها وفضل تصلح في الوحل وغير الوحل
والسقيّ والطحن وحمل الرجل وهي في المشي وتحت الرجل
أوطأ وأنجى من مطايا الإبل وكل جمازٍ وذات رحل
وطولُ عمرٍ غير قيل البُطل تقدم في ذلك عير الأهل[2]
والخيل والإبل وكل فحل قد قتل العصفور فرطُ الجهل
ولو درى كان قليل الشغل بلذة تسلمه للقتل[3]
فدع مديحي وهجاء بغلي فلو ذممت القمر المجلي[4]
وجدت فيه بعض ما قد يقلي»[5]

كما نجد في البخلاء مناقضة بين القدور على لسان الرَّقاشي وابن يسير:

«وقالوا في مناقضات أشعارهم في القدور.

قال الرقاشي:

لنا من عطاء الله دهماء جَوْنَةٍ تناولُ بين الأقربين الأقاصيا

---

(١) الهبل:
(٢) القيل: بالكسر: القول. والبطل، بالضم: الباطل.
(٣) يعني كثرة سغاده لأنثاه، وذلك سبب لقصر عمره.
(٤) أي بعض ما يقليه القمر· أي يكرهه غاية الكراهية.
(٥) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثاني ص ٣٤٨ ـ ٣٥١.

جعلنـا «إلالأ والـرِّجـام وطخفـة ... لهـا فـاستقلت فـوقهن أثـافيـا
مـؤديـة عنـا حـقـوق محـمـد ... إذا مـا أتانـا بائس الحـال طاويـا
أتى ابن يسيـر كي ينفّس كـربهـا ... إذا لم يرُح وافى مع الصبح غاديا

فأجابه ابن يسير فقال:

وثـرماءَ ثلمـاءَ النـواحي ولا يَـرى ... بهـا أحدٌ عيبـاً سـوى ذاك بـاديـا
ينادي ببعضٍ بعضُهم عند طلعتي ... ألا أبشـروا هـذا اليسيـري آتيـا

وقال ابن يسير في ذلك:

قـدر الـرَّقـاشي لم تنقـر بمنقـار ... مثـل القدور ولم تفتضّ من غـار
لكن قـدر أبي حفص إذا نسبت ... يـومـاً ربيبـة آجـامٍ وأنـهـار

فاعترض بينهما أبو نواس الحسن بن هانىء الحَكَمي يذكر قدر الرَّقاشي بالهجاء أيضاً فقال:

ودهمـاء تثفيهـا رقـاش إذا شتت ... مـركـبـة الآذان أمّ عـيـال
يغصُّ بحيـزوم البعوضـة صـدرهـا ... وتنـزلهـا عـفـواً بغيـر جعـال
ولـو جئتهـا مـلأى عبيطـاً مجـزلاً ... لأخـرجت مـا فيهـا بعـود خـلال
هي القدر قدر الشيخ بكر بن وائل ... ربيع اليتامى عـام كلِّ هـزالِ»(١)

وهكذا عرض الجاحظ نماذج متنوعة للمناقضات الشعرية، وهي في مجموعها قد اختارها أبو عثمان لأنها تتصف بالصفات التي فصلت الكلام عليها عند الدراسة الفنية للهجاء من تصيد المتناقضات والقصر، والتشبيه المضحك، أو التغافل ويبقى الظرف أحب الكلام إلى قلب أبي عثمان فهو يطرب للنادرة حتى عندما تكون سخرية منه!.

(١) البخلاء للجاحظ ـ تحقيق طه الحاجري ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

الفصل الثالث

في

فنون الشعر العربي

"٣ ـ الوصف.
"٤ ـ الغُزل.
"٥ ـ الرُثاء.
"٦ ـ الحُكم والزهد والوعظ.
"٧ ـ الفخر.
"٨ ـ المُعارضة.

٣ - الوصــف

«وقال المرار أو العِكَبُّ التغلبي **وهي أجود قصيدة قيلت في القطا**:

بــلادُ مـروراةٌ يحــارُ بهـا القــطا ... ترى الفرخَ في حافاتهـا يتحرَّقُ(١)

يــظل بهـا فــرخُ القـطاة كـأنــه ... يتيم جفـا عنـه مـواليـه مُـطْرقُ(٢)

بـديمـومـة قـد مـات فيهـا وعينـه ... على موته تغضي مـراراً وترمق(٣)

شبيـه بلا شيء هنـالـك شخصـه ... يــواريــه قَيِّض حــولـه متفلِّق(٤)

لـه محجـرٌ نـابٍ، وعينٌ مريضـةٌ ... وشـدق بمثل الـزعفـران محلقُ(٥)

تعـاجيـه كحـلاء المـدامــع حـرة ... لهـا ذنب وحف وجيـد مـطوَّق(٦)

سِمــاكيــة كــدريَّــة عُــرْعُــريــة ... سُكـاكيـة غبـراء سمـراء عَسْلق(٧)

---

(١) المروراة: الأرض التي لا يهتدي بها إلا الخرِّيت يتحرَّق: يتضرّم جوعاً.

(٣) الديمومة: القلاة البعيدة الأرجاء. الإعصاء: إدناء الجفون يقول: تخاله ميتاً لضعفه، وهو مع ذلك يغمض عينيه ويفتحهما.

(٤) القَيِّض، بالفتح: قشرة البيضة العليا اليابسة.

(٥) المَحْجَر، كمجلس ومنبر: ما دار بالعين من العظم الذي أسفل الجفن. نابٍ: مرتفع. مخلق: من الخلوق بالفتح، وهو الزعفران.

(٦) أصل المعاجاة ألا يكون للأم لبن يروي صبيها، فتعاجيه بشيء تعلله به ساعة. الوحف: من النبات والشعر: ما غزر وأتتَّ أصوله واسود.

(٧) سيماكية نسبة إلى السماك. أحد السماكين: الأعزل، والرامح أراد أنها علوية. العُرْعُرية: نسبة إلى العُرْعُرة بضم العينين. وهي أعلى الجبل، وأعلى كل شيء. السُّكاكية: بالضم نسبة إلى السُّكاك وهو الجو والهواء بين السماء والأرض العَسْلَق: الخفيف. والأنثى بهاء، ولكنه جعله للأنثى ووزنه كجعفر

إذا غـــادرتـــه تبتغي مـــا يُعيشـــه ... كفـاهـا رذايـاهـا النجـاء الهبنق[١]

غدت تستقي من منهل ليس دونه ... مسيــرة شهــرة للقــطا متعـلّقُ[٢]

لأزغبَ مـطروحٍ بجَــوْز تنـوفـة ... تلظَّى سَموماً قيـظهُ فهـو أروقُ[٣]

تــراه إذا أمسى وقـد كـاد جلده ... من الحـر عن أوصالـه يتمـزَّق[٤]

غـــدت فـاستقت ثم ولت مغيــرةً ... بها حين يزهاها الجناحان أولـق[٥]

تيمم ضحضحاحاً من الماء قد بدت ... دعاميصه فـالماء أطـحـل أورق[٦]

فلمــا أتتــه مقــذَحــراً تغــوَّثــت ... تغـوَّثَ مخنوقٍ فيـطفو ويـغـرق[٧]

تُحيــرُ وتُلقي في سقــاءٍ كــأنــه ... من الحنظل العاميِّ جَرْوٌ مُفْلَقُ[٨]

فلما ارتوتْ من مائه لم يكن لها ... أناةٌ وقد كادت من الرِّي تبصـقُ[٩]

طَمَتْ طَمْـوَةً صُعُداً ومدت جرانها[١٧] ... وطارت كما طار السحاب المحلق»[١٠]

وهكذا يكون الجاحظ قد تسامح في صعوبة الكلمات التي استعملها الشاعر ما دام قد استطاع أن يقدم صورة جميلة غنية بالجوانب الممتعة، وحلق بنا في أجواء الخيال عبر الصحراء الموحشة، وتلاعب بعواطفنا ونحن نرقب لهفة الأم على إنقاذ ابنها تلك الأم القطاة التي وهبت بالغريزة عاطفة

(١) الرذايا: جمع رذي وهو الضعيف عند فراخها. والنجاء: السرعة. الهبنق: الأحمق. يقول: يكفيها مؤونة صغارها تلك السرعة الحمقاء التي تحصل بها على طعامهن بسرعة.

(٢) يقول: ليس دون هذا المنهل متعلق للقطا مسيرة شهر تظل طائرة لا تجد ما تتعلق به.

(٣) الأزغب: فرخها. جَوْز: وسط. التنوفة: الفلاة. السَّموم، بالفتح. الريح الحارة. الأوراق: الذي لونه بين السواد والعنبرة.

(٤) الأوصال: المفاصل، والأعضاء جمع وُصِل بالكسر والضم.

(٥) استقلت: نهضت للطيران، وارتفعت في الهواء. وأولق: شبه الجنون.

(٦) تيمم: تقصد. الدعاميص: دويبات صغيرة تكون في مستنقع الماء. أطحل: رمادي اللون ومثله الأورق.

(٧) المقذحر والمقدحر: المتهيء للشر، تراه الدهر متنفخاً شبه الغضبان وقد شبه به الماء الثائر. تغوَّثت: أراد صاحت، والمعروف غوث واستغاث: صاح واغوثاه.

(٨) أحار: رد وأرجع. وقد عني بالسقاء هنا حوصلتها تملؤها بالماء لتروي صغارها. والعاميّ: اليابس أتى عليه عام، الجرو: الصغير من كل شيء حتى الحنظل والبطيخ والقثاء.

(٩) طمت: ارتفعت. والجران: باطن العنق. والمحلق: المرتفع.

(١٠) الحيوان للجاحظ جـ ٥ ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥.

الأمومة تزاحم حنان أمومة المرأة بزخمها وصفائها، بل أكاد أقول إن المرأة المعاصرة تتأخر عنها بكثير!.

ويعجب عمرو بن بحر بجمال النار فينقل لنا أحسن ما قيل في وصفها:

«ونحن راجعون في القول في النار إلى مثل ما كنا ابتدأنا به القول في صدر هذا الكلام، حتى نأتي من أصناف النيران على ما يحضرنا إن شاء الله.

قالوا: وليس في العالم جسم صرف غير ممزوج، ومرسل غير مركب ومطلق القوى، غير محصور، ولا مقصور[1]، أحسن من النار.

قال: والنار سماوية علوية؛ لأن النار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء.

ويقولون: «شراب كأنه النار» و«كأن لون وجهها النار» وإذا وصفوا بالذكاء، قالوا: «ما هو إلا نار»، وإذا وصفوا حمرة القِرمز[2]، وحمرة الذهب، قالوا: «ما هو إلا نار».

قال: وقالت هند[3]: كنت - والله - في أيام شبابي أحسن من النار **الموقدة**.

وأنا أقول: لم يكن بها حاجة إلى ذكر الموقدة، وكان قولها: «أحسن من النار» يكفيها. وكذلك اتهمت هذه الرواية.

وقال قدامة[4] حكيم المشرق في وصف الذهن: «شعاع مركوم[5]،

---

(١) مقصور: محبوس.

(٢) القِرمز: صبغ أرمني أحمر، يقال إنه من عصارة دود يكون في آجامهم فارسي معرب.

(٣) هي هند بنت الخس. وقد نعتها الحاحظ نعتاً عجيباً في البيان (١: ٢٠٥).

(٤) قد يكون جد قدامة بن جعفر، وذكره الجاحظ مرة أخرى في فحر السودان قال: وفيها يقول قدامة حكيم المشرق، وكان صاحب كيمياء:

فأوقد فيها ناره ولو أنها ... أقامت كعمر الدهر لم تتضرَّم

(٥) مركوم: مجموع.

ونسيم[١] معقود، ونور بصاص[٢]، وهو النار الخامدة[٣]! والكبريت الأحمر[٤]».

ومما قاله العتابي: «وجمال كل مجلسٍ بأن يكون سقفه أحمر، وبساطه أحمر».

وقال بشار بن برد:

هِجان عليها حُمْرةٌ في بياضها   تروق بها العينين والحسن أحمر

وقال أعرابي:

هِجان عليها حُمْرة في بياضها   ولا لون أدنى للهجان من الحمر»[٥]

وقد استجاد عمرو بن بحر شعراً في وصف نوح الحمام.

«قال جهم[٦] بن خلف المازني:

وقد هاج شوقي أن تغنت حمامة   مطوَّقةٌ ورقاء تصدح في الفجر
هتوف تبكي ساقَ حرٍّ ولن ترى   لها دمعة يوماً على خدها تجري
تغنت بلحنٍ فاستجابت لصوتها   نوائح بالأصياف[٧] في فنن السِّدر
إذا فترت كرتْ بلحنٍ شجٍ لها   يهيّج للصبّ الحزين جوى الصدر

(١) النسيم: نفس الريح إذا كان ضعيفاً.
(٢) البصاص: اللماع البراق. بصَّ يبِصُّ بكسر الباء.
(٣) النار الخامدة: التي لا لهب لها.
(٤) الكبريت الأحمر: يدخل في عمل الذهب عند أهل الصنعة ويسمونه حجر الفلاسفة.
أراد: أن الذهن يبدع أموراً نفيسة، كما يبدع الكبريت هذا الحجر، الذهب، فيما يرى الحكماء. وقد ضربه الأدباء مثلاً للندرة، فقالوا: «أندر من الكبريت الأحمر». وبه لقب شيخ الصوفية، محيي الدين بن عربي.
(٥) الحيوان جـ ٥ ص ٩٥.
(٦) هو راوية عالم بالغريب، والشعر في زمان خلف والأصمعي، وله شعر في الحشرات والجارح من الطير.
(٧) الأصياف: جمع صيف. السِّدر: شجر النبق. فنن وأفنان: الأغصان أطلق المفرد وأراد الجمع، وذلك كثير في كلامهم.

دعتهنَّ مطرابُ العشيات والضحى   بصوت يهيج المستهام على الذكر
فلم أرَ ذا وجدٍ يزيدُ صبابة   عليها ولا ثكلى تبكّي على بكر
فأسعدنها بالنوح حتى كأنما   شربن سلافاً من مُعتقة الخمر[1]
تجاوبن لحناً في الغصون كأنها   نوائحُ ميت يلتدمن[2] لدى قبر
بسُرَّة وادٍ من تبالة[3] مونقٍ   كسا جانبيه الطلح واعتمَّ بالزهر

وزعم الأصمعي أن قوله: «هتوف تبكي ساق حر» إنما هو حكاية «وحشي الطير هذه النوَّاحات».

وبعضهم زعم: أن ساق حر هو الذكر، وذهب إلى قول الطرماح في تشبيه الرماد بالحمام، فقال:

بين أظآرٍ بمظلومةٍ   كسراةِ الساقِ ساق الحمام»[4]

والحق أن الجاحظ أخذ من جمال التصوير، وصدق العاطفة التي أفاضها الشاعر على الحمام، وجمال الخيال وبراعة التشبيه، وهذا مثال جيد، يعلمنا فن الوصف ويغني عن كلام كثير، فالمثال يمكن أن يتذوقه كل منا من ناحية ذوقه وإحساسه الخاص، فيجد ما يجذبه للشعر، فقد يجد أحدنا براعة في الصور والأخيلة وقد يؤخذ الثاني بحلاوة السبك والموسيقى الداخلية التي استطاع الشاعر أن يطوعها لترسم نغمات الحمام في الغابات والآجام.

ومن يهتم بالمعنى سيجد المعاني الشريفة الغريبة التي تمتع عقله، وتغذي فكره زمناً طويلاً......

ونقرأ لعمرو بن بحر في وصف الطعنة والضربة:

«وفي صفات الطعنة والضربة أنشدني ابن الأعرابي:

---

(١) جعلهن قد شربن الحمر؛ لما كان لهن من شلة الصوت فعل العربيد

(٢) يلتدمن: من الالتدام: وهو ضرب المرأة صدرها في النياحة.

(٣) تبالة: موضع ببلاد اليمن حيث الشجر والنضرة. والطلح. شجر عظام.

(٤) الحيوان جـ ٣ ص ٢٢٤ - ٢٤٣.

ولا عَقْلَ عندي غيرُ طعن نوافذٍ ... وضربٍ كأشداق الفصالِ (١) الهوازلِ
وسب يودُّ المرء لو مات دونه ... كوقع الهضاب صُدِّعت بالمعاول

وقال البعيث:

أئن أمرعت معزى عطية(٢) وارتعت ... تلاعاً من المرُّوت(٣) أحوى(٤) جميمُها(٥)
تعرضت لي حتى ضربتك ضربة ... على الرأس يكبو لليدين أميمها(٦)
إذا قاسها الآسي(٧) النطاسيُّ أرعشت ... أنامل آسيها(٧) وجاشت هزومها»(٨)

وقد أعجب الجاحظ بصحة ذوق عبد الملك بن مروان عندما حكم للأخطل بالتفوق على زميليه جرير والفرزدق في وصف النعاس:

«ومن ذلك حديثه حين نعس، فقال للفرزدق، وجرير والأخطل «من وصف نعاساً بشعرٍ وبمثلٍ يصيب فيه، ويحسن التمثيل فهذه الوصيفة له».

فقال الفرزدق:

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه ... أميم(٩) جلاميدٍ تركْنَ به وَقْرا

فقال: شد خنقني ويلك يا فرزدق!.

فقال جرير:

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه ... يرَى في سواد الليل قنبرةً سقرا(٢)

---

(١) الفصال: جمع فصيل: وهو ولد الناقة.
(٢) عطية هو والد جرير.
(٣) المروت كسفود اسم موضع.
(٤) الأحوى: الذي يضرب إلى السواد من شدة خضرته.
(٥) الجميم: النبت الذي طال بعض الطول ولم يتم.
(٦) الأميم: الذي أصيب في أم رأسه.
(٧) الآسي: الطبيب. الهزوم: الصُدوع والشقوق تجيش بالدم المتدفق منها.
(٨) حيوان جـ ٦ ص ٤١٣ - ٤١٩.
(٩) الأميم: الذي أصيب في أم رأسه.
(١٠) السقر: لغة في الصقر.

فقال: ويلك تركتني مجنوناً! ثم قال: يا أخطل، فقل فقال:

رماه الكرى في الرأس حتى كأنه نديمٌ تروَّى بين نَدمانه[1] خمرا[2]

كما شارك الجاحظ الحطيئة والفرزدق بالإعجاب الذي دفعهما لتقديم الشماخ بغاية التقديم عندما وصف الحر.

«وقال الشماخ بن ضرار في صفة الحر:

كأن قتودي فوق جأبٍ مطرِّدٍ من الحُقب لاحته الجداد الغوارزُ
طوى ظمأها في بيضة القيظ بعدما جرت في عِنان الشِّعر بين الأماعزُ
وظلت بيمؤودٍ كأن عيونها إلى الشمسِ هل تدنو ركي نواكز

ولهذه الأبيات كان الحطيئة، والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم..»[3].

واستجاد عمرو بن بحر وصف الخليع بن زفر العطاردي للمطر يعقبه سيل:

«وقال الخليع بن زفر العطاردي، كنا بالبادية إذ نشأ عارض[4]، وما في السماء قزعة[5] معلقة، وجاء سيل، فاكتسح أبياتاً من بني سعد فقلت:

فرحنا بوسمي[6] تألق ودقه عشاءً فأبكانا صباحاً فأسرعا
له ظُلة[7] كأن ريِّق وبلها عجاجة صيف أو دخان ترفعا
فكان على قومٍ سلاماً ونعمة وألحق عاداً[8] آخرين وتبعا»[9]

---

(١) الندمان: بالفتح النديم على الشراب يقال للواحد وللجمع.
(٢) رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٣) الحيوان جـ ٥ ص ٧٠٩.
(٤) العارض السحاب الحافل بالماء.
(٥) قزعة: غيم متقطع.
(٦) الوسمي: المطر الخفيف الذي يسم الأرض. وتألق ودقه: لمع ماؤه.
(٧) له ظُلة: له غمام معلق كالظلة.
(٨) يقول: أحيا المطر قوماً وأهلك آخرين.
(٩) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٨٢.

٤ ـ الغــزل

ينبه الجاحظ إلى أن الغزل موهبة، ولا علاقة للشهوة في إبداعه، ويستشهد بالفرزدق وجرير، فقد أجاد جرير بسبب دقة إحساسه، وقدرته على التصوير، بينما قصَّر الفرزدق، وهو من هو في مطاوعة شهواته.

«وهذا الفرزدق، وكان مستهتراً بالنساء، وكان زير غوانٍ **وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور.**

ومع حسده لجرير ـ وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ـ وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً»[١].

وقد أعجب بشعر لأبي حية النميري:

«وقال أبو حية النميري:

رمتني وستــر الله بـيـني وبيـنهــا ... عـشيــة آرام الـكـنــاس رمـيـمُ[٢]
ألا ربَّ يــومٍ لـو رمتني رميتهــا ... ولكن عهـدي بـالنضــال قـديمُ[٣]
رميم التي قـالت لجـارات بيتهــا ... ضمنـت لكـم ألا[٤] يــزالُ يهـيم

وقال آخر:

لم أعطُها[٥] بيدي إذ بت أرشفها ... إلا تـطاول غصنُ الجيـد للجيـد
كما تطاعم في خضراء[٦] ناعمة[٧] ... مـطوقانِ[٨] أصـاخـا بعـد تغـريـد

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٢.
(٢) يقول: رمتني بطرفها، وعني بستر الله: الإسلام أو الشيب وآرام الكناس: موضع.
(٣) قال المبرد في شرح هذاالبيت: لو كنت شاباً لرميتُ كما رميتِ وفتنت كما فتنت، ولكن تطاول عهدي بالشباب.
(٤) أن يصح أن تكون هنا ناصبة. أو مخففة من الثقيلة فيرفع الفعل بعدها.
(٥) عطا الشيء يعطوه: إذا أخذه وتناوله.
(٦) خضراء: عني بها الشجرة.
(٧) الناعمة: الخضراء الناضرة، نعم العود: اخضرَّ ونضر.
(٨) المطوقان: حمامتان مطوقتان. وتطاعما: أن يدخل الذكر فمه في فم الأنثى.

فـإن سمعت بهلك للبخيـل فقـل   بُعْداً وسحقاً له من هالك مودي»[٤]

وقد أجاد سلم الخاسر في وصف المرأة فأعجب به الجاحظ:

«وقال سلم الخاسر[٢]:

تبدت فقلت الشمس عند طلوعها   بجيـد نقي اللون من أثر الـورس

فلما كررتُ الطَّرفَ قلت[٣] لصاحبي   على مرية من ها هنا مطلع الشمس»[٤]

"٥ - الـرثــاء

يرى عمرو بن بحر أن الرثاء يدل على وفاء الشاعر لمن رحل عن الدنيا، فهو بهذا يعلم مكارم الأخلاق إضافة إلى ما يذكـر من محاسن الراحل، ويكون بهذا أبعد أثراً بسبب صدق العاطفة.

«وقال الباهلي: **قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟** قال: **لأنا نقول، وأكبادنا تحترق.**

قال أبو الحسن المدائني: **كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي.**

فقيل، ولم ذاك؟ قيل: **لأنها تدل على مكارم الأخلاق**»[٥].

«قال أبو العتاهية يرثي علي بن ثابت الأنصاري:

كفى حَـزَنـاً بـدفنـك ثُمَّ أني   نفضت تـراب قبـرك عن يـديَّـا

فكـانت في حيـاتـك لي عـظات   وأنت اليومَ أو غطُ منك حيـا»[٦]

(١) الحيوان جـ ٤ ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) هو سلم بن عمرو مولى بني تيم بن مرة، شاعر بصري، قدم بغداد ومدح الهادي والمهدي والبرامكة.

(٣) قلت: بمعنى ظننت.

(٤) المصدر السابق جـ٣ ص ٩٠.

(٥) البيان والتبيين جـ٢ ص ٣٦٠.

(٦) الحيوان جـ٣ ص ٩١.

«ومن المراثي المستحسنة قول حارثة بن بدر الغداني يرثي زياداً بن أبيه:

أبــا المغيــرةِ والــدنيــا مغيَّــرةٌ   وإن من غــرَّتِ الـدنيــا لمغـرورُ
قــد كان عنـدك للمعروف معـرفـةٌ   وكــان عنــدك للنـكـراء تنكيــرُ
وكنت تؤتى فتؤتي الغير من سعةٍ   إن كان قبرُك أمسى وهـو مهجورُ
صلى الإلّــه على قبــرٍ بمحنيــة   دون الثوية[1] يسفي فوقه المـور»[2]

وقد أعجب برثاء المرأة الوفية:

«وقالت بنت عيسى[3] بن جعفر، وكانت مملكة[4] لمحمد المخلوع حين قتل:

أبـكيــك لا لـلنعـيـم والأنسِ   بـل للمعـالي والـرمـح والفَـرَس
أبكي على فـارسٍ فجُعت بــه   أرمـلني قـبـل ليـلة العـرسِ»[5]

وللوفاء أيضاً أعجب بشعر ابن عنمة برثاء بسطام بن قيس الشيباني:

«قال ابن عنمة[6] يرثي بسطاماً بن قيس الشيباني:

لأمِّ الأرض ويــلٌ مــا أجنَّــتْ   بحيث أضــرَّ بــالحسن السبيــلُ
يقسـم مــا لــه فينــا ونـدعــوا   أبــا الصهبـاء إذ جنـح الأصيـلُ
لــك المـربــاع فينـا والصفـايـا   وحكمـك والنشيـطة والفـضـول
لقـد ضمنت بنـو زيـد بن عمـرو   ولا يــوفــى ببـسـطام قـتـيـل

(١) الثُوية: بفتح الثاء وضمها موضع قريب من الكوفة.
(٢) المصدر السابق جـ٧ ص ١٥٩.
(٣) عيسى بن جعفر هو حفيد أبي جعفر المنصور، ولي البصرة، وكورها وفارس والأهواز واليمامة، والسند، ومات بدير بين بغداد وحلوان.
(٤) مملكة: من الإملاك وهو عقد الزواج ومحمد المخلوع هو الأمين.
(٥) المصدر السابق جـ٣ ص ٨٩ - ٩٠.
(٦) هو عبد الله بن عنمة الطبسي، شاعر مخضرم، عرف في شعراء الإسلام، وقد شهد حرب القادسية، وله قصيدتان في المفضليات.

فخر على الألاة لم يوسد كأن جبينه سيف صقيل»[1]

«وقال يعقوب بن الربيع[2] في مرثية جارية له:

حتى إذا فتر اللسانُ فأصبحت للموت قد ذبلت ذبول النرجس
رجع اليقين مطامعي يأساً كما رجع اليقين مطامع المتلمس[3]

وقال صالح بن عبد القدوس:

إن يكن ما أصبت فيه جليلاً فذهاب العزاء فيه أجلّ

ونظر بعض الحكماء إلى جنازة الإسكندر، فقال: «إن الإسكندر كان أمسِ أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس».

وقال ضرار بن عمرو، رأى ضرار بن عمرو الضبي له ثلاثة عشر ذكراً قد بلغوا فقال:

«مَنْ سره بنوه ساءته نفسه».

وقال عبد الرحمن بن أبي بكرة:

«من أحب طول العمر فليوطن نفسه على المصائب»[4].

«وقال كعب بن سعد الغنوي[5]:

«وحدثتماني أنما الموت بالقُرى فكيف وهاتا هَضْبَةٌ وقطيبُ

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٩٠.

(٢) هو يعقوب بن الربيع الحاجب مولى المنصور شاعر محسن، أنفذ شعره في مراثي جاريته «مُلك» بضم الميم، وكان طلبها سبع سنين يبذل فيها ماله وجاهه حتى ملكها، فأقامت عنده ستة أشهر ثم ماتت، فرثاها بشعر كثير.

(٣) رجع المطامع يأساً: جعلها يأساً لا أمل فيها، ويشير إلى ما كان من طمع المتلمس الشاعر في صحيفته، ثم ضياع ذلك الأمل حين عرضها على أحد أبناء الحاضرة، فعرف ما بها من المكيدة.

(٤) الحيوان جـ ٦ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٦.

(٥) كعب بن سعد الغنوي شاعر إسلامي، وهو أحد بني سالم بن عبيد بن سعد بن عوف بن كعب بن جلاد بن غنم بن أعصر والظاهر أنه تابعي، والأبيات من مختارات أشعار العرب يرثي بها أخاه أبا المغوار، واسمه هرم أو شبيب.

وماء سماء كان غير مَجَمَّةٍ[1] ببرية تجري عليه جنوبُ[2]
ومنزلة في دار صدقٍ وغبطةٍ وما اقتالَ[3] في حُكْمٍ عليَّ طبيبُ

وقال دريد بن الصمة:

رئيسُ حروبٍ لا يزال ربيئةً مشيحٍ على معقوقفٍ[4] الصُلبِ مُلْبدِ
صبورٌ على رزْءِ المصائب حافظ من اليوم أعقابَ الأحاديثِ في غدِ
وهوَّن وجدي أنني لم أقل له كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي»[5]

ومن عيون المراثي في الشعر العربي استجاد مرثية للحسين بن مطير الأسدي يرثي بها معناً بن زائدة وهي تشبه مرثية لمسلم بن الوليد يرثي بها يزيد بن مزيد الشيباني:

«ومن هذا الشكل قول الحسين بن مطير الأسدي في رثائه لمعن بن زائدة[6]:

ألما على معنٍ وقولاً لقبره سقتك الغوادي مُرْبعاً ثم مُرْبعا
فيا قبر معنٍ كنت أول حفرةٍ من الأرض خُطَّت للسماحة موضعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
فلما مضى معن مضى الجود والندى وأصبح عرنين المكارم أجدعا
فتىً عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
تعزَّ أبا العباس[6] عنه ولا يكن جزاؤك من معن بأن تتضعضعا
فما مات من كنت ابنه لا والذي له مثل ما أسدى أبوك وما سعى

---

(١) المجمّة: مكان جموم الماء أي كثرته، والمحمة· بالحاء: مكان تكثر فيه الحمى.
(٢) ريح الجنوب: معها الخير والمطر، والتلقيح.
(٣) اقتال: تحكم. وقد عني أن أخاه لم يمرض فيحتاج إلى الطبيب
(٤) محقوقف: مخروف.
(٥) الحيوان جـ٣ ص ٥٦ - ٥٧.
(٦) أبو العباس: هو زائدة بن معن، وكان فارساً شجاعاً، كريماً.

تمنى أنــاس شـاوه من ضـلالهم   فأضحوا على الأذقان صرعى وظلعا

وهذا مثل قول مسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد:

قبــر ببـرذعـة استسر ضـريحه   خـطراً تقـاصـرُ دونـه الأخـطارُ
أبقى الــزمـان على معـدٍ بعـده   حُـزنـاً كعمـر الـدهـر ليس يُعـارُ
نقضت بـه الآمال أحـلاس الغنى   واستـرجعت نـزاعهـا الأمـصـار
فـاذهب كما ذهبت غـوادي مزنـة   أثنى عليهـا السهـل والأدكـار»[1]

حقاً لقد أجاد الشاعران وقاما بحق القائدين العظيمين، وقد جاءت القصيدتان غاية في السهولة وحرارة العاطفة وصدقها، وجمال السبك الذي يدل على سلامة الطبع، وجمال المعاني، مما جعل أبا عثمان يختارهما في بيانه.

٦ ـ في الزهد والوعظ والحكم

وقد اختار لنا منها ما يلي:

«وقال أكثم بن صيفي:

نـربّـي ويـهـلكُ آبـاؤنـا   وبـينـا نُـربّي بـنـينـا فـنـينـا

وقال أبو نواس:

لـدوا للمـوت وابنـوا للخـراب   فـكـلكـم يـصـيـر إلى ذهـاب
كـأنـك قـد هجمت على مشيبي   كمـا هجم المشيب على شبابي

وقال آخر:

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي   فالناس من بين معمومٍ ومخصوصِ
لا شيء في هذه الدنيا يحاط به   إلا إحاطة منقـوصٍ بمنقوصِ»[2]

(١) البيان والتبيين جـ٣ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.
(٢) الحيوان جـ٣ ص ٥١ ـ ٥٢.

«وقال القُدار وكان سيد عَنَزَة في الجاهلية:

أهلكت مهري في الرهان لجاجة ومن اللجاجة ما يضر وينفع

قال وسمعت عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ينشد وكان فصيحاً:

إذا أنت لم تنفع فضر، فإنما يرجَّى الفتى كيما يضرَّ وينفعا[1]

وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن[2]:

وإن امرأً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد»[3]

«وليس في جودة الظن بيت شعر أحسن من بيت بلعاء[4] بن قيس:

وأبغي صوابَ الظن أعلم أنه إذا طاش ظن المرء طاشت مقادره[5]

ومن مختار الشعر لدى أبي عثمان:

«وقال معقر بن حمار البارقي[6]:

الشِّعر لب المرء يعرضُه والقول مثل مُواقع النبل
منها المقصّرُ عن رميّته ونوافذ يذهبن بالخَصْل[7]

وقال كثير:

إذا المال لم يوجب عليك عطاؤه صنيعة برٍّ أو خليل تَوامقُه
منعتَ وبعضُ المنع حزم وقوة فلم يفتلتك المال إلا حقائقُه[8]»[9]

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٧٥ ـ ٧٧.
(٢) هو سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت.
(٣) المصدر السابق جـ١ ص ٢٤.
(٤) بلعاء هذا كان رأس كنانة في أكثر حروبهم، ومغازيهم، وهو شاعر محسن، وقد قال في كل فن أشعاراً جياداً، مات يوم الحريرة، وهو اليوم الخامس من يوم الفحار الآخر.
(٥) الحيوان جـ٣ ص ٦٠ ومكرر ص ٦١ ـ ٦٢.
(٦) معقر بن حمار البارقي اسمه سفيان بن أوس بن حمار شاعر جاهلي.
(٧) الخصل: الغلبة في النضال.
(٨) الحقائق: الحقوق.

وعندما يعجب الجاحظ بالشعر إعجاباً تاماً يصفه بقوله: «إنه من أشعار المذاكرة» وقد عرض منها:

«وسنذكر من نوادر الشعر جملة، فإن نشطت لحفظها، فاحفظها؛ فإنها من أشعار المذاكرة.

قال الثقفي[1]:

من كان ذا عَضُدٍ يدركْ ظُلامتَه　　إن الذليلَ الذي ليست له عضدُ
تنبو يداه إذا ما قلَّ ناصرُه　　ويأنفُ الضيمَ إن أثرى له عددُ

وقال عَبْدَةُ بن الطيب:

ربَّ حبانا بأموالٍ مُخَوَّلة　　وكلُّ شيءٍ حباه الله تخويلُ
والمرء ساعٍ لأمرٍ ليس يدركه　　**والعيشُ شحٌ وإشفاقٌ وتأميلُ**

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يردد هذا النصف الآخر ويعجب من جودة ما قسم»[2].

ثم يتابع عرض النماذج المستجادة من أشعار المذاكرة على النحو التالي:

«وقال المتلمس:

وأعلمُ علمَ حقٍ غيرَ ظنٍ　　وتقوى الله من خيرِ العتادِ
كحفظ المال أيسر من بغاه[3]　　وضربٍ في البلاد بغير زاد
وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيه　　ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال حميد بن ثور:

---

(1) لعله يزيد بن الحكم الثقفي البصري، وهو شاعر فحل معروف، مر عليه الفرزدق يوماً، وهو ينشد في المسجد، فقال من هذا الذي ينشد شعراً كأنه شعرنا؟ قالوا: يزيد بن الحكم. فقال: أشهد أن عمتي ولدته. وأمه بكرة بنت الزبرقان بن بدر، وأمها هنيدة بن صعصعة بن ناجية.

(2) الحيوان جـ٣ ص ٤٥ ـ ٤٩.

(3) يقال: بغى الشيء يبغيه بغاءً: أراده.

أتشغل عنايا بن عمّرٍ فلن ترى | أخا البخل إلا سوف يعتلُّ بالشغلِ

وقال ابن مقبل:

هل الدهر إلا تارتان فمنهما | أموت وأخرى أبتغي العيش أكدحُ
وكلتاهما قد خُطَّ لي في صحيفةٍ | فلا الموتُ أهوى لي ولا العيشُ أروحُ

وقال حريش السعدي:

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه | تلوَّن ألواناً عليَّ خطوبُها
إذا عبتُ منه خلةً فتركته | دعتني إليه خلة لا أعيبها

وقال بشار:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً | خليلك لم تلق الذي لا تعاتبهُ
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه | مقارف ذنبٍ مرة ومجانبُه
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القذى | ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشاربُه»[١]

ويعرض عمرو بن بحر لأحسن ما قيل في حب الوطن والحنين إليه:

«ولو جمعنا أخبار العرب، وأشعارها في هذا المعنى، لطال اقتصاصها، ولكن توخينا تدوين أحسن ما سنح من أخبارهم وأشعارهم وبالله التوفيق.

ومما يؤكد ما قلنا في حب الأوطان قول الله ـ عزَّ، وجل ـ حين ذكر الديار يخبر عن مواقعها في قلوبه عباده فقال: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الآ، وقد أخرجنا من دينار وأبنائنا﴾[٣].

---

(١) المصدر السابق مكرر، الحيوان جـ٣ ص ٤٥ ـ ٤٩.
(٢) الآية ٦٦ من سورة النساء.
(٣) الآية ٢٤٦ من سورة البقرة.

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «عَمَّر الله البلدان بحب الأوطان».

وقال آخر[1]: من إمارات العاقل بره لإخوانه، وحنينه لأوطانه، ومداراته لأهل زمانه.

وقال:

لا ترغبوا إخوتي، في غربةٍ أبداً　　إن الغريبَ ذليلٌ حيثما كانا

وقال الشاعر:

لعمري لرهطُ المرء خيرُ بقيةً　　عليه وإن عالوا به كلَّ مركبِ
من الجانب الأقصى وإن كان ذا ندىً　　كثيرٍ ولا ينبيك مثلُ المجرِّبِ
إذا كنت في قومٍ عدىً لست منهم　　فكلْ ما عُلِفْتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

وقالت العرب: حماك أحمى لك، وأهلك أحفى بك.

وقال آخر: أرضُ الرجلِ أوضحُ نسبه، وأهله أحضرُ نشبه.

وأنشد أبو النصر الأسدي[2]:

أحب الأرض تسكنها سليمى　　وإن كانت توارثها الجدوبُ
وما دهري بحبِ ترابِ أرضٍ　　ولكن من يحلُّ بها حبيبُ

قال ومن هذا أخذ الطائي قوله:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى　　وحنيله أبداً لأول منزل

وأحسن ما سمعنا في حب الوطن، وفرحة الأوبة قوله:

وياسرتُها[3] فاستعجلت عن قناعها　　وقد يستخف الطامعين المياسرُ
مشمرة عن ساق خدلاء[4] حرةٍ　　تجاري بنيها مرةً وتحاضرُ

---

(1) ديوان المعاني لبزرجمهر.

(2) الشعر في ديوان المعاني ٢: ١٨٩، لأحمد بن إسحق الموصلي.

(3) في التيمورية باشرتها.

(4) خدلاء: ممتلئة الساق.

وخبـرهـا الـرواد أن ليس بينهـا وبين قرى نجران والـدربُ صافـر
فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قَرَّ عينـاً بالإيـاب المسافـرُ(1)

وقال آخر:

طـلـبُ الـمـعـاشِ مـفـرِّقٌ بـيـنَ الأحـبـةِ والـوطـنْ
ومـصـيِّـرُ جَـلْـدَ الـرجـا ل إلـى الـضـراعـة والـوهَـنْ
حـتـى يـقـادَ كـمـا يـقـا د الـنـضـو في ثـنـيِ الـرسَـنْ
ثـم الـمـنـيـة بـعـده فـكـأنـه مـا لـم يـكـن

وقال آخر في حب الوطن:

سقى الله أرض العـاشقين بغيثـه وردَّ إلـى الأوطـان كـلَّ غـريب
وأعطى ذوي الهيئات فـوق مناهم ومتّـع محبـوبـاً بقـربِ حبيب»(2)

وننقل ما استجاده عمرو بن بحر في أن السيف يمحو أثر الكلام.

«ما ذكروا فيه أن السيف يمحو أثر الكلام، قـال جريـر يرد على الفرزدق:

بنينـا بنـاءً لم تنـالـوا فـروعـه وهـدَّم أعلى مـا بنيتـم أسـافلُه
تكلفني ردَّ الفـوائت بعـدمـا(3) سبقن كسبقِ السيفِ ما قال عاذلُه

وقال الكميت بن معروف(4):

ألم يـأتهم أن الفـزاريَّ قـد أبى ـ وإن ظلموه لم يملَّ، فيضـرعا ـ
شـرى نفسه مجـدَ الحياةِ بضـربةٍ ليـدحض حربـاً أو ليطلع مـطلعـا
خذوا العقل(5) إن أعطاكم العقلَ قومُكم وكونوا كمن سيم الهوان فأربعا(6)

---

(1) يضرب مثلاً لكل من وافقه شيء، فأقام عليه.

(2) رسائل الجاحظ تحقيق هارون ـ جـ ٢ ـ رسالة الحنين إلى الأوطان ص ٣٨٨ ـ ٤٠٥.

(3) ويروى: وما بك رد للأوابد بعدما...

(4) هو الكميت بن معروف الفقعسي الأسدي، شاعر بدوي، من شعراء الإسلام في عهد بني أمية، وهو من أسرة معرقة في الشعر من الآباء والأخوان.

(5) العقل: الدية.

(6) فاربع: تمكث، وانتظر.

ولا تكثروا فيه الضجاجَ فإنه ... محا السيفُ ما قال ابنُ دارةَ[1] أجمعا»[2]

٧" ـ الفخر

وقد ذكر الجاحظ لنا مختارات أعجبته ونصح لنا أن نحفظها لجمال معناها، وجودة سبكها، وتصويرها.

«ونذكر هنا أبيات شعر تصلح للرواية والمذاكرة:

قال سُويد المراثد الحارثي[3] أو غيره:

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما ... دفنتم بصحراء الغمير[4] القوافيا
فلسنا كمن كنتم تصيبون سلةً ... فنقبل عقلاً[5] أو نحكِّم قاضيا
ولكنَّ حكم السيف فيكم مسلَّط ... فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا[6]
فإن قلتم إنا ظلمنا فإنكم ... بدأتم ولكنا أسأنا التقاضيا[7]
وقد ساءني ما جرّت الحرب بيننا ... بني عمنا لو كان أمراً مدانياً[8]»[9]

ونجد في مكان آخر لدى عمرو بن بحر:

«وقال آخر:

---

(١) ابن دارة: هو سالم بن مسافع بن يربوع الغطفاني، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية، والإسلام. ودارة أمهُ، وبها كان يفتخر ويقول:

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي ... وهل بدارة يا للناس من عار

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٩٩.

(٣) هذا الشعر لسويد بن صميج الحارثي، شاعر فارس فاتك. وكان أخوه قتل غيلة، فقتل قاتل أخيه نهاراً في إحدى الحواضر. وقد يروى هذا الشعر للشميذز الحارثي.

(٤) صحراء الغمير: اسم مكان.

(٥) عقلاً: دية.

(٦) رضاء السيف: كناية عن عمله حتى يثلم.

(٧) إساءة التقاضي: لأنهم قتلوا جماعة بثأر واحد.

(٨) مدانياً: مقارباً سهل القبول على النفس.

(٩) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٥.

الله يعلم يا مغيرة أنني قد دستها دوسَ الحصانِ الهيكل
فأخذتها أخذ المقصب[1] شاته عجلان يشويها لقومٍ نُزَّلِ»[2]

وقد عد عمرو بن بحر من الشعر الحسن:

«وقال أبو يعقوب الأعور:

وخلجةِ ظنٍ[3] يسبق الطرف حَزْمُها تشيف[4] على غُنْمٍ وتمكن من زُحل[5]
صدعتُ بها والقومُ فوضى كأنهم بكارةُ مرباعٍ[6] تبصبصُ للفحل[7]

وقال الأعشى[8]:

قد نطعنُ العَيْرَ[9] في مكنون قائله[10] وقد يشيط[11] على أرماحنا البطلُ
لا تنتهون ولن ينهي ذوي شططٍ كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ»[12]

وقد اختار عمرو بن بحر شعراً جميلاً لمسكين الدارمي.

«وقال مسكين الدارمي:

إنَّ أبانا بِكْرُ آدم فاعلموا وحواءُ قَرْمٌ[13] ذو عثانين[14] شارفُ[15]

---

(١) المقصب: القصاب.
(٢) الحيوان جـ٣ ص ٥٦.
(٣) قال الجاحظ: خلجة ظن: أي ظن سريع.
(٤) تشيف: تشرق.
(٥) الدخل: الثأر.
(٦) بكارة مرباع: أي نوقٌ صغار قد أذلت للفحل. مرباع: أي نوق الرئيس.
(٧) البيان والتبيين جـ١ ص ٣٩٠ - ٣٩٢ مكرر.
(٨) العَيْر: هنا السيد.
(٩) قائله: عرق في الفخذ، وهو مقتل. أراد أنهم حذاق في الطعن.
(١٠) يشيط: يهلك.
(١١) الفُتُل: جمع فتيلة، وهي فتيلة الجراحة، يقول: لا يزجرهم غير طعن جارح.
(١٢) القَرْم بالفتح: الفحل.
(١٣) العثانين: جمع عثنون: وهي شعرات طوال تحت حنك البعير.
(١٤) الشارف: المسن من الإبل والمسنة.

كأن على خرطومه متهافتاً[1] من القطن هاجته الأكفُ النوادفُ
ولَلصداُ المُسْوَدُّ أطيبُ عندنا من المسك دافته[2] الأكفُ الدوائفُ
ويصبح عِرفان الدروع جلودنا إذا جاء يومٌ مظلمُ اللونِ كاسفُ[3]
نُعلِّق في مثل السواري[4] سيوفنا وما بينها والكعبُ منا تَنائف[5]
وكلَّ رديني[6] كأن كعوبه قطاً سابقٌ مستورد الماء صائفُ
كأن هلالاً لاح فوق قناته جلا الغيم عنه والقتام[7] الحَراجف[8]
له مثل حلقوم النعامة حلةٌ ومثل القدامى ساقها متناصف»[9]

ونقل لنا عمرو بن بحر أحسن ما روي في البادرة التي يصان بها الحلم.

«حدثني نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال: جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله ﷺ فقال: هل معك من الشعر ما عفا الله عنه؟، قال: نعم. قال: أنشدني منه. فأنشده:

وإنا لقومٌ ما نعوِّد خيلنا إذا ما التقينا أن تحيدَ وتنفرا
وتُنكرُ يومَ الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى تحسبَ الجَوْنَ أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردَّها صحاحاً، ولا مستنكراً أن تعقَّرا
بلغنا السماءَ مجدُنا وسناؤنا وإنا لنبغي فوق ذلك مَظْهرا

---

(١) المتهافت: المتطاير المتساقط. شبه اللغام على مشافر ذلك القرم بقطن متهافت تطيره أيدي النادفين في لون بياضه.
(٢) داف الطيب: خلطه. يقول: رائحة الصدأ من حديد السلاح أطيب عندنا من المسك
(٣) مثل السواري: عنى بها أعناق الرجال. والسارية: الأسطوانة من أساطين البيوت ونحوها.
(٤) التنائف: جمع تنوفة: وهي المفازة.
(٥) الرديني: الرمح المنسوب إلى ردينة، وجعل كعوبه كالقطافي ضآلتها، ويستحب من الرمح قصر كعوبه.
(٦) القتام الغبار، وقد شبه سنان ذلك الرمح بالهلال في بياضه ولمعانه وتقوسه.
(٧) الحراجف: جمع حرجف: الريح الباردة: كأنه الهلال المجلو في ليلة باردة لا غيم، ولا غبار فيها
(٨) الحيوان حـ ٦ ص ٤٩٣ - ٤٩٤

فقال له رسول الله ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «إلى الجنة إن شاء الله».

ثم رجع في قصيدته فقال:

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أوردَ الأمرَ أصدرا
ولا خير في حِلْمٍ إذا لم تكن له بوادر[1] تحمي صفوه أن يكدَّرا

فقال رسول الله ﷺ: «لا فضَّ الله فاك». قال: فأتت عليه عشرون ومائة سنة كلما سقطت له سن أثغرت أخرى مكانها؛ لدعوة رسول الله ﷺ...».

فهذا أحسن ما روي في البادرة التي يصان بها الحلم.

٨" - المعارضة

وقد اختار عمرو بن بحر نموذجين، أحدهما من النثر والثاني من الشعر.

«وقالوا: أربعة تشتد معاشرتهم: الرجل المتواني، والرجل العالم، والفرس المَرِحُ، والملكُ الشديدُ المملكةِ.

وقال غازٍ أبو مجاهد يعارضه: أربعة تشتد مؤونتهم: النديم المعربد، والجليس الأحمق، والمعنى التائه، والسفلة إذا تقرأوا»[3].

قلت: لعمري لقد صدق أبو مجاهد في الأربعة الذين اختارهم لمعارضة الأول، فالنديم المعربد يجرح شعور رفاقه، وقد يقلب البهجة إلى

---

(١) البادرة: الكلام الذي يسبق من الإنسان في الغضب كما في اللسان (بدر) عند إنشاد هذا البيت.

(٢) الرسائل تحقيق هارون جـ ١ - كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣) البيان جـ ١ ص ٤١٠ - ٤١١.

كآبة وحزن، وغضب نتيجة ما يبدر منه من تصرفات وكلمات. . .

والجلس الأحمق يثقل ظله حتى لتنوء الأرض بحمله فكيف بمن جالسه؟.

وكذلك المعنى التائه يعذب من يبحث عنه، ويشقيه. ولكن أشد منهم جميعاً السفلة إذا تظاهروا بالنسك وادعوا بالتقوى، والزهد في الدنيا، مثل هؤلاء يدجلون فيضيعون أنفسهم، والدين والبسطاء من العوام معهم، ويعظم الكرب منهم.

والمعارضة الشعرية بين أبي دلامة، وأبي خنيس في البغلة.

«قال أبو دلامة يصف بغلته:

أبعد الخيل أركبها وراداً ... وشقراً في الرعيل إلى القتالِ(١)
رُزقتُ بغيلةً فيها وِكالٌ ... وخيرُ خصالها فرط الوِكال(٢)
رأيت عيوبها كثرت وعالت ... ولو أفنيت مجتهداً مقالي(٣)
تقوم فما تريم إذا استحثت ... وترمح باليمين وبالشمال(٤)
رياضة جاهل وعُليج سَوْءٍ ... من الأكراد أحبن ذي سُعال(٥)
شتيم الوجه هلباجٍ هدانٍ ... نعوسٍ يوم حلٍ وارتحال(٦)
فأدبها بأخلاقٍ سماجٍ ... جزاه الله شراً عن عيالي
فلما هدني ونفى رقادي ... وطال لذاك همي واشتغالي(٧)

---

(١) الوراد: جمع وَرْد بالفتح: والوُردة بالضم: حمرة تضرب إلى صفرة حسنة

(٢) الوِكال بكسر الواو وفتحها: الفتور، كأنها تحتاج إلى صاحبها في العدو بالضرب.

(٣) عالت: زادت كما تقول الفريضة· أي تزيد.

(٤) ما تريم: ما تبرح.

(٥) عُلَيْج: مصغر عِلْج: وهو الضخم القوي من كفار العجم. والأحبن من عظم بطنه خلقة أو من داء.

(٦) الشتيم· الكريه الوجه. هلباج: الأحمق. هدان: الأحمق الجافي الوخم الحل· مصدر حل المكان وبالمكان: نزل به.

(٧) الكُناسة بالضم: محلة بالكوفة. والمستبيع. طالب البيع. والبيع من الأضداد للبيع والشراء.

أبيت بهـا الكنـاسـة مستبيعـاً ... أفكـر دائبـاً كيف احتيـالـي (١)

لعهـدة سلعـة ردت قـديمـاً ... أطُمُّ بهـا على الـداء العضـال (٢)

فبينـا فكـرتي في القـوم تسـري ... إذا مـا سِمتُ أرخصُ أم أغـالي

أتـانـي خـائـبٌ حمـقٌ شـقـيٌ ... قـديمٌ في الخسارةِ والضـلالِ (٣)

وراوغـني ليخـلوا بـي خـداعـاً ... ولا يـدري الشقي بمن يخـالـي

فقلت: بـأربعين فقـال أحسِنْ ... فـإن البيـع مـرتخص وغـالِ

فـلمـا ابتـاعـهـا مني وبـتـت ... لـه في البيـع غيـر المستقـال

أخـذتُ بثـوبـه وبـرئت ممـا ... أعـدُّ عليـك من شَنِـع الخصـال

بـرئت إليـك من مشٍ قـديمٍ ... ومن جـرذٍ وتخـريق الجـلال (٤)

ومن فـرط الحـران ومن جمـاحٍ ... ومن ضعف الأسـافـل والأعـالي

ومن عَـقـد اللسـان ومن بيـاضٍ ... بنـاظـرهـا ومن حـل الحبـال (٥)

ومن شـد العضـاض ومن شِبـاب ... إذا مـا هم صحبـك بـالـزيـال (٦)

وعُـقّـالٍ يـلازمـهـا شـديـدٍ ... ومن هـدم المعـالف والـركـال (٧)

تقـطع جلدهـا جـريـاً وحـكـاً ... إذا هـزلت وفي غيـر الهـزال (٨)

وأقـطف من دبيب الـذر مشيـاً ... وتـنحط مـن متـابعـة السعـال

وتكسـر سرجهـا أبـداً شمـاسـاً ... وتسقط في الوحول وفي الرمال (٩)

---

(١) العهدة: العيب. والسلعة: شبيه الغدة.

(٢) سمت بالبناء للمجهول أي سامني المشتري.

(٣) أصل المخالاة المصارعة. كأن كل واحدٍ منهما يخلو بصاحبه، والمراد هنا المخادعة.

(٤) المشش: ورم يأخذ في مقدم عظم الوظيف أو باطن الساق. والجَرْذ: تَزيد وانتفاخ عصب يكون في عرقوب الدابة. والجلال: ما تلبسه الدابة.

(٥) العقد بالتحريك: الاعوجاج والالتواء.

(٦) العُقّال كرمّان: انقباض في بعض العضلات يمنع الحركة وقتاً. الركال: مصدر راكله، والركل: الرفس.

(٧) الشِباب: بالكسر: هو من الفرس أن ينشط ويرفع يديه. الزيال: المفارقة.

(٨) أقطف: من القطف والقطاف، وهو تقارب الخطو وبطؤه. الذر: صغار النمل. تنحط، من النحيط: وهو أن تزفر من الجهد.

(٩) الشماس: نفور الدابة.

ويهـزلهـا الجمـام إذا خصبنـا … ويـدبـر ظهـرهـا مسُّ الجـلال(١)
تـظل لـركبـة منـهـا وقيـذاً … يخاف عليك من ورم الطحال(٢)
وتـضـرط أربـعيـن إذا وقـفـنـا … عـلى أهـل المـجـالس للسؤال
فتخـرس منـطقي وتحـول بيني … وبيـن كـلامـهـم ممـا تـوالـي
وقـد أعيت سياستهـا المُكـاري … وبيـطاراً يعـقـل بـالشكـال(٣)
حـرون حين تـركبهـا لِـحُضْـرٍ … جـمـوحٌ حـيـن تـعـزم لـلنـزال
وذئـب حيـن تـدنيهـا لـسـرجٍ … وليت عنـد خشخشة المخالي(٤)
وفـسـلٌ إن أردت بـهـا بـكـوراً … خـذول عنـد حـاجـات الـرحـال
وألـف عصـاً وسـوطٍ أصـبـحـي … ألـذ لهـا من الشـرب الـزلال(٥)
وتصعق من صقـاع الديـك شهـراً … وتـذعـر للصفيـر وللخيـال(٦)
إذا استعجلتهـا عثـرت وبـالـت … وقـامت سـاعـة عنـد المبـال
ومـثـفـار تـقـدم كـل سـرجٍ … تُـصَيِّـر دفـتيـه عـلى القـذال(٧)
وتحفـى بـالـوقـوف إذا أقمـنـا … كمـا تحفى البغـال من الكـلال
ولـو جـمعـت مـن هَـنّـا وهَـنّـا … من الأتبـان أمـثـال الجبـال(٨)
فـإنـك لست عـالفهـا ثـلاثـاً … وعـنـدك منـه عـود لـلخـلال
وكـانـت قـارحـاً أيـام كسـرى … وتـذكـر تبعـاً قبـل الفصـال(٩)
وقـد قـرحـت ولقمـان فـطيـم … وذو الأكتاف في الحجج الخوالي(١٠)

---

(١) الجمام كسحاب: الراحة. يدبر من الإدبار: الإصابة بالدبر وهو القرحة.
(٢) الوقيذ: الشديد المرض الذي أشرف على الموت.
(٣) المُكاري بضم الميم: هو الذي يكري دابته أي يؤجرها.
(٤) المخالي: جمع مِخلاة بكسر الميم ما يوضع فيها الخلى، الحشرش: الذي يحتش.
(٥) السوط الأصبحي: منسوب إلى ذي أصبح وهو ملك من ملوك حمير تنسب إليه السياط
(٦) صقع الديك صقعاً وصقاعاً: صاح ورفع صوته
(٧) المثفار: التي ترمي سرجها إلى مؤخرها. والثفر. السير الدي في مؤخر السرج. الدفتان: الجانبان. القذال: مؤخر الرأس.
(٨) الأتبان: جمع تِبن بالكسر.
(٩) القارح: ما استتم الخامسة. الفصال: الفطام.
(١٠) قرحت: يعني من باب قرح: استتمت الخامسة، وسقطت سنها التي تلي الرباعية ذو =

وقد أبلي بها قرناً وقرناً ... وآخر يومها لهلاك مالي
فأبدلني بها يا رب بغلاً ... يَزين جمال مركبه جمالي
كريماً حين ينسب والداه ... إلى كرم المناسب في البغال

وإنما عارض من أبو دلامة أبا خنيس ببغلته حيث قال:

أبْعدْتِ من بغلةٍ مؤاكلةٍ ... تَرْمَحُني تارة وتقمصُ بي
تكاد عند المسير تقطعني ... راكبُها راكبٌ على قَتَب(1)
إن قمت عند الإسراج أثفرها ... تطرف مني العينين بالذنب(2)
وعند شد الحزام تنهشني ... مانعة للجام واللبب(3)
ليس لها سيرة سوى الوثبى ... كرقص زنجٍ ينزون للطرب
قد أكلت كلَّ ما اشتريت لها ... من رزق شعبان أمس في رجب(5)
تمرُّ فيما نما لعلفتها ... إن لم تعلل بالشوك والقصب

وإنما هجاها بكثرة الأكل، فقدمها على كل معتلف بسوء الرأي فيها وبإفراط الشعراء وزياداتهم؛ وإنما الأكل الشديد في البراذين، والرَّمَك، ثم التي معها أفلاؤها»(6).

= الأكتاف: لقب ملك من ملوك الفرس وهو سايور الثاني.

(1) أي كالراكب على القتب: وهو إكاف البعير يكون على قدر سنامه: أراد خشونة مركبها.

(2) أثفر الدابة: جعل لها ثَفَراً وهو بالتحريك: السير في مؤخر السرج.

(3) اللبب: ما يشد على صدر الدابة أو الناقة يكون لسرج أو الرحل يمنعها من الاستئخار.

(4) الحَرَب بالتحريك: النهب والسلب.

(5) نما ينمو: زاد.

(6) رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون، الجزء الثاني ص ٣٣٢ - ٣٤٠.

الفصل الرابع

في

النقذ التطبيقي
عند الجاحظ
أو
كيف طبق الجاحظ شروط
الراوية على نفسه؟

سنرى في هذا الفصل كيف طبق الجاحظ شروط الراوية التي اقترحها على نفسه في بداية هذا البحث[1].

وسيظهر لنا أن أبا عثمان قد طبق الشروط التي وضعها للراوية وزاد عليها شرطاً خص به نفسه، وسنبدأ به هذا البحث الذي سنرى به نظرية الجاحظ في النقد من خلال الأمثلة التطبيقية التي عثرت عليها فيما وصلني من كتب عمرو بن بحر ومن رسائله التي تيسر لي الإطلاع عليها.

وأول هذه الشروط التي يندر أن تجتمع عند العلماء إلا العظماء منهم هو شرط:

"١ - **التواضع**: والبعد عن الغرور، والإحساس الصادق بأن العالم الراوية ما يزال بحاجة إلى المزيد من المعلومات، والاطلاع. وهكذا يندفع إلى متابعة البحث وملاحقة ما يجد من قضايا العلم والفكر ضمن اختصاصه، حتى يجد لذة في متابعة ما يعسر عليه فهمه وحله، ولا يتكبر عندما يجد نفسه بحاجة إلى عامل بسيط في مهنة بسيطة كالحدادة، فيذهب الجاحظ بنفسه إلى أحد الصياقلة يستفهم منه عن معنى بيت من الشعر أشكل عليه فهمه، ولطالما ذهب إلى البحارة، وصيادي الأسماك والباعة من مختلف الأصناف يستقصي عن أسرار المهنة أو يسأل عن معلومات بدت له هامة عند هؤلاء لأنه

---

(١) راجع كلا منا على شروط الرواية كما يراها الجاحظ في الفصل الثاني من الباب الأول.

عالم نزل من برجه العاجي، وذهب إلى ميدان البحث العلمي بين الناس، بل سافر في أنحاء العالم الإسلامي المعاصر له، وطاف في أرجائه، **ودوّن ما توصل إليه من معلومات رآها بنفسه أو سمعها من علماء تلك الأمصار،** هكذا فلتكن أخلاق العلماء، وإلا فلا.

«وأنشدني يحيى الأغر:

كضربِ القيونِ[1] سبيكَ الحديدِ يومَ الجنائب ضرباً[2] وكيدا[3]

فلم أعرفه؛ فسألت بعض الصياقلة. فقال: نعم هذا بيِّنٌ معروف؛ إذا أخرجنا الحديدة من الكير في يوم شمال [4]، واحتاجت في القطع إلى مائة ضربة، احتاجت في قطعها يوم الجنوب إلى أكثر من ذلك، وإلى أشد من ذلك الضرب؛ **لأن الشمال يُيبس، ويقصف والجنوب يرطب، ويلدن**»[5].

وعالم عظيم مثل الجاحظ يختلط بالناس من جميع الطبقات ويراقب كل المهنيين، ويدقق في تصرفات أبناء مجتمعه لا بد أن تكون حصيلة خبراته في الحياة العملية عظيمة جداً، وسيستعين بها في فهم ما يعترضه من مسائل علمية، بل وسيدافع من خلال هذه المعلومات الغنية من تجاربه اليومية عن وجهات نظره، فهو مثلاً عندما اصطدم بالزنادقة ينعون على المسلمين بعض الآيات المشكلة في القرآن الكريم، وهم يستندون إلى شعر بشر بن أبي خازم حيث ورد فيه ذكر للكوكب المنقض، وادعوا بأن كتب اليونان والقدماء تشير إلى مثل هذا المعنى، كان دفاع الجاحظ إن ما وصلنا عن طريق المترجمين لا يمكن الركون إليه في أمور الدين لأن معرفتهم باللغات الأجنبية من يونانية وسريانية أو هندية أو فارسية لا تسمح لهم بالنقل الصادق الأمين،

---

(١) القيون: جمع قَيْن بالفتح: وهو الحداد
(٢) الجنائب: جمع جنوب: وهي الريح التي تقابل الشمال.
(٣) الوكيد: الشديد الصائب.
(٤) أي في يوم ريحه شمال.
(٥) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ٤٠٧.

إضافة إلى جهل النساخ وزياداتهم، وجهل بعضهم بتأويل الكلام، وكل هذا الدفاع جاء به أبو عثمان من خلال اختلاطه بالمترجمين ومناظراته لهم، والاحتكاك اليومي بهم سواء أكان ذلك في مدينة البصرة أو مجالس الخلفاء وعظماء زمانه.

وزعمتم أنكم وجدتم ذكر الشهب في كتب القدماء من الفلاسفة، وأنه في الآثار العلوية لأرسطاطاليس حين ذكر القول في الشهب، مع القول في الكواكب ذوات الذوائب، ومع القول في القوس، والطوق الذي يكون حول القمر بالليل، **فإن كنتم بمثل هذا تستعينون، وإليه تفزعون فإنا نوجدكم من كذب التراجمة، وزياداتهم، ومن فساد الكِتاب من جهة تأويل الكلام، ومن جهة جهل المترجم بنقل لغة إلى لغة، ومن جهة فساد النسخ، ومن أنه تقادم فاعترضت دونه الدهور، والأحقاب، فصار لا يؤمن عليه ضروب التبديل والفساد، وهذا الكلام معروف صحيح**»[1].

وهكذا أتاحت فضيلة التواضع لأبي عثمان أن يستفيد من خبراته اليومية في الحياة لحل بعض المسائل العلمية التي واجهته.

"٢ ـ **الإنصاف**: وهو الصفة الثانية أو الفضيلة الثانية التي لا بد منها للنقد وأهله حتى يأخذ النقد دوره في خدمة الأدب وتوجيه الذوق العام نحو الحق والتقدم وتنبيه الأدباء والجماهير إلى مواطن الخير، والدعوة إلى التمسك بالحق والخير، والدفاع عن شرف الكلمة، وقد سقت بعض الأمثلة عن إنصاف الجاحظ لمعاصريه من الأدباء والشعراء، وكذلك صدقه في تطبيق هذا المبدأ على نفسه في قضايا أدبية خطيرة مثل قضية المعاصرة والتراث وغيرها مما مر معنا خلال هذا البحث[2].

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٢٨٠

(٢) راجع شروط الرواية ففيها المزيد من التفصيل حول شرط الإنصاف في الفصل الثاني من الباب الأول. وفي الفصل الثالث من الباب الأول تفصيل موقف الجاحظ من التراث =

ونحن هنا لن نعيد ما تكلمنا عليه، ولكننا سنكتفي ببعض الأمثلة الإضافية التي تؤكد قناعتنا بصدق الرجل مع نفسه أولاً ومع الناس ثانياً، ومن هنا جاءت فضيلة الإنصاف التي مثلها عمرو بن بحر خير تمثيل في الغالب فنحن مثلاً نعرف رأيه بالمعلمين، ونعلمُ أنه ألف رسالة في السخرية من حماقات بعضهم ولكن هذا لم يمنع أبا عثمان من رواية بيتين من الشعر لمعلم اسمه «أبو عدنان» رأى عمرو بن بحر فيهما من الحكمة ما دفعه إلى اختيارهما من بين ما اختار ليصنفه في كتابه «الحيوان» وصرح بإعجابه بهذين البيتين، وعدهما من أعاجيب الدنيا، فهو قد نظر إلى الشعر بغض النظر عن صاحبه، وموقفه منه، لقد أنصف الشاعر المعلم التعس المغلوب على أمره منذ القديم وحتى هذه الأيام واعترف له بالفضل، وأثنى عليه من أجل بيتين من الشعر حازا على إعجاب أبي عثمان.

«ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان(١):

فما كلبةٌ سوداء تفري بنابها ... عِراقاً من الموتى مِراراً وتكدِمُ
أتيح لها كلبٌ فَضَنَّتْ بعَرْقها ... فهارشَها وهي على العَرْق تعذم(٢)

فقف على هذا الشعر؛ فإنه من أعاجيب الدنيا»(٣).

ومثال آخر لا يقل عما سبقه دلالة على إنصاف أبي عثمان، وهو موقفه من شاعر معاصر له كان معروفاً بالجنون، ومع هذا اعترف له أبو عثمان بالشاعرية وذهب به الإعجاب إلى حد التصريح بأن أبا حية النميري من أشعر

= والمعاصرة وكلها إنصاف من أبي عثمان للأدباء في كل العصور، ومن مختلف الأجناس والعقائد.

(١) أبو عدنان: قال الجاحظ في شأنه: «وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم، ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا البيان جـ ١: ١٧٥.

وقد عده ابن النديم ممن صنف في غريب الحديث. الفهرست ٨٧ ليبك. ومصر ١٢٩.

(٢) تعذم: تعض أو تأكل بجفاء.

(٣) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

الناس، وروى له بعض ما استجـاده من شعره.

«**وأما أبو حية النميري**[1]**، فإنه كان أجن من جعيفران وكان من أشعر الناس،** وهو الذي يقول:

ألا حي أطـلال الـرسـوم البـواليـا   لبسن البلى ممـا لبسْنَ الليـاليـا

وفي هذه القصيدة يقول:

إذا مـا تقـاضى المـرءَ يـومٌ وليلةٌ   تقـاضـاه شيْءٌ لا يمـلُّ التقـاضيـا

وهو الذي يقول:

فألقتْ قناعـاً دونه الشمسُ واتقت   بأحسن موصولين كفٍ ومعصمِ»[2]

وهكذا يكون عمرو بن بحر خير مثال للمؤمن الصحيح الصادق الإيمان الذي وصفه نبينا محمد ﷺ بقوله: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها أخذها»[3]. صدق رسول الله، ونفعنا الله بهداه.

وذهب به الإنصاف والإخلاص لذوقه الفني أن يستجيد كلاماً عامياً لجارية ويحكم لجحشويه بالبلاغة والتقديم على كبير خطباء العرب في الجاهلية قيس بن خارجة بن سنان.

«وزعم[4] أيضاً أن سياراً البرقي. قال: مرت بنا جارية، فرأينا فيها الكِبْر والتجبر، فقال بعضنا: ينبغي أن يكون مولى هذه الجارية ينيكها!.

قالت: كما يكون!.

فلم أسمع بكلمة عامية أشنع ولا أدل على ما أرادت ولا أقصر من كلمتها هذه.

---

(١) هو أبو حية الهيثم بن الربيع النميري البصري، كان شاعراً مجيداً مقدماً في شعراء الدولتين الأموية والعباسية وكان فصيحاً يجيد القصيد والرجز، وكان مع هذا أهوج جباناً بخيلاً كذاباً، عرف بذلك أجمع...

(٢) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف جـ ١ ص ٤٩١.

(٤) الضمير يعود على أبي الحسن المدائني.

وقال جحشويه في شعر شبيبه بهذا القول حيث يقول:

تواعدني لتنكحني ثلاثاً ولكن يا مشوم بأي أير

فلو خُطبت في صفة أيـر خطبةٌ أطول من خطبة قيس بن خارجة بن سنان في شأن الحَمالة[1] لما بلغ قول جحشويه: «ولكن يا مشوم بأي أيــر» وقول الخادم: «كما يكون»[2].

وفضيلة الإنصاف هذه دفعت بعمرو بن بحر إلى تسجيل ما رأى من إنصاف الآخرين لمعاصريهم من الشعراء أو لأعدائهم في العقيدة.

فهو مثلاً يجب يعجب بإنصاف الكميت الشاعر الشيعي لشاعر الخوارج الطرماح ويسجل للكميت هذه النظرة المنصفة معجباً به.

«قال محمد بن سهل راوية الكميت، أنشدتُ الكميت قول الطرماح:

إذا قُبِضتْ نفسُ الطرماحِ أخلقتْ عُرَى المجدِ واسترخى عنانُ القصائدِ

فقال الكميت: إيْ والله وعنان الخطابة والرواية»[3].

وكان الجاحظ يستنكر موقف علماء اللغة من شعر المولدين، ولكنه عندما رأى الأصمعي ينصف الرماح سجل له هذه الوقفة المخلصة، وأعجب بهذا الموقف النبيل.

«وقال الرماح بن ميادة ـ وكان الأصمعي يقول: ختم الشعر بالرماح ـ وأظن النابغة أحد عمومته:

ألا ربَّ خمارٍ طرقتُ بسُدفةٍ من الليلِ مرتاداً لندماني الخمرا

فانهلته خمراً وأحلف أنها طِلاءٌ حلالٌ كي يحملني الوزرا»[4]

---

(١) الحَمالة بالفتح: الدية والغرامة يحملها قوم عن قوم. ويعني الجاحظ حمالة داحس والغبراء. قال في البيان (١: ٩٢) «فخطب يوماً إلى الليل، فما أعاد كلمة ولا معنى» وقد نوه الجاحظ مرة أخرى بخطابة قيس بن خارجة، وذكر أن له خطبة تسمى العذراء.

(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٢٦١.

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٦٨.

(٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٠٨.

كما سجل للخليفة المنصور إعجابه بشعر عمر بن أبي ربيعة رغم الخلاف الواسع بين الشخصيتين، فدفع هذا الموقف النبيل أبا عثمان لتسجيل هذا الموقف العادل لأبي جعفر المنصور.

«ويحكى أن المنصور كان يعجبه النصف الأخير من البيت الثاني جداً، ويتمثل به كثيراً، حتى انتقده بعض من قضى به عليه أن المعنى قدَّمه دهراً، وكان استحسانه عن فضل معرفته بإحقاقه فيه وصواب قوله:

وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفةٍ ورَيَّانُ ملتفُّ الحدائق أخضرُ
ووالٍ كفاها كل شيء يهمها **فليست لشيء آخر الدهر[1] تسهر»[2]**

وكما سجل الجاحظ بعض المواقف المنصفة لعظماء عصره سجل بعض المواقف الأخرى التي قامت على المحاباة، والمدارة للأنصار وتقديمهم أكثر مما يستحقون لضمان استمرار ولائهم المذهبي والفكري على حساب الحق، والأدب ما دامت مصلحة الطائفة تقضي بهذا، فلا يهم قول الحق، ولا يجوز بناء على مصالحهم الخاصة تقديم النصيحة للمغرر به من الأنصار المتطرفين في اندفاعهم وحماستهم الهوجاء.

«وقال إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب لأبيه:

ما شعر كثير[3] عندي كما يصفه الناس!؟ فقال له أبوه: إنك لن تضع كثيراً بهذا، إنما تضع بهذا نفسك»[4].

وهنا لا يفوتنا إعجاب عمرو بن بحر بقوة الشخصية والشجاعة في

---

(١) آخر الدهر: مدة الحياة.

(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٥ ص ٥٩٦.

(٣) هو كثير بن عبد الرحمن صاحب عزة، شاعر غزل مجيد من شعراء الدولة الأموية، وهو أجود أهل الحجاز شعراً، وله في صاحبته عزة أشعار كثيرة في غاية الإحسان وكان كثير يتشيع. وكان بعد ذلك في شعراء عبد الملك بن مروان وأولاده مات عام ١٠٥ هـ - ٧٢٣ م.

(٤) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٢٣.

مواجهة الموت التي نقلها أبو عثمان عن بعض الشعراء الرجال الذين نقل لنا مواقفهم الصامدة في تحدي الموت، ورباطة الجأش في أشد اللحظات صعوبة، وأكثرها ظلاماً، فأحب أن ينصفهم، ويخلدهم من خلال هذا الموقف البطولي فسجل لنا إعجابه بعبد يغوث بن وقاص الحارثي.

«وقال عبد يغوب بن وقاص الحارثي[1]:

ألا لا تلوماني كفى اللومَ ما بيا ... فما لكما في اللومِ خيرٌ ولا ليا
ألم تعلما أن الملامة نفعُها ... قليلٌ وما لومي أخي من شماليا[2]
فيا راكباً إما عرضت[3] فبلغا ... نداماي من نجران أن لا تلاقيا
أبا كَربٍ[4] والأيهمين[5] كليهما ... وقيساً[6] بأعلى حضرموت اليمانيا
جزى اللّهُ قومي بالكُلاب[7] ملامةً ... صريحُهم والآخرين المواليا
أقول وقد شدوا لساني بنسعةٍ[8] ... أمعشر تيمٍ أطلقوا من لسانيا
وتضحك مني شيخة عبشمية[9] ... كأن لم تر قبلي أسيراً يمانيا

قال أبو عثمان: وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث!

وذلك أنا إذا قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما، لم

---

(١) عبد يغوث سيد بني الحارث، وفارسهم، وقائدهم في يوم الكلاب الثاني وفيه أسر وقتل. وكان من الشعراء الأمجاد، ولما أسره بنو تيم، قال لهم: يا بني تيم، اقتلوني قتلة كريمة. اسقوني الخمر ودعوني أنح على نفسي فسقوه الخمر، وقطعوا له عرقاً فجعل يشرب والدم ينزف، وهو يقول: «ألا لا تلوماني . . .».

(٢) شمالي: طباعي.

(٣) عرضت: أتيت عروض مكة والمدينة.

(٤) أبو كرب: يريد به بشر بن علقمة بن الحارث.

(٥) الأيهمان: هما: الأسود بن علقمة بن الحارث، وعبد المسيح ابن الأبيض، ويلقب بالعاقب.

(٦) وقيس: هو ابن معدي كرب، والد الأشعث بن قيس.

(٧) يريد يوم الكلاب الثاني الذي أسر فيه الشاعر.

(٨) النسعة: السير من الجلد.

(٩) عبشمية: نسبة إلى عبد شمس وهي أم الآسر له.

يكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية»(١).

وللسبب نفسه أعجب عمرو بن بحر بشجاعة الشاعر الرجل هدبة بن خشرم كما أعجب بشعره.

«قال هدبة بن خشرم(٢):

فأَبْ بي إلى خيرٍ فقد فاتني الصِّبا ... وصِيحَ بريعان الشباب فنفَّرا
أمورٌ وألوانٌ وحال تقلبتْ ... بنا وزمانٌ عُرْفُه قد تنكرا
أصبنا بما لو أن سلمى(٣) أصابه ... لسهّل من أركانه ما توعرا
فإن ننجُ من أهوال ما خاف قومنا ... علينا فإن الله ما شاء يسَّرا
وإن غالنا دهرٌ فقد غال قبلنا ... ملوك بني نصرٍ(٤) وكسرى وقيصرا
وذي نَيْربٍ(٥) قد عابني لينالني ... فأعيا مداه عن مداي فقصَّرا
فإن يكُ دهرٌ نالني فأصابني ... بريبٍ فإن تُشْوي(٦) الحوادثُ معشرا
فلستُ إذا الضراء نابت بجُبَّأ ... ولا جزعٍ إن كان دهرٌ تغيرا

وكان هدبة هذا من شياطين عذرة. وهذا شعره كما ترى، وقد أُمِرَ بضرب عنقه، وشد خناقه. وقليلاً ما ترى مثل هذا الشعر عند مثل هذه الحال، وإن امرأً مجتمع القلب صحيح الفكر، كثير الزبن(٧)، غَضْب

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) هو هدبة بن خشرم، شاعر فصيح من باديةالحجاز، وكان راوية للحطيئة هو وإخوته حوط، وسبحان، والواسع وأمه حية بنت أبي بكر بن أبي حية، شعراء جميعاً. وكان بينه وبين زيادة بن زياد مناقضات، ومهاداة بالأشعار انتهت بقتل هدبة لزياد. الأغاني ٢١ : ١٦٩ - ١٧٣.

(٣) سلمى أحد جبلي طيْء، وهما: أجأ وسلمى.

(٤) في العمدة (٢ : ١٧٨) عند ذكر عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي أحد ملوك الحيرة، ويقال. إن نصراً هذا هو الساطرون، صاحب الحضر وهو جرمقاني من أهل الموصل، وقيل هو من أشلاء قنص بن معد بن عدنان.

(٥) النّيْرب بالفتح: الشر والنميمة.

(٦) تشوي: تخطىء ولا تصيب

(٧) الزبن: الدفع.

اللسان، في مثل هذه الحال لناهيك به مطلقاً غير موثوق، وادعاً غير خائف، ونعوذ بالله من امتحان الأخيار.

وهو القائل في تلك الحال:

فلا تعذليني لا أرى الدهرَ مُعْتِباً   إذا ما مضى يومٌ ولا اللومُ مُرْجعا
ولكنْ أرى أن الفتى عرضة الردى   ولاقى المنايا مُصْعداً ومفرِّعا[1]
وإن التُّقى خيرُ المتاع وإنما   نصيبُ الفتى من ماله ما تمتعا
فلا تنكحي إن فرَّق الدهر بيننا   أغمَّ القفا والوجه ليس بأنزعا
ضروباً للحييه على عظم زوره   إذا القوم هشوا للفعال تقنعا
وأخرى إذا ما زار بيتك زائر   زيالك يوماً كان كالدهر أجمعا
سأذكر من نفسي خلائق جمة   ومجداً قديماً طالما قد ترفعا
فلم أرَ مثلي كاوياً لدوائه   ولا قاطعاً عرقاً سَنوناً[2] وأخدعا
وما كنتُ ممن أرَّث الشرُّ بينهم   ولا حين جدَّ الشرُّ ممن تخشعا
وكنت أرى ذا الضغن ممن يكيدني   إذا ما رآني فاترَ الطرْفِ أخشعا

وما قرأت في الشعر كشعر عبد يغوث[3] بن صلاءة الحارثي، وطرفة ابن العبد، وهدبة هذا، فإن شعرهم في الخوف لا يقصّر عن شعرهم في الأمن وهذا قليلٌ جداً»[4].

وهكذا سجل عمرو بن بحر إعجابه بالفرزدق، ورد على مزاعم الكميت عندما حاول القول: إن من يقدر على الطوال فهو على القصار أقدر؛

---

(١) مفرِّعاً: هنا بمعنى منحدراً. والتفريع من الأضداد، يقال فرعت في الجبل: صعدت أو هبطت.

(٢) السَّنون بالفتح: وصف من سن الماء: أي أرسله من غير تفريق، فإذا فرقه بالصب، قيل: شن.

(٣) شعر عبد يغوث يعني القصيدة التي رواها الضبي في المفضليات (١: ١٥٤)، والأمالي ٣: ١٣٢. والأغاني ١٥: ٧٢ والنقائض ١٥٣. أما شعر طرقه، فلم أقف عليه.

(٤) الحيوان للجاحظ جـ ٧ ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

لأن أبا عثمان وجد أنه رأي فيه مغالطة وبعد عن الصواب عندما محص المسألة.

«وإن أحببت أن تروي من قصار القصائد شعراً لم يسمع بمثله، فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق؛ فإنك لم تر شاعراً قط يجمع التجويد في القصار والطوال غيره.

وقد قيل للكميت: إن الناس يزعمون أنك لا تقدر على القصار! **قال: من قال الطوال، فهو على القصار أقدر.**

هذا الكلام يخرج في ظاهر الرأي والظن، ولم نجد ذلك عند التحصيل على ما قال»[1].

والصحيح أن الجاحظ على الحق في هذه المسألة؛ فإن القدرة على تكثيف المعنى، وبلورته في أقل ما يمكن من الكلمات موهبة نادرة فلا يؤتى كل شاعر القدرة على الإيجاز والوضوح معاً.

ولذا ساق عمرو بن بحر الحديث الذي دار في مجلس الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ فأبدى فيه قسامة بن زهير إعجابه بشعر عمرو بن الأهتم ومن ثم أنصفه الجاحظ واعترف له بأنه من أبيناء العرب.

«فمن الشعراء الخطباء الأبيناء[2] الحكماء: قس بن ساعدة الإيادي، والخطباء كثير، والشعراء أكثر منهم.

ومن يجمع الخطابة والشعر قليل.

ومنهم عمرو بن الأهتم المنقري، وهو المكحَّل.

قالوا: كأن شعره في مجالس الملوك حللٌ منشرة.

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٩٨.

(٢) الأبيناء: هم الذين يحسنون الإبانة عما يخالج نفوسهم من الأغراض والمعاني، ويجيدون الإفصاح عن مستكنات ضمائرهم.

قيل لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: قيل للأوسية[1]: أي منظر أحسن؟ قالت: «قصور بيض، في حدائق خضر»، فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب، بيت عدي بن زيد العبادي[2].

كدمى العاجِ في المحاريب أو كالـ ـبيض في الروضِ زهرُه مستنِر

قال: فقال قسامة بن زهير: «كلام عمرو بن الأهتم آنق وشعره حسن».

هذا وقسامة أحد أبيناء العرب»[3].

"٣ ـ الطبيعة المواتية للأدب، ونعني بها الحسن الجمالي والقدرة على تذوق الأدب وتحسس جماله، وهذا التذوق للجمال، والذوق المرهف دفع بعمرو بن بحر للتسامح في اللحن مع الجميلات ما دمن محافظات على طراوة الشباب كما مر معنا سابقاً[4].

ولذا نراه يميل للتسامح مع الأدباء عامة والشعراء خاصة ما دامت الجمالية الفنية قد تحققت لديهم، فهو رحيم معهم عندما يرتكبون الضرورات من أجل صورة جميلة غنية بالجوانب الفنية، أو من أجل معنى شريف غريب استطاع الشاعر إبرازه في حلة بديعة قريباً من الفهم.

وقد نقلنا قوله من قبل:

«وقال الراجز في البديع المحمود:

---

(١) الأوسية: امرأة من الأوس.

(٢) هو عدي بن زيد العبادي، شاعر حضري جاهلي، كان كاتباً للنعمان بن المنذر وله معه أحداث وخطوب مات عام ٥٨٧ م.

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٤) انظر بالتفصيل موقف الجاحظ من الأدب والأخلاق في الفصل الأول من الباب الثالث من هذا البحث.

قد كنْتَ إذْ حبلُ صباك مُدْمَش[1] وإذْ أهاضيب[2] الشباب تبغش[3]»[4]

وعليه يكون عمرو بن بحر قد تسامح بإبدال حرف بحرف لمكان الروي في مقابل الصورة الفنية الغنية بالجوانب البديعة.

ولذا تسامح مع الشعراء عندما يستبدلون كلمة بكلمة على سبيل التوسع في اللغة لكن بشرط الحصول على معنى جميل.

«وكل بيضة في الأرض، فإن اسم الذي فيها، والذي يخرج منها فرخ، إلا بيض الدجاج، فإنه يسمى فروجاً، ولا يسمى فرخاً **إلا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخاً على التوسع في الكلام ويجوِّزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر.**

قال الشاعر:

لعمري لأصواتُ المكاكي بالضُّحى وسَوْدٌ[*] تداعى بالعشيِّ نواعبُه
أحبُّ إلينا من فراخ دجاجةٍ ومن ديك أنباطٍ تنوسُ غباغبُه

وقال الشماخ بن ضرار:

ألا مَنْ مبلغ خاقان عني تأمل حين يضربك الشتاءُ
فتجعل في جنابك من صغير ومن شيخ أضرَّ به الفناء
فراخ دجاجةٍ يتبعن ديكاً يلُذْنَ به إذا حَمِسَ الوعاء»[6]

ومن هنا كان متساهلاً مع الشعراء في الإقواء ما دامت الصورة جميلة والمعنى بديعاً.

---

(١) أدمج الحبل: أجاد فتله، وقوله: إذ حبل صباك مدمش: إنما أراد مدمج فأبدل الشين من الجيم لمكان الروي

(٢) الأهضوبة: الدفعة من المطر تحمع على أهاضيب

(٣) تبغش: تدفع ما بها من الماء. وقد كنى بقوله عن قوة الشباب ونعمته وريه.

(٤) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٥٧ ـ ٥٩.

(*) السَوْد. سفح مستوٍ كثير الحجارة السود

(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

«وقال عبد الله بن الحارث، وكتب بها إلى عبد الملك بن مروان حين فارق مصعباً:

بـأي بـلاءٍ أم بـأيـة عـلَّةٍ ... يقـدم قبلي مُسْلِمٌ والمهلبُ
ويدعى ابن منجوف أمامي كأنـه ... خصيٌّ دنا للماء من غير مشربِ

فقلت ليونس: أقوى! قال: الإقواء أحسن من هذا»[1].

ولأن أبا عبيدة يفتقر إلى موهبة الإحساس المرهف فقد رد عمرو بن بحر حكمه بتقديم امرىء القيس على أوس بن حجر؛ لأن أبا عثمان رأى أن أوساً قد أجاد التصوير وتقدم على امرىء القيس في وصف المَطر.

«وأنشد أبو عبيدة لامرىء القيس:

ديـمـة هـطلاء فيـهـا وطـفٌ ... طَبَقُ الأرضِ تحـرَّى وتُـدَرْ[2]
تخـرجُ الضبَّ إذا مـا أشجـذت ... وتـواريـه إذا مـا تـعتـكـرْ[3]
وتـرى الضب ذفيـفـاً مـاهـراً ... ثـانيـاً بـرثنـه مـا ينعفـرْ[4]

وكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة في الغيث، على قصيدة عبيد بن الأبرص، أو أوس بن حجر التي يقول فيها أحدهما:

دانٍ مُسِفٍ فـويقَ الأرضِ هيدبُـه ... يكـادُ يدفعُـه مَنْ قـام بـالـراحِ[5]
فمن بـنجـوتـه كـمن بـعقـوتـه ... والمستكنُّ كمن يمشي بقِـرواحِ[6]

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٤.

(٢) الدِيمة بالكسر: المطر الدائم يوماً وليلة. والهطلاء: المتتابعة المطر والوطف: استرخاء في جوانبها لكثرة الماء. طَبَقُ الأرض: بالتحريك: أي غشاء لها يعمها. تحرّى: تتوخى وتعمد. تدرّ: تصب.

(٣) أشجذت: سكن مطرها، وضعف. تعتكر: تشتد.

(٤) الذفيف: السريع الخفيف. الماهر: الحاذق بالسباحة، وصفه ببسطة كفه وضمها إليه كما يفعل السابح إذا بسط كفه ثم قبضها إليه... ولقوته لا تصيب له أصبع من الأرض فيعفر فيها. وقال أبو حنيفة: لا ينعفر: لا يبلغ الأرض لعظم السيل وكثرة المطر.

(٥) المُسِف: الذي قد أسف على الأرض: أي دنا منها. الهيدب: سحاب يقرب من الأرض كأنه متدل. الراح: جمع راحة. يقول: يكاد يمسكه من قام براحته.

(٦) النجوة: سند الوادي لا يعلوه السيل. القرواح: بالكسر: الأرض البارزة للشمس أو التي ليس يسترها من السماء بشيء يقول: لقد طم السيل النجود فاستوت بالعقوة.

وأنا أتعجب من هذا الحكم»[1].

وقد بلغ من تسامح الجاحظ مع الشعراء أن روى الشعر المزاوج؛ لأنه رأى فيه مخرجاً مما يعانيه الشعراء من صعوبة في إيجاد القافية والروي وتطويعهما ضمن القصيدة الواحدة للفكرة، وهذا التسامح جاء في سبيل الحصول على معنى جيد شريف أو صورة جميلة متنوعة الجوانب.

«وقال بشر بن المعتمر في شعره المزاوج:

يـا عجباً والـدهـر ذو **عجـائبِ**   من شـاهـدٍ وقلبـه **كـالـغـائب**
وحـاطب[2] يحطب في **بجـادِهِ**[3]   في ظلمـة الـليـل وفي **سـواده**
يحطبُ في بجاده الأيم الـذَّكَرْ[4]   والأسودُ السالخُ مكروه النظر»[5]

"٤ ـ **المعرفة الواسعة المتنوعة**، ومن لها غير الجاحظ موسوعة زمانه، ودائرة معارف القرن الهجري الثالث.

آ ـ **فقد اعتمد على العلوم التجريبية كعلم الحيوان**، «وقال الذي زعم أنها تسمع: فقد قال الله عز وجل: ﴿أولئك الذين لعنهم الله، فأصمهم، وأعمى أبصارهم﴾[6].

ولو عنى أن عماهم كعمى العُميان، وصممهم كصمم الصمان، لما قال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوبٍ أقفالها﴾[7]. وإنما ذلك كقوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى، ولا تسمع الصمَّ الدعاء إذاً ولوا مدبرين﴾[8].

---

(١) الحيوان ٦ ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٢) يحطب لحطب: يجمعه.
(٣) البيجاد بالكسر: الكساء.
(٤) الأيم الذكر: والأسود: الحيَّة.
(٥) الحيوان جـ ٤ ص ٢٣٩ وقد ذكر شعراً مزاوجاً لبشر بن المعتمر أيضاً ذكر فيه فضل علي على الخوارج في جـ ٦ ص ٤٥٥.
(٦) من سورة محمد الآية ٢٣.
(٧) سورة محمد الآية ٢٤.
(٨) من سورة الروم الآية ٥٢.

وكيف يسمع المدبر عنك!.

ولذلك يقال: «إن الحُبَّ يُعمي ويصمُّ».

وقد قال الهذلي:

تسمَّعَ بالنَّهْيِ النعامُ المشرّدُ[1]

والشادر النافر عنك، لا يوصف بالفهم. ولو قال: تسمَّعَ بالنهي وسكت كان أبلغ فيما يريد.

وهو كما قال الله تعالى: ﴿ولا تُسمِع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾[2].

وهكذا نجد أن النقد قد انصب على دراسة طبائع الحيوان وهو النعام حال شروده وتوحشه، ويعرض أبو عثمان مثالاً آخر لغلط وقع فيه الشاعر عندما توهم أن الفيل يشرب بخرطومه، والواقع أن عمل الخرطوم هو توصيل الماء إلى فمه، كما أخطأ الشاعر في تشبيه عزمول الفيل، والخطأ هنا يعود إلى عدم معرفة الشاعر بحقائق وظائف الأعضاء لدى الفيل، فصحح له أبو عثمان الخطأ، ولم ينسب الخطأ إلى الشعر.

«ونظر ابن شهلة المديني إلى خرطوم الفيل، وإلى عزموله فقال:

ولم أر خرطومين في جسمٍ واحدٍ   قد اعتدلا في مشربٍ ومبال

فقد غلط؛ لأن الفيل لا يشرب بخرطومه، ولكن به يوصل الماء إلى فمه. فشبه غرموله بالخرطوم، وغرموله يشبه بالجعبة، والقنديل والبربخ»[3].

ونجد لدى عمرو بن بحر مثالاً ثالثاً عاد لنقده من الناحية العلمية وخصوصاً علم وظائف الأعضاء لدى الحيوان.

---

(١) تسمَّعَ: أي أصغى ليسمع. والنعام المشرد لا يصغي إلا ريثما يشرد وذلك لنفوره وتوحشه.
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٨٦. من سورة الروم الآية ٥٢
(٣) المصدر السابق جـ ٧ ص ١٧٤.

«وقال بعض الشعراء يهجو حارثة بن بدر الغداني[1]:

زعمت غدانة أن فيها سيداً ... ضخماً يواريه[2] جناح الجندب

وزعم ناس أنه قال:

يرويه ما يروي الذبابَ فينتشي ... سكراً وتشبعه كراعُ[3] الأرنب

قالوا: لا يجوز أن يقول: يرويه ما يروي الذباب، ويواريه جناح الجندب، ثم يقول: ويشبعه كراع الأرنب. وإنما ذكر كُراع الأرنب؛ لأن يد الأرنب قصيرة، ولذلك تسرع في الصعود، ولا يلحقها من الكلاب إلا كل قصير اليد. وذلك محمود من الكلب. والفرس توصف بقصر الذراع»[4].

ب ـ العلوم الإنسانية: وقد تعرف الجاحظ إلى دقائقها واطلع على تراث هذه العلوم الإنسانية التي ترجمت إلى العربية، فطالعها في دكاكين الوراقين ووعى ما نقل عن اليونانية، والهندية، والفارسية أو السريانية، فقد عاش أبو عثمان أيام الخلفاء العظماء خلفاء العصر الذهبي العباسي حيث كان المترجم ينال من الخليفة ما يوازي ثقل وزن كتابه من الذهب. وعندما كان من ضمن شروط الصلح أيامها أن يرسل ملك الروم خزينة الكتب اليونانية التي كانت بقبرص إلى خليفة بغداد ولا شك أن كتب الحكمة الأرسطية كانت في مقدمتها مع غيرها من كتب العلوم والمعارف.

«وقد نُقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونان، وحوّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً. . . .

وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان

---

(١) غُدانة بالضم: اسم قبيلة.

(٢) يواريه: يستره.

(٣) الكُراع بالضم: قائمة الدابة، وتجمع على أكرع، ثم على أكارع، وهي مؤنثة، يصح في فعلها التذكر والتأنيث.

(٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها، ونظر فيها...»[1].

ولذا سنرى آثار هذه المعرفة الواسعة من خلال اعتماد عمرو بن بحر على معلوماته في:

"١ - التاريخ والجغرافيا: وبهما يستعين على كشف توليد الرواة وبيان أكاذيبهم.

«وفي منحول شعر النابغة:

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوحٌ لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه، وإنما ذلك كقولهم: كان داود لا يخون وكذلك كان موسى لا يخون عليهم السلام.

وهم وإن لم يكونوا في حالٍ من الحالات أصحاب خيانة، ولا تجوز عليهم، فإن الناس، **إنما يضربون المثل بالشيء النادر من أفعال الرجال، ومن سائر أمورهم، كما قالوا: عيسى بن مريم روح الله، وموسى كليم الله، وإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.**

ولو ذكر ذاكر الصبر على البلاء، فقال: **كذلك كان أيوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً.**

ولو قال: كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها»[2].

فقد عاد عمرو بن بحر هنا إلى سير الأنبياء عليهم السلام واستعان بالقياس على عادة الناس في عصره عندما يضربون المثل بما ندر من أفعال الرجال، وهي معرفة بأمور المجتمع ما خفي منها، وما ظهر كان الجاحظ قد

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٧٥.

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

حصّلها من خلال الاختلاط بكل طبقات الشعب، وتنقيبه عن الحقيقة أينما وجدها.

وهكذا استعان بمعلوماته في الجغرافيا والتاريخ لتوثيق شعر طفيل الغنوي وللتأكيد على صحة خبر حملة الفيل على مكة.

«وقال أيضاً صيفي بن عامر، وهو أبو قيس بن الأسلت، **وهو رجل يمان من أهل يثرب، وليس بمكي ولا تهام[1]، ولا قرشي ولا حليف قرشي، وهو جاهلي:**

قوموا فصلوا[2] ربكم وتعوّذوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشبِ[3]
فعندكمُ منه بلاءٌ مصدقٌ ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائبِ
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم ... جنود الإلَه بين سافٍ وحاصبِ
فولوا سراعاً نادمين ولم يؤب ... إلى أهله مِلْحبشِ غيرُ عصائبِ

ويدل على صحة هذا الخبر قول طفيل الغنوي، وهو جاهلي وهذه الأشعار صحيحة معروفة لا يرتاب بها أحد من الرواة، وإنما قال ذلك طفيل؛ لأن غنياً كانت تنزل تهامة فأخرجتها كنانة فيمن أخرجت، فهو قوله:

ترعى مذانب[4] وسمي أطاع له ... بالجزع حيثُ عصى أصحابه الفيلُ»[5]

ولا ينسى أبو عثمان الرواة وتوليدهم ودسهم للأخبار لغاية في نفس يعقوب، وقد مر معنا الكلام بالتفصيل على نظرة الجاحظ لهم ووضعه النقاط على الحروف فيما يخص هذه الشعوبية الثقافية[6].

وهو يواجه شعر بشر بن أبي خازم بكثير من الحيطة والحذر لأن الرواة

---

(1) تهامٍ: نسبة إلى تِهامة بالكسر.
(2) الصلاة هنا: بمعنى الدعاء.
(3) الأخاشب: أراد بهما الأخشبين: وهما جبلا مكة أبو قبيس والأحمر.
(4) مذانب: جمع مذنب، وهو مسيل ما بين كل تلعتين. الديوان ص ٣٠.
(5) المصدر السابق جـ٧ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠.
(6) راجع بالتفصيل الفصل الثاني من الباب الأول من بحثنا هذا.

اتخذوه مطية للطعن بالنبوة والرسالة معاً، فوقف لهم أبو عثمان بالمرصاد.

«فأما قوله:

فـانقض كـالـدري من متحـدِّر لمعَ العقيقـةِ جُنَح ليـلٍ مـظلمِ

فخبرني أبو إسحٰق أن هذا البيت في أبيات أخرى كان أسامة صاحب رُوْح بن أبي همام هو الذي ولَّدها.

فإن اتهمت خبر أبي إسحٰق فسمِّ الشاعر، وهات القصيدة فإنه لا يقبل في مثل هذا إلا بيت صحيح، صحيح الجوهر من قصيدة صحيحة لشاعر معروف. وإلا فإن كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيتٍ منها أجود من هذا البيت:

وأسامة هذا هو الذي قال له رُوْح:

اسـقـنـي يـا أسـامـة مـن رحـيـق مُـدامـة
اسـقـنـيـهـا فـإنـي كـافـرٌ بـالـقـيـامـة[1]

وهذا الشعر هو الذي قتله»[2].

ويعود مرة ثانية إلى شعر بشر بن أبي خازم.

«وقد طعنت الرواة في هذا الشعر الذي أضفتموه إلى بشر بن أبي خازم من قوله:

والعيـر يرهقهـا الحمـار وجحشهـا ينقض خلفهما انقضاض الكـوكب

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدوا الحمار بانقضاض الكوكب، ولا بدن الحمار ببدن الكوكب.

---

(١) البيتان من مجزوء الخفيف، عروضه وضربه مجزوءان، مقصوران مخبونان، وهذا الوزن مما استدرك به بعضهم لهذا البحر.

(٢) المصدر السابق جـ٦ ص ٢٧٨ ـ ٢٨١ مكرر

وقالوا: في شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتملته كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره.

فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها:

فـرّجي الخيـر وانتـظري إيـابي   إذا مـا الـقـارظُ الـعَـنَـزيُّ آبـا

وأما ما ذكرتم من شعر هذا الضبي، فإن الضبي مخضرم قال الضبي:

ينـالهـا مـهتـك أشـجـارهـا[1]   بـذي غـروبٍ[2] فيـه تحـريبُ[3]

كـأنـه حـين نـحـا[4] كـوكـبٌ   أو قـبسٌ بـالكـف مـشبـوبُ»[5]

وقد لاحق الجاحظ الكذابين من الرواة، والمدجلين من العلماء المضللين عندما حاولوا الزيادة في شعر الأفوه الأودي فأمسك بتلابيب كذبهم عندما ضبطهم متلبسين بالكذب إذ زعموا أنه تكلم بمعنى لم يكن معروفاً قبل بعثة النبي محمد ﷺ.

«وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي:

كشهـاب القـذف يـرميكم بـه   فـارس في كفـه للحـرب نـارُ

فلعمري إنه لجاهلي، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة.

وبعدُ فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم، وهو جاهلي، ولم يدَّع هذا أحدٌ قط إلا المسلمون؟!.

فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة»[6].

---

(1) الأشجار جمع شَجر بالفتح، وهو مفرج الفم أو ما انفتح من مطبق الفم.

(2) غروب الأسنان: مناقع ريقها، وقيل أطرافها وحدتها وماؤها.

(3) التحريب: التحديد.

(4) نحا: قصد.

(5) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

"٢ ـ **فقه اللغة العربية**: وهنا يظهر عمق اطلاع الجاحظ على أسرار العربية، ومعرفته للدقائق من أساليبها، ووعيه بالفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة في معانيها.

«إن الظباء والبقر كلها فُطْس خُنْس، وإذا سمَّوا امرأة خنساء، فليس الخَنَس، والفطس يريدون، بل كأنهم قالوا: مهاة، وظبية. ولذلك قال المسيَّب بن علس[1] في صفة الناقة:

صكاء ذِعلبةٍ[2] إذا استقبلتها   حَرَجٍ[3] إذا استديرتها هلواعِ[4]

فتفهم هذا البيت؛ فإنه قد أحسن فيه جداً.

والصك في الناس، والاصطكاك في رجلي الناقة عيب، فهو لم يكن ليصفها بما فيه عيب، ولكنه يفرق بين قوله: صكاء، وبين قوله: نعامة، وكذلك لا يفرقون بين قولهم أعلم، وبين قولهم بعير»[5].

كما نقرأ لعمرو بن بحرٍ قوله:

«وقال أبو العباس محمد بن ذؤيب الفقيمي، وهو الذي يقال له العُماني في بعض قصائده في عبد الملك بن صالح.

والعماني يعد ممن جمع الرجز والقصيد كعمر بن لجأ[6]، وجرير الخطفي وأبي النجم وغيرهم.

قال العماني:

---

(١) المسيَّب كمُعظَّم: إنما لقب به زهير بن علس حين أوعد بني عامر بن ذهل، فقالت له بنو عامر بن ضبيعة: قد سيبناك والقوم، وهو جاهلي لم يدرك الإسلام.

(٢) الذِعلِبة بكسر اللام والذال: الناقة السريعة.

(٣) الحَرَج: الناقة الجسيمة الطويلة.

(٤) الهلواع: ذات النزق والخفة؛ إذ أن جسامتها وطولها ونزقها إنما تبين عند الاستقبال.

(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٦) لجأ هو والد عمر. وأصل اللجأ المعقل والملاذ. فهو اسم مصروف. وليس مما أتى على وزن فُعَل.

ويَعْلَمُ قَولَ الحُكلِ لَو أن ذرَّةً   تساوِدُ أخرى لم يفته سِوادها

يقول: الذر الذي لا يُسمع لمناجاته صوت، لو كان بينها سِواد لفهمه، والسِّواد هو السِّرار[1].

قال النبي ﷺ لابن مسعود: «أذنَك حتى أُساوِدَك» أي تسمع سِوادي.

وقالت ابنة الخُس: «قرب الوساد، وطولُ السِّواد»[2].

قال أبو كبير الهذلي:

ساودت عنها الطالبين فلم أنم   حتى نظرتُ إلى السِّماكَ الأعزل[3]

وقال التيمي الشاعرُ المتكلم، وأنشد لنفسه، وهو يهجو ناساً من بني تغلب معروفين:

عُجْمٌ وحُكْلٌ لا تُبِينُ ودينُها   عبادةُ أعلاجٍ[4] عليها البرانسُ[5]

ففصل بين الحُكل، والعجم، فجعل العُجْم مثل ذوات الحافر والظلف، والخف. وجعل الحُكل كالذر، والنمل، والخنافس والأشكال التي ليست تصيح من أفواهها.

فقال لي يومئذٍ حَفْصُ الفَرْد[6]:

---

(١) السِواد والسِرار: بالكسر التحادث سراً.

(٢) قالت هذا حين سئلت: عمَّا حملك على أن زينت بعبدك». البيان ١: ٢١٢.

(٣) السماك الأعزل: منزلة من منازل القمر، وهو نجم يظهر مع الفجر.

(٤) الأعلاج: جمع عِلج بالكسر: وهو الرجل من كفار العجم.

(٥) البرانس: جمع برنس. وهو القلنسوة الطويلة، وكان النساك يلبسونها في صدر الإسلام. والبرنس أيضاً كل ثوب رأسه منه ملتزق به، دراعة كان أو ممطراً أوجبة. وفي حديث عمر: «سقط البرنس عن رأسي» هو من هذا.

(٦) من المجبرة، وكان من أهل مصر، قدم البصرة، فسمع بأبي الهذيل واجتمع معه وناظره، فقطعه أبو الهذيل. وله عدة تصانيف سردها ابن النديم في الفهرست ٢٥٥ مصر و ١٨ ليبسك.

أشهد أن الذي يقال فيه حقٌ؛ كان والله نصرانياً، ثم صار يخبر عن النصارى كما يخبر عن الأعراب»[1].

وفي مثال آخر نقرأ لأبي عثمان قوله:

«وقد قال الأول: «عليك بالأناة؛ فإنك على إيقاع ما أنت موقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته».

فقد أخطأ من قال:

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل[2]

بل لو قال: والمتأني يدرك حاجته أحق، والمستعجل يفوت حاجاته أخلق؛ لكان قد وفَّى المعنى حقه، وأعطى اللفظ حظه، وإن كان القول الأول موزوناً، والثاني منثوراً. ولولا أنه اشتق المستعجل من العجلة لما قرنه بالمتأني.

وينبغي أن يكون الذي غلطه قولهم: «رب عجلة تهب ريثاً» فجعل الكلام الذي خرج جواباً عندما يعرض السبب كالكلام الذي خرج ارتجالاً، وجعله صاحبه مثلاً عاماً.

فإذا سميت العمل عجلة وريثاً فاقض على الريث بكثرة الفوت، وبقدر ذلك من العجز، وعلى العجلة بقلة النُجح وبقدر ذلك من الخرق»[3].

هذا وللجاحظ نظرية متكاملة في فقه اللغة العربية أرجو أن يوفقني الله إلى صياغتها في فرصة قريبة.

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) هو الشاعر القطامي والبيت في ديوانه ص ٢. وبنوادر المخطوطات ١ ٠ ١٦٧. وانظر مجالس ثعلب ٤٣٧، والمحاسن للبيهقي.

(٣) رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون جـ ١ ص ٢٤٢.

"٣ - **معروفة الفروق في الأساليب**: وهذه تقتضي من الباحث أن يكون على علم بالرجل وعارف بنفسيته ومطلع على كتاباته وأقواله، إضافة إلى معرفة وافية بأساليب الكلام وفنون القول. حتى يستفيد الباحث من كل هذا في كشف الأساليب المزورة على غير علم من أصحابها ولغاية لا يعلمها إلا من وضعها. ·

«قال: وقالت هند[١]: «كنت - والله - في أيام شبابي أحسن من النار **الموقدة**».

وأنا أقول: **لم يكن بها حاجة إلى ذكر الموقدة. وكان قولها أحسن من النار يكفيها.**

وكذلك اتهمت هذه الرواية»[٢].

ويروي لنا مداعبة مع أحد معاصريه من الشعراء، وكيف لفت نظره إلى زيادة كلمة في بيت شعرٍ دون أن يكون المعنى بحاجة إليها اللهم إلا تكميل الوزن، وهذا عيب شائع لدى نظامي الشعر، إذ يعتمدون على الحشو لتكميل الوزن ليس إلا.

«أقبل أبو نواس، ومعه الحرامي[٣] الكاتب، وكان أطيب الخلق، وقد كانا قبل ذلك قد نظر إلى الفيلة فأبصر غرمول فيل منها، وعلم الحرامي أن غرمول الفيل يوصف بالجعبة فوصف لنا غرموله، وأنشدنا فيه شعراً لنفسه:

كأنه لما بدا للسفدِ ... جعبةُ تركيٍّ عليها لِبْدُ

قلنا له: **أقويت، واجتلبت ذكر اللبد من غير حاجة.**

قال: فإني قد قلت غير هذا. قلنا: فأنشدنا. قال:

(١) هي هند بنت الخس، وقد نعتها الجاحظ نعتاً عجيباً في البيان ١: ٢٠٥.

(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٥ ص ٩٥

(٣) الحرامي اسمه عبد الله بن كاسب، كاتب مؤنس، وكاتب داود بن أبي داود، وإن صحت نسبته إلى بني حرام: خطة بالبصرة كبيرة منها الحريري صاحب المقامات.

كـأنـه لـمـا دنـا لـلشـدِّ شـمعـةُ قَيْـل لُفِّفَتْ فـي لِبْـدِ

قلنا: فلا ترى لك بداً من اللِّبد على كل حال؟.

قال: قال أبو نواس: فإني أقول عنك بيتين. قال: فهاتهما، فقال:

كـأنـه لـمـا دنـا لـلوثـبـهْ أيـور أعـيـارٍ جُـمـعـنَ ضَـرْبَـهْ

قال الحرامي لأبي نواس: هبهما لي على أن لا تدعيهما فعسى أن أنتحلهما.

قلت له: وما ترجوا من هذا الضرب من الأشعار؟[1] قال قد رأيت غُرموله، فما عذري عند الفيل إن لم أقل فيه شيئاً»[2].

ونقرأ لأبي عثمان في موضع آخر نقداً يدل على مدى عمق معرفة الجاحظ بشخصيات الأدباء وأساليبهم.

«وتزعم بنو تميم أن صَبْرة بن شيمان قال في حرب مسعود والأحنف:

إن جئت حُتات جئت. وإن جاء الأحنفُ جئت وإن جاء جارية جئت، وإن جاء واجئنا، وإن لم يجيئوا لم نجيء!.

وهذا باطل، وقد سمعنا لصبرة كلاماً لا ينبغي أن يكون صاحب ذلك الكلام يقول هذا الكلام»[1].

وفي مثال آخر رد خطبة ولدها الهيثم بن عدي على لسان أعرابي، لأن الجاحظ تحسس بذوقه الأدبي المرهف، ومعرفته بطباع الأعراب وأساليبهم والأسلوب هو الرجل كما يقولون، فأحس برائحة الكذب تفوح بين سطورها.

«وذكروا عن عبد الملك بن عمير، عن رجل من بني عذرة قال: خرجت زائراً لأخوالي بهجر، فإذا هم في بَرْثٍ أحمر، بأقصى حجر، في طلوع القمر.

---

(١) المصدر السابق جـ٧ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ٢ ص ٢٦٦.

فذكروا أن أتاناً تعتاد نخلة، فترفع يدها، وتعطوا بفيها وتأخذ الدُلقان والمُنْسبتة، والمنصفة والمَعْوَة.

فتنكبت قوسي، وتقلدت جفيري. فإذا هي قد أقبلت، فرميتها، فحزت لفيها، فأدركت فعوَّرت سرتها ومعدتها، فقدحت ناري، وجمعت حطبي، ثم دفنتها. ثم أدركني ما يدرك الشباب من النوم، فما استيقظت إلا بحرِّ الشمس في ظهري، ثم كشفت عنها، فإذا لها غطيط من الودَك، كتداعي طيء، وغطيف غطفان ثم قمت إلى الرُطب ـ وقد ضربه برد السحر ـ فجنيت المَعْوَة والحُلقان، فجعلت أضع الشحمة بين الرطبتين والرطبة بين الشحمتين، فأظن الشحمة سمنة ثم سلاء، وأحسبها من حلاوتها شُهدة أحدرها من الطود.

وأنا أتهم هذا الحديث؛ لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربي، يعرف مذاهب العرب وهو من أحاديث الهيثم»(١).

ولقد بلغ من معرفة أبي عثمان بمذاهب العرب وطباعهم وأساليبهم مبلغ التفريق بين أسلوب الشاعر، وأسلوب ابنه، وهما قريبان متشابهان بطبيعة الحال، هل بعد هذا من ذوق مرهف وحساسية تلتقط أدق درجات الاختلاف وتسجلها ونقف عندها، إن هذه الموهبة التي أوليتها عمرو بن بحر أقرب ما تكون إلى عداد كهربي حساس يقيس التيارات الكهربية المتناهية في الضعف والخفاء. تلكم هي الألمعية.

«وأما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر:

فانقض كالدري يتبعه ... نقع يثورُ تخاله طُنُبا

وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر، وشريح بن أوس»(٢).

---

(١) البخلاء للجاحظ ـ تحقيق طه الحاجري ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) الحيوان جـ ٦ ص ٢٧٨ ـ ٢٨١.

واعتماداً على هذه الحساسية المتناهية في الدقة، ومعرفته بنفوس الرجال، وتقديره لشخصيات الناس وانطباقها على أساليبهم، فقد رد خطبة نسبت لمعاوية، وأعادها إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

«قالوا[١]: لما حضرت معاوية الوفاة، قال له: من بالباب؟ قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك! فقال: ويحك؟! ولم؟ قال: لا أدري! قال: فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يسوؤهم.

وأذن للناس، فدخلوا، فحمد الله، وأثنى عليه، وأوجز ثم قال[٢]:

أيها الناسُ، إنا قد أصبحنا في دهر عنود[٣]، وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئاً، ويزداد فيه الظالم عُتوّاً، لا ننتفع بما علمنا، ولا تسأل عما جهلنا، ولا نتخوف قارعة[٤] حتى تحل بنا. فالناس على أربعة أصناف:

منهم من لا يمنعه الفسادَ في الأرض إلى مهانةُ نفسه، وكلالة حده، ونضيض وفره[٥].

ومنهم المُصلتُ لسيفه، المُجلب بخيله، ورَجْله[٦] والمعلن بشره قد أشرط نفسه[٧]، وأوبق دينه[٨]، لحُطام ينتهزه[٩]، أو مقنب[١٠] يقوده، أو منبر يفرعه[١١]، ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، ولمالك عند الله عوضاً.

---

(١) قال الجاحظ: رواها شعيب بن صفوان، وزاد فيها اليقطري ـ وغيره ـ.
(٢) روى الشريف الرضي هذه الخطبة لعلي بن أبي طالب، وهي به أشبه.
(٣) عنود: جائر.
(٤) القارعة: الخطب الذي يقرع أي يصيب.
(٥) نضيض وفره: أي قلة ماله.
(٦) الرَّجل جمع راجل: كالرْكب جمع راكب.
(٧) أشرط نفسه: هيأها، وأعدها للفساد في الأرض.
(٨) أوبق دينه: أهلكه.
(٩) لحطام ينتهزه: لمال يختلبه.
(١٠) مقنب: الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.
(١١) أو منبر يفرعه: يعلوه.

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه[1]، وقارب من خطوه وشمر من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة[2]، واتخذ ستر الله ذريعة[3] إلى المعصية.

ومنهم مَنْ قد أقعده عن الملك ضؤولة نفسه[4] وانقطاع سببه، فقصَّرت به الحال عن أمله، فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك مراح ولا مغدى وبقي رجال غَضَّ أبصارهم ذكرُ المرجع، وأرَّق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد نافر، وخائف منقمع[5] وساكت مكعوم[6]، وداعٍ مخلصٍ، وثكلان موجَع قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحرٍ أجاجٍ، أفواههم ضامزَة[7]، وقلوبهم قرحة قد وُعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ[8] وقراضة الجلمين[9]، واتعظوا بمن قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من يأتي بعدكم، فارتضوها ذميمة[10] فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم[11].

---

(١) طامن شخصه: خفض، وتظاهر بالخشوع.

(٢) زخرف نفسه للأمانة: أي صنع ذلك ليخدع الناس حتى يأمنوه على ما في أيديهم.

(٣) الذريعة: الوسيلة

(٤) الضؤولة: الحقارة والقماءة.

(٥) منقمع. مقهور.

(٦) مكعوم: أي شد على فمه بالكعام (الكمامة) وهو كناية عن السكوت.

(٧) الضامز: الساكت.

(٨) حثالة القرظ: ما تساقط من ورق السلم.

(٩) قراضة الجلمين: ما يقع مما يقرضه المقص من شعر ونحوه.

(١٠) ارتضوها ذميمة: يعني الدنيا.

(١١) قال الشريف الرضي: وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام، والعذب من الأجاج. وقد دل على ذلك الدليل الخريت، ونقده الناقد البصير عمرو بن بحر الجاحظ؛ فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب البيان والتبيين، وذكر من نسبها إلى معاوية ثم قال: هي بكلام علي عليه السلام أشبه، وبمذهبه في تصنيف الناس، وبالإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال =

قال أبو عثمان: وفي هذه الخطبة - أبقاك الله - ضروب من العجب:

منها: أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية.

ومنها: أن هذا المذهب في تصنيف الناس، وفي الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف أشبه بكلام علي ومعانيه، وبحاله منه بحال معاوية.

ومنها: أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ولا يذهب مذهب العباد. وإنما نكتب لكم، ونخبرُ بما سمعناه، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم»[1].

وهكذا درس الخطبة فردها لأسباب ثلاثة هي:

"١ - لا تتناسب مع ما قيل من مناسبتها.

"٢ - الأسلوب والمعاني أقرب لعلي منها لمعاوية.

"٣ - هذه الخطبة تناسب شخصية الزاهد علي وتنأى عن شخصية وأسلوب معاوية، وهكذا يكون عمرو بن بحر الجاحظ قد استفاد من ملاحظاته النفسية وطبقها على الأدب وأهله قبل أن يوجد علم النفس، ويدرس كعلم مستقل وتقوم الدراسة حول العلاقة بين الأدب وعلم النفس، فقد درس الخطبة من الوجهة النفسية وبذلك يكون الجاحظ قد سبق زمانه بأكثر من ألف عام.

= ومن التقية والخوف أليق. ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد ومذاهب العُبّاد.

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ٢ ص ٥٩ - ٦١.

الخاتمـــة

تمت ـ بعون الله تعالى ـ صياغة نظرية أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي، وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت في لم شتاتها وسبكها في قالب مبوب يناسب العصر الذي نعيشه.

فقد رأينا أن الجاحظ يقدم تعريفه للأدب ومنذ اللحظة الأولى يتضح موقف الجاحظ من الأديب ودوره من المجتمع الذي يعيش بين جوانحه، فأبو عثمان يعتبر الكلمة أمانة وميثاق شرف على الأديب أن يتحملها ويدافع عن لقب الأديب، لأن العهد كان مسؤولاً ﴿ولقد عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان﴾[1] صدق الله العظيم.

على أن عمراً بن بحر لاحظ أن بعض معاصريه يلتزقون في مذاهبهم ويرتزقون بالكلمة ويتاجرون بالشعارات ويتلاعبون بعواطف العامة، فوقف معرياً لأساليبهم داعياً إلى تحصين العامة بالتنوير العقلي المنطقي حتى لا تقع الجماهير فريسة سهلة بين مخالب خونة الكلمة من الدجالين المضللين.

وفي تعريفه للشعر أكد على أهمية الصورة والسبك الجيد ومعرفة أسرار الجملة العربية، وصناعة توزيع المدود ضمنها، والتنويع في حروف الشدة والليونة والفصاحة، وبقيت التجربة الإنسانية النفسية الصادقة وهذه عالجها الجاحظ في مناسبة تالية عندما دافع عن أسباب تفوق العرب على غيرهم

(١) من سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

بالشعر بأن السبب عائد إلى حريتهم، وصدقهم مع أنفسهم ومع الآخرين وبعدهم عن صغار الجزية، وصفاء الصحراء وإشراقها اللذين انعكسا صفاء ونقاء على نفسية العربي القح إضافة إلى العامل المادي البحت فهم لم يفتقروا إلى حد الجوع والانصراف عن المعرفة، ولم يثروا الثراء المفرط الذي يدفع بصاحبه إلى البطر والكسل والاسترخاء فقد جاءوا أمة وسطاً في كل أمور حياتها، «والناس معادن ـ كما قال نبينا ﷺ ـ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام»[1].

إضافة إلى تنبه الجاحظ للسبب النفسي لدى الشاعر الذي يريد تخليد نفسه بشعره وهذه اللفتة البارعة في دراسة الأدب من وجهة نظر علم النفس سبق بها أبو عثمان زمانه بأكثر من ألف عام، وهذا يجعله علماً من أعلام الإنسانية جمعاء تفخر به ولا يقتصر الفخر به على العرب وحدهم.

كما لم ينسَ الجاحظ الأسباب الاجتماعية مثل مكانة الشاعر ضمن مجتمعه القبلي ومكانة القبيلة عينها بين القبائل الأخرى المجاورة لها، والمتحالفة معها وتقدير القوم للشاعر وشعره في تيسير أموره وقضاء حاجاته، وهذا عائد للسليقة اللغوية والأذن الموسيقية الحساسة للنغم والوزن مما يجعلها أسيرة للشعر الجيد فيستولي على عواطفها ويصل إلى أعماق قلبها ليستل الحقد والضغينة ويجعلها ترق لصاحب الشعر أو صاحبته كما حدث للنبي ﷺ حتى سمع كلام التي عاتبته لقتل والدها.

وحتى تكون دراسته شاملة لم يهمل دور الحظ في شهرة الشعر وهذا طبيعي ما دام الله تعالى جلت حكمته هو الذي وزع الحظوظ والغرائز على عباده من مختلف البلاد والأعراق.

وهنا يسبق الجاحظ آخر ما توصل إليه علم النفس في مجال دراسة القدرات الفردية والمواهب حيث تبين أن هناك نسبة معينة محددة من

(١) في معجم ألفاظ الحديث النبوي الشريف «خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام» جـ ١ ص ٣٩٤.

الموهوبين تتساوى بها الشعوب جميعاً وتخلق مع الأطفال، ولكن الفروق التي نراها لدى الشعوب يرجع سببها إلى وجود الطفل الموهوب في مجتمع من مجتمعات الدول النايمة ـ النامية ـ حيث تسحق هذه المواهب غالباً، أو وجود الموهوب في مجتمع متقدم يقدر هذه المواهب فيقوم بالبحث عنها تمهيداً لتصنيفها وتطويرها للاستفادة منها، وكم شكوى ذهبت أدراج الرياح عندما كان أحد المخلصين في منظمة «اليونسكو» وهو «رينيه ماهو» الذي دعا لدول الكبرى إلى الاستفادة من مواهب الأطفال التي تذهب هدراً بسبب الأمية والإهمال، وقال بكل أسىً كم عقل كعقل «اينشتاين» يقتل في كل عام فواجه سخرية أبالسة الصيارفة ومحاربتهم، مما دفع بمنصف آخر اسمه «مكنمارا» للتصريح «بأن الله ديمقراطي» قام بتوزيع المواهب بالتساوي بين شعوب العالم... ولكن...

وعبقرية عمرو بن بحر من النوع العظيم الذي يقف ضد تيار عصره فقام يدافع عن المعاصرين من شعراء زمانه الذين لاقوا الإهمال من معاصريهم علماء اللغة وأصحاب السيطرة الأدبية في ذلك الوقت، لقد وقف الجاحظ معهم داعياً إلى إنصافهم ومحاكمة الشعر حسب جودته دون النظر لصاحبه وعصره ومعتقده.

ولم يفته الإشارة إلى دور السهولة في انتشار الأدب والشعر عامة بين الناس لأن الشعر السهل يفهم وينتشر، والإنسان عدو لما يجهل.

وبهذا يكون أبو عثمان قد درس المسألة من جميع جوانبها وسبق العصر الذي يعيشه في أكثر من فكرة طرحها للبحث. فظلت حتى العصر الحديث ليطالعنا بها مثقفو الغرب، ونأخذها منهم دون أن ندري أنها بضاعتنا قد ردت إلينا...؟.

وفي الفصل الثاني تكلم عمرو بن بحر على شروط الناقد الأدبي أو الراوية كما كان يسمى في عصره فقدم أربعة شروط ما زالت حتى اليوم كما هي لم يستطع عمالقة النقد الأدبي المعاصر أن يزيدوا عليها شيئاً من ميول

نفسية مواتية للأدب وأهله، ومعرفة عميقة باللغة وأساليبها وأحوال أهلها، ووجود الحس الجمالي الحساس القادر على تسجيل جوانب الإبداع الفني بعد التقاطها من مستقبل حساس دقيق ثم لا بد من الإنصاف وهو ضروري لكل عالم عاقل وهذه لعمري لم يطبقها عالم في الدنيا كما طبقها الجاحظ على نفسه!.

وعندما وصلنا إلى نظرية الشك والنحل في الشعر العربي الجاهلي رأينا أبو عثمان يدرس المسألة من ناحية الأسباب، ويعرفنا بمصدر السم الزعاف المغلف ببريق العلم من شعوبية حاقدة أو باطنية معقدة مدجلة، ويسمي لنا بعض أصحاب الديانات الأخرى والفرق المرتدة والزنادقة وأي دور لعبوه في تشويه تراثنا وثقافتنا ولغتنا تمهيداً لتقويض ديننا وهدم بنيان الإسلام الذي نهض بالعرب وانتشلهم من سلة المهملات التي كانوا يقبعون بها، ووضعهم في مقدمة الأمم التي تسير الحوادث وتوجه التاريخ أنى تشاء.

وجاء بعد حوالي الألف عام من ادعى هذه النظرية فأوحى بها مارجليوث إلى حواريه طه حسين ليقوما بإلقاء الضباب والشك حول شعرنا العربي الجاهلي وديننا الإسلامي بطريقة الطعن بالقرآن الكريم... مصدر هذا الدين ومنارة الإشعاع للمسلمين والعرب ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمم نوره ولو كره الكافرون﴾[1] صدق الله العظيم. و ﴿إنا علينا جمعه وقرآنه﴾[2].

ولذا كان لا بد من إعادة الحق إلى نصابه وإرجاع الفضل للجاحظ في دراسة هذه النقطة قبل العالمين المعاصرَيْن.

وفي الفصل الثالث من الباب الأول نوهنا بالموقف المعتدل الذي وقفه أبو عثمان من قضية المعاصرة والأصالة وهو موقف ينسجم فيه الجاحظ مع

---

(١) من سورة الصف الآية ٨.

(٢) من سورة القيامة ١٧.

نفسه خاصة وهو عالم كلام دارس للمنطق متشرب بروح البحث محب للحقيقة والحق أكثر من كل شيء.

ولهذا لم تمنعه شعوبية أبي نواس وشلته من إنصاف شعرهم، ودعانا إلى الاقتداء به إذا أردنا النجاح وعندما ناقش مسألة الطبقات حاول أن يوجه البحث بها وجهة جديدة تعتمد على ثراء الجوانب المبدعة لدى كل شاعر فيقدم من جمع الشعر والرجز والخطابة على من يتقن الشعر والرجز معاً وهؤلاء جميعاً يتقدمون على من يسهل عليه التصرف بفن أدبي واحد وهذه النظرة لو طبقت وأحسسنا الاستفادة منها لكان لنا ولأدبنا شأن آخر. . .

وفي الفصل الأول من الباب الثاني ناقش عمرو بن بحر مسألة الشكل والمضمون أو اللفظ والمعنى دراسة لا زالت كل الدراسات اللغوية والصوتية المعاصرة في أدبنا العربي والآداب المعاصرة مقصرة عنها وأعتقد اعتقاداً جازماً أننا بحاجة إلى تدريس رأي أبي عثمان في هذه النقطة بالذات لطلبة الآداب في جامعاتنا ومدارسنا الثانوية لنضع بين أيديهم مفتاح الحل لمشكلة التعبير الأدبي وتخليصهم من حذلقات أدعياء العلم والمعرفة الذين يتعلمون كلمة ونصف الكلمة في اللاتينية أو الإنكليزية، ويتعالمون بها على أبنائنا وقرائنا في أجهزة الإعلام المرئية منها والمسموعة بحجة أنها مصطلحات فلسفية «ديالكتيكية» ويعلم الله أنها لغة أجدادهم أتباع ماني وديصان ومزدك والشيطان.

وكان الفصل الثاني من الباب الثاني خاصاً بالشعر طالعنا فيه رأي الجاحظ في الموسيقى الداخلية للشعر العربي فقدم عمرو بن بحر النظرية مشفوعة بالأمثلة التطبيقية لنقيس عليها ونـدرب ذوقنا وآذاننـا على النغم الداخلي للشعر العربي وهكذا بالترويض تنمو موهبة التحسس بالجمال في آذاننا ونتوصل إلى معرفة كيمياء الكلمة ونسبة توزيع حروف الشدة واللين والمدود ضمن الجملة العربية وهي دراسة تغني عن كثير مما يرطن به هذه الأيام وحبذا لو استفدنا منها في مخابر الأصوات لنتعرف بدقة على النواحي التي تزيد من انسجام الحروف بعد تسجيل الأمثلة التي عرضها أبو عثمان

وتحليل عناصر الصوت في المخابر العلمية لنتوصل إلى معرفة السر في تكوين النغم بالجملة العربية، وقد كان الجاحظ يعيش في عصر لم تكن فيه المخابر الصوتية موجودة، ومع هذا استطاع الرجل بإحساسه أن يتوصل إلى بعض الأسرار فما علينا اليوم إلا أن نستفيد من هذه الملاحظات ونأخذها كقاعدة انطلاق نتوسع منها في دراسة الأصوات العربية ضمن الجملة دراسة معملية ونقدم نتيجة هذه الأبحاث للمربين علنا نستطيع الاستفادة منها في تنمية ملكة التذوق الأدبي لدى المربين والطلاب ونسهل هذه اللغة على طلابها ومريديها. فهل هناك من يسمع هذه الصرخة؟!.

وعند دراسة الجاحظ لمسألة الموسيقى الخارجية للشعر رد الفضل في دراسة مسألة العلاقة بين الشعر والغناء إلى مواطن البصرة الخليل بن أحمد الفراهيدي ودعانا الجاحظ إلى متابعة البحث في هذه الناحية لتطوير الدراسة وإغناء جوانبها.

وعندما درس الخيال تحت اسم البديع ركز على جمال الصورة الذي يتمثل في بساطتها من جهة وفي غنى الجوانب البديعة بها من جهة أخرى.

وكان الفصل الثالث من الباب الثاني مخصصاً لدراسة الطبع والصنعة في الأدب العربي فقرر أبو عثمان أن العرب عامة أقرب إلى الطبع والارتجال ودرس هذه المسألة من خلال أشعار الجاهلية والإسلام مؤكداً على أهمية البلاغة النبوية كمثال ناصع لمدرسة الطبع في اللغة العربية. وهذه الدراسة القيمة من لدن أبي عثمان جديرة بأن نستفيد منها وندرسها لطلابنا في مدارسنا الثانوية والجامعة إلى جانب قضية اللفظ والمعنى فهي تغني عن استظهار قواعد البلاغة الجافة التي جففها انعدام الذوق الفني لدى المتأخرين من علماء البلاغة حتى باتت حصة البلاغة شبحاً يخيف بدلاً من الإقبال عليها كمادة مرشدة للمتأدب تفتح أمامه مجال القول وتسهل له طرق التعبير الجميل.

وجاء الباب الثالث وفي بدايته فقدمنا رأي عمرو بن بحر في العلاقة بين

الأدب والأخلاق ورأينا كيف تعمق الجاحظ في دراسة مسألة الكذب في الأدب من جميع جوانبها، وقدم بحثاً طريفاً للمواضع التي يحلو بها الكلام المحال مثل بعض مراحل الاندفاع العاطفي أو التوتر النفسي، ومن بعض مرتزقة الأدب خونة الكلمة. وعلى أية حال فالمحال مقبول عندما يكون قريباً من الواقع الذي يعيشه الناس مما كان منهم أو مما يجوز أن يقع منهم.

ولذا رفض أبو عثمان الإسراف الذي يبلغ الغاية في المبالغة والذي يبلغ درجة المستحيل ويخالف مبادىء الواقع والعقل والمنطق.

ولخصنا رأيه من الأخلاق عامة فرأينا أن الجاحظ يؤمن بأن الكلمة عهد وأمانة في عنق الأديب يجب أن يكون صاحبها وفياً للأمانة يوجه كلمته في خدمة المجتمع والآداب العامة إلا أنه يتسامح بكل هذا ويطاوع ذوقه عندما يتعلق الأمر بصورة جميلة أو معنى غريب فيتناسى ما قرر من قواعد المنطق والأخلاق ويقف عاجزاً أمام الجمال ويسامحه وأصحابه بقواعد المنطق والعقل والأخلاق. وعلى كل فالكمال لله وحده.

وبناء على ما تقدم وضحنا رأي أبي عثمان في الواقعية الأدبية ودراسته لمسألة اللحن متى يجوز ومتى يكون مرفوضاً وحبذا لو رجعنا للاسترشاد برأيه في هذه النقطة بالذات في هذه الأيام التي يدور حولها النقاش فيما يخص واقعية الحوار في الأدب المسرحي والتمثيلي، فقد كان لأبي عثمان رأي يمكن أن نستفيد منه في أيامنا هذه.

ولا شك أن عمراً بن بحر كان رائداً في دراسته للغة ككائن حي متأثر بالمجتمع سبق عصره وهذه آخر صيحات النقد المعاصر وآخر تقليعات الموسم الأدبي يتباهى علينا بها متحذلقونا في أخريات الزمان!.

ويحق لنا أن نفاخر الأمم جمعاء بفكر الإنسانية عمرو بن بحر عندما درس أثر البيئة على الأديب دراسة تتحدى عباقرة العالم المعاصرين وبين لنا سبيل التخلص من الجهل والفوضى وربط بين عناصر التخلف في كونها

السبب والنتيجة معاً هذا الثالوث الرهيب: الجهل والفقر والمرض، ربط بينها الجاحظ ودرسها من خلال كلامه على الأهواز وكان بها سباقاً للدراسات المعاصرة في العالم أجمع.

وفي الفصل الثالث من الباب الثالث بحث الجاحظ مسألة السرقات الأدبية فكان منصفاً منطقياً مع نفسه ومع الأدباء وطبق نقده على الشعراء موضحاً أن هناك أكثر من شاعر يقومون بالتعبير عن المعنى الواحد وهم يشتركون في ملكية هذا المعنى لأنهم يتساوون في مقدرتهم التعبيرية، لأن المعنى ملك لمن يحسن التعبير عنه فلا أهمية للتقدم في زمن القول فالمهم إجادة التعبير والتصوير، وإنما العيب كل العيب عندما يقصر المقلد عن صاحب المعنى فيرميه الجاحظ بالسرقة وفيما عدا هذا فقد كان يعجب بمن يزيد من جمال الصورة أو التشبيه أو يحسن أكثر من غيره في إظهار المعنى بصورة أوضح وآنق ولو استفاد منه نقادنا القدامى والمعاصرون لوفروا على أنفسهم عناء الملاحقة لرمي الناس بالسرقة في معان مشتركة، حيث وقفوا سداً أمام المتأخرين من الشعراء والأدباء فانحرفوا نحو زخرفة اللفظ والجمود حتى لا يرموا بالنعت الجارح «السارق».

وهنا نشير إلى دراسة الجاحظ لتطور المعنى عبر العصور من خلال الشعراء وموازنته بينهم من خلاله فقد كان رائداً للآمدي الذي كتب موازنته بين البحتري وأبي تمام على أساس النظر لقدرة الشاعرين على التعبير عن المعنى الواحد. وعلى أساسها نال الآمدي شهرة عظيمة في دنيا النقد الأدبي مع أن أبا عثمان هو صاحب الفكرة!.

وكان الفصل الأول من الباب الرابع مخصصاً لدراسة فن المديح في الشعر العربي وقدم الجاحظ من خلاله دراسة شيقة لأسبابه سواء عند الممدوح من حبه للخلود والذكر الحسن، أو من ناحية الشاعر وحرصه على المال وطمعه بالشهرة، وبعدها قدم لنا عمرو بن بحر بعض التقاليد التي لا بد من مراعاتها في قصيدة المديح موضحاً أن هذه النصائح نتيجة مطالعته للشعر

العربي الجاهلي ودراسة أساليبه من خلال القصائد الجيدة.

ولا شك أن الدراسة الفنية للمديح تبقى أغنى دراسة لهذا الفن حتى الآن حبذا لو استعضنا بها عن كل ما عداها في دروس البلاغة لأبنائنا.

وقد أحسَّ أبو عثمان أن المثال قد يوضح أكثر من النظرية فجاء ببعض المختارات الجيدة علنا نقلدها ونستفيد منها في دراسة الأسلوب الجيد للمديح.

وهذه نظرية تربوية تقدم بها عصره بكثير أن يعرض القاعدة من خلال المثال ثم يقدم التمرينات للتطبيق كي يتأكد المربي من فهم المتلقي للمسألة ويختبر مقدرة كل طالب على استيعاب ما سمع ومن ثم تطبيقها والاستفادة منها في تعبيره.

ولا شك أن دراسة عمرو بن بحر لفن الهجاء في الفصل الثاني من الباب الرابع تعتبر من أجور الدراسات الفنية لفن الإضحاك والسخرية اعتماداً على معطيات علم النفس والاجتماع اللذين لم يكونا قد ولدا زمن أبي عثمان فقد درس الهجاء دراسة أدبية معتمداً على ملاحظاته النفسية والاجتماعية مما يجعل هذه الدراسة مفيدة لكتاب المسرحية الضاحكة في أيامنا وهي خير مرشد لهم وحبذا لو درسها طلابنا وكتاب المسرح فهي والحق يقال أفضل من كثير مما يترجم لهم من اللغات الحية المعاصرة لأن الجاحظ قدم دراسة متكاملة للنفس الإنسانية وميلها للضحك وما يكون سبباً للسخرية أكثر من غيره، كالتركيز على التناقضات بين الخلق والخلق في القول والعمل مثلاً، أو كالظرافة أو التغافل، والاختصار والإضحاك غير المباشر عن طريق تصيد الشبه المضحك بين المهجو والمشبه به...

ثم جاءت المختارات لتزيد من تنويرنا وتوضيح المسألة من خلالها ليسهل علينا الاستفادة منها فيما بعد.

هكذا قدم لنا بعض النماذج في النقائض الشعرية وقدم مناقضة نثرية ولم يشر إلى نقائض الثلاثي: جرير والفرزدق والأخطل، مكتفياً بالتلميح إلى

تعاطفه مع جرير واستجادته لشعره أكثر من زميليه.

ولم يعن الجاحظ كثيراً بالبقية الباقية من فنون الشعر العربي مكتفياً ببعض المختارات علنا نقيس عليها. وهذا ـ كما أرى ـ راجع إلى طبيعة عصر الجاحظ حيث حظي المديح والهجاء بنصيب الأسد من اهتمام الجمهور والنقاد ومنهم أبو عثمان بطبيعة الحال.

وخاتمة المطاف في الفصل الرابع من الباب الرابع كانت في النقد التطبيقي لنرى كيف طبق الجاحظ عل نفسه شروط الراوية فجاء نقده عادلاً لأن أبا عثمان يتمتع بشروط الناقد التي وضعها وتكلمنا عليها في الفصل الثاني من الباب الأول، وللجاحظ الفضل في أنه ألزم نفسه بزيادة شرط التواضع والبحث عن الحقيقة في موطنها بين الناس من مختلف الطبقات، فلم يجد من نفسه حرجاً عندما سأل الحداد عن معنى بيت من الشعر لم يفهم معناه، فقام الصيقل المختص بشرحه اعتماداً على اختصاصه!.

هل بعد هذا من مثال أعلى لأخلاق العالم الباحث!!؟ ورأينا كيف توصل إلى الربط بين علم النفس والأدب وتعرف على أسلوب الأديب من خلال شخصيته فكان سابقاً بألف عام لمن قال: «الأسلوب هو الرجل» من أبناء الفرنجة الذين نصلي لهم ونقف أمامهم مبهورين:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

أرجو من الله تعالى التوفيق والعون ليتم لي خدمة لغة الضاد، لغة القرآن الكريم بتقديم الدراسة التالية عن «نظرية الجاحظ في البلاغة وإعجاز القرآن»[1] والله ولي التوفيق.

محمد المصري
بنغازي في ٨ صفر ١٣٩٧ هـ
٢٨ يناير ١٩٧٧ م

---

(١) صدرت «نظرية الجاحظ في البلاغة» للباحث عن دار العدوي في عمان عام ١٩٨٣.
و «نظرية الجاحظ في إعجاز القرآن ومنهجه في تفسيره» تحت الطبع لدى دار الفرقان. عمان.

موجز مضامين البحث

المراجع التي وردت في هوامش كتاب «نظرية الجاحظ في النقد الأدبي»

مرتبة حسب ورودها في البحث ما عدا معجمي ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فقد قدمتهما أولاً

١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار مطابع الشعب. ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م.

٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف. عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل، الاتحاد الأممي للمجامع العلمية. رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ونشره الدكتور أ. ي. ونسنك، سبعة أجزاء، ليدن: برايل ١٩٣٦ ـ ١٩٤٣.

٣ ـ رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد. القاهرة: مطبعة التقدم العلمية ١٣٢٣ هـ.

٤ ـ الفهرست لابن النديم. القاهرة: الرحمانية.

٥ ـ الحيوان. لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون. سبعة أجزاء. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. ١٣٥٦ هـ. ١٩٣٨ م.

٦ ـ البيان والتبيين. للجاحظ. تحقيق حسن السندوبي. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى. شارع محمد علي بمصر ١٣٧٥ هـ. ١٩٥٧ م.

وقد أخذت من هذه الطبعة الشواهد والتوثيق كان بالرجوع إليها

باستثناء بعض الشواهد التي تمت مراجعتها قبيل طبع الكتاب على نسخة دار الفكر في بيروت الطبعة الرابعة لحساب السيد محمد فاتح الداية.

٧ ـ **رسائل الجاحظ**. تحقيق عبد السلام هارون. في مجلدين القاهرة: مكتبة الخانجي ١٣٨٤ هـ. ١٩٦٤ م.

٨ ـ **البخلاء** للجاحظ. تحقيق طه الحاجري.

٩ ـ **في النقد الأدبي**. سيد قطب.

١٠ ـ **فن الشعر**. لأرسطو. ترجمة عبد الرحمن بدوي.

١١ ـ **الموشح**. للمرزباني. القاهرة: السلفية ١٣٤٣ هـ.

١٢ ـ **الأغاني**. لأبي الفرج الأصفهاني. القاهرة: التقدم ١٣٢٣ هـ.

١٣ ـ **خزانة الأدب**. للبغدادي. القاهرة: بولاق ١٢٩٩ هـ.

١٤ ـ **عيون الأخبار**. لابن قتيبة. القاهرة: دار الكتب ١٣٤٣ هـ.

١٥ ـ **ديوان المعاني**. للعسكري. القدسي ١٣٥٢ هـ.

١٦ ـ **النقائض**. رواية أبي عبيدة. ليدن: ١٩٠٥ م.

١٧ ـ **المفضليات**. للمفضل الضبي. القاهرة: المعارف ١٣٦١ هـ.

١٨ ـ **الأمالي**. لأبي علي القالي. القاهرة: دار الكتب ١٣٤٤ هـ.

١٩ ـ **ديوان القطامي**. برلين: ١٩٠٢ م.

٢٠ ـ **مجالس ثعلب**. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة: المعارف ١٣٦٩ هـ.

٢١ ـ **المحاسن والمساوىء**. للبيهقي. القاهرة: السعادة ١٣٢٥ هـ.

٢٢ ـ **نصوص النقد الأدبي**. لويس عوض. القاهرة.

٢٣ ـ **النجوم الزاهرة**. لابن تغربي بردي. القاهرة: دار الكتب ١٣٤٨ هـ.

٢٤ ـ **معجم الأدباء**. لياقوت الحموي. القاهرة: دار المأمون ١٣٢٣ هـ.

٢٥ ـ **السيرة**. لابن هشام. جونتجن ١٨٥٩ م.

٢٦ ـ **مجمع الأمثال**. للميداني. القاهرة: البهية ١٣٤٢ هـ.

رقم الإيداع لدى
مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٢٦/٣/١٩٨٤